عبده خال

مدن تأكل العشب



دار الساقي

القافلة لم توصل «يحيى» الصغير إلى حيث كان ينبغي أن يصل. تتوزّع الأماكن في حياته ويبتعد واحدها عن الآخر، كما يتوزّع الأهل المفترضون. لكن خيطاً يشدّ المتفرّق فيلمّه في واحدٍ هو السيرة على اختلاف رُواتها.

المسافات ما بين جدّة وقريته الأصلية تنأى، بقدر ما تكبر جدّة في عينيه الصغيرتين. وكلما كبرت المدينة صغُر حيالها.

وتمضي الحياة، حياته وقد صار شاباً، في احتمالاتها. إلا أن صورة الأطفال الذين جُعلوا عبيداً ظلّت طريّة في ذاكرته التي لم تهرم. والتحق فعلاً بمن وعدوه بالخلاص ولاحوا في عينيه مُخلّصين. غير أن سيرته، مثل سِيَر الضحايا الكثيرين، ظلّت تلهث وراء أحداث كبرى وعواطف مستحيلة. وفي النهاية كفّت القدرة على الاحتمال، فكل يوم تطلع الشمس لتقتل حلماً كنا نعيشه.

عبده خال قاص وروائي من جدّة، مشرف على الملحق الأسبوعي الثقافي في جريدة «عكاظ». صدر له: «حوار على بوابة الأرض»، «لا أحد»، «ليس هناك ما يبهج»، «الموت يمر من هنا»، «حكايات المداد».

ISBN 978-1-85516-883-1

9 781855 168831 >

DAR AL SAQI

دار الساقي

رواية

مدن تأكل العشب

أمامي ترحل العصافير

الخروج للتيه — يحي شخابيط — **سقطت من الكرسي الرابع**

صبابة الحنون — ذلك ما جرى — غرباء الجدالة — **قرب الضحى**

الجدامة — المدن والحقول المنسية — أبكي على ما جرى لي يا هلي

انشعاب الوجوه — الصعوداء — صهى الجرح

الحبوب في الأماكن الرديئة — اللون الأحمر دمنا

سيادة صاحب المجد — ضربة السبت — **لن ندخل المدينة**

الهربة

عبده خال

الغلاف : نحت لـ ساي تومبلي ١٩٩١.

عبده خال

مدن تأكل العشب

دار الساقي

الطبعة الأولى ١٩٩٨
الطبعة الثانية ٢٠٠٨

ISBN 978-1-85516-883-1

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

إهداء

إلى رجل يمد قلبه للآخرين بالحب فتقاسمناه ليغدو قلوباً ننبض به...

إلى هاشم عبده هاشم

عبده

عزيزي القارئ:

ستجد في هذه الرواية أصواتاً متعددة ومتداخلة، ورأينا وجوب تنبيهك إلى أمرين مهمين، فهذا العمل يمثل روايتين متداخلتين، إحداهما لمؤلف مجهول وجدت فصول روايته بطريقة ما، فقمنا بدمجها مع عمل آخر لتكامل العملين بصورة متطابقة، أما الأمر الآخر فنحن نود أن نسجل اعتذارنا للمؤلف ولك على هذه البدعة المستحدثة.

الناشر

استهلال

أنا لا أعرف جمال عبد الناصر وأنتم لا تعرفون جدتي.

جمال رفع شعار الوحدة العربية وفشل، وجدتي رفعت شعار إغاثة الملهوف وفشلت؛ والاثنان أحمل لهما حقداً دفيناً وأحملهما مسؤولية ضياعي.

كان من الممكن أن أعيش بداخل قريتي كبقية أهل القرية، اشتغل بأي مهنة بسيطة وأعود في آخر الليل لأرتمي كبهيمة تفككت فقراتها فاستسلمت للاسترخاء الطويل قبل أن تشد بحمولة أخرى، كما كان من الممكن أن أظل «أجح» بداخل السوق متبضعاً وبائعاً لتلك السلع التي لا تدر سوى الدوار اليومي والعودة بالنزر اليسير من المؤن اليومية، أو أن أظل داخل الحقول أزيح دويبات الأرض عن سنابل تخفق لنسمات العليل المتدافعة أثناء الأصيل وأنشد مع الرعاة أناشيد اللوعة الغائمة.

كان يمكن أن يحدث هذا لولا «فرعنة» جمال واستعجال جدتي لإنضاجي قبل الأوان. وكان يمكن أيضاً ألا أتورط في حياة باردة ووحدة قاتلة لا أجد فيها سوى نفسي أطارحها الهموم والشجن حتى ملت من خواطري وهجرتني، وقادتني لأن أهجر كل شيء وأدخل

إليها غريباً نتبادل التحايا الباردة وهز الكتوف وتبادل ظهورنا بمجرد إلقاء التحايا ـ حتى هذه التحايا تقاعسنا عن تبادلها مؤخراً.

تخاصمت مع كل شيء وتصدعت كجدار كان يقف عالياً. فجأة انهار وتكوم على بعضه ليكشف المستور. كانت تقف خلفه نفس عارية تقطعت أمانيها وأحلامها ولم تكترث باطفاق حلم ما يواري سوءاتها، فجلست تستقبل العيون الشاردة والضحكات الباردة. ملت هذه النفس من كل ما حولها؛ اكتشفت أن البشر كالتفاح ناضجون ومتماسكون خلف قشرة رقيقة إذا اجترحها سكين تأكسدت واقتربت من العطب بسرعة مذهلة، ثم اكتشفت أن جسدي تابوت يحنطها ليتسلى بها فافترقت عن جسدي. افترقنا، تبادلنا قليلاً من الوساوس بالأمس بصنادق جبل أبو مخروق، هناك حيث يطل الجبل بحجاره الكلسية على تلك الصنادق البائسة والمترامية بعشوائية على سفحه. كنت أجلس في صندقة يمضغها البرد القارس وتستبيحها الرياح. أجلس مغموساً في ملابسي الثقيلة الشوكية تصطك أسناني فأكوم عظامي أمام مدفأة تسلل دفؤها عبر تلك الشقوق الواسعة ولا أقدر على الضحك..

(يا فخامة الرئيس الآن أسمعك تعلن تنحيك عن كرسي الرئاسة فأهجس بمرارة: ـ الآن!

لقد حملنا وزرك وآثامك العظيمة، ولن تنهيها تلك الخطبة التي تعودت على سماعها. كنت وحيداً وأنا أستمع إليك، وحيداً وأنا أحبك، ووحيداً وأنا أكرهك).

هي لعبة ـ لمن لم يجربها ـ سمجة. لعبة أن تسير وحيداً وتتخيل شخوصاً وأشباحاً يزاملونك، ويحبونك وينتظرونك، ويخافون عليك ويشتاقون لك. وقبل أن تقطع طريقك تكون قد تخليت عن كل هذا وعدت وحيداً، لتهجر داخلك عن داخلك.

بدأت جدتي بأول خطوة وأسلمتني للطريق، وتركتني غصناً أخضر فحننت لأي قلب يزرعني بداخله؛ حننت لأي يد تعيدني لشجرتي البعيدة. وعندما أطل جمال من خلف الإذاعات حاملاً شعار الوحدة ركضت خلفه ففرق بعضي عن بعضي. كنت أسمع صوته من المذياع فأهتز طرباً وأنتشي، صوته الهادئ الواثق يملأ شراييني بالحبور. أصفق لوحدي بداخل تلك البرندة التي ارتضيت أن تكون مأواي وسجني. كنت مؤمناً بما يقول إيماناً لا يخالطه شك، إيمان من يبحث عن الخلاص. وتعلقت به فوجدته صنماً من تلك الأصنام التي نقدسها ونتبرك بها وهي جامدة لا تعرف مقدار لوعتنا بها، حبنا لها، وترديدنا لاسمها.

كان جمال الخيط الذي يشدني للحياة، الخيط الذي يغزل وحدتي بألوان قوس قزح، فأرى الأمطار وأشم رائحة الأرض. ألمح السماء تدنو فأغدو طائراً يحلق في الفضاء.

كان كالحبل السري الذي يربطني بالحياة على أمل أن أخرج من شرنقتي وأجتمع بمن أحب. لم أكن مثله مهتماً بوحدة الأرض؛ كنت مهتماً بوحدة القلوب، مهتماً بالعودة. كنت أظنه يسعى لعودة الغرباء إلى ذويهم، وأنه إحدى الشخصيات الأسطورية التي تخرج في يوم عاصف مطير لتدل التائهين عل الدروب الصحيحة. كنت أظن ذلك بينما كان يسعى لتوحيد التراب، ورفع صورته على الهامات وإضرام الصدور لتتشقق الحناجر بترديد اسمه. وفي مسيرته قطع روابط كثيرة. وبينما كانت دماء ضحاياه تسيل في الشوارع كان يجلس في قصر عابدين يحتسي حساء دافئاً ويتلذذ بوجبة دسمة مستمعاً للإذاعات وهي تمجد الوحدة وراعيها، ونحن كالماشية نسير وفق عصاه التي تهشنا إلى هناك.. في البدء لم يكن يعنيني كل تلك الروابط التي

قطعها، كنت أردد مقولة قدوري:

ـ الوحدة تحتاج لمخرز يوصل اللحم باللحم.

وكنت أول ضحاياه. قطعني أنا، أنا الذي أحببته، وصفقت له وحيداً في غرفتي وسجني.

ـ كم أحببتك وكرهتك يا جمال.

أحببته وهو لا يزال جنيناً في الذاكرة. كنت أغدق عليه الأوصاف وأعلق على صوته الدافئ الأمنيات. وحين ظهر تمدد وتمدد وتضخم، فتقازمنا أمامه وهرسنا تحت تحيته العسكرية وصوته الواثق. هزمني حبه. أن تحب من تكره فهذا انتصار له. أما أن تكره من تحب فهذا الهزيمة لكل الأحلام والأماني التي رويتها بأحاسيسك.

(ـ كرهتك يا جمال، هل أوفيك حقك إذا كرهتك؟

كنت لاعباً ماهراً وهذه الحياة لعبة ممتدة الأطراف، لعبة نشترك فيها جميعاً حتى المتفرجون يلعبونها، لعبة أن تخسر وأنت لست طرفاً في اللعبة. خسارتك كونك ضمن برواز اللعبة، تصور!!).

جمال شخص لا يعرفني وعرفته فلاحاً زرع في مخيلتنا الأماني، فأحببته. وعندما استطالت نبتته في أعماقنا كان الزرع مصفراً، وهب كريح صرصر اقتلعنا من حياتنا وكان سبباً رئيساً في خسارتي ولوعتي ووحدتي وغربتي. قام بتقليم شجرتي العائلية وتركني غصناً يابساً مقذوفاً في الغربة، يذكرني بالسيل الذي كنا ننتظره بقريتنا كي تنهض على ممشاه حقولنا التي جرى في أوردتها الجدب والغبار، كانت حقول مغبرة تنتظر فقط أن تمطر السماء وتتجمع في ذلك الوادي الميت منذ سنوات لتروي جدبها حتى إذا جرى الماء ونهضت الحقول مرحبة بمقدمه جرفها عنوة ولم يكترث بأهازيجها ورقصاتها المعدة لاستقباله.

ينبت أبي في مخيلتي وهو يقلب بصره في السماء، ويقود بعينيه غيمة صيف، يوقفها على حقله ويغني لها لتمطر، فتمضي تاركة غناءه يتحشرج في حنجرته. ويستقبله الغبار ونحن ذرية تنتظر القمح والماء البعيد. كانت القرية تخرج للفلاة دافعة أنعامها وأطفالها متضرعين رافعين أكفهم ومستسقين، وحين يهطل الماء يرفعون أكفهم وبحناجر سكنها الهلع يرددون:

ـ حولينا ولا علينا.

وجمال من كرسيه الرئاسي وسيل كلماته التي انتظرتها حقولنا الميتة جاء عاصفاً واقتلع نبتتنا، اقتلع أسراً صغيرة وطوح بها على جنبات الوحدة لتتفرق أسر ويموت غال ويعيش جسد شوهته قنابل الثورة.

أوشكت على إنهاء غربتي الطويلة، لكن الحرب طحنت كل شيء، ولم يعد هناك من داع لإنهاء تلك الغربة.

مسافرون جدد، يجمعنا الطريق وغربتنا وذكريات مالحة أو لذيذة خلفناها خلفنا ومضينا. كانت السيارة تهتز وتلهث في مشوارها الطويل ونقاط كثيرة نعبرها فننفصل عنها وتسكن بدواخلنا كبقع من أماكن لا تعني لنا شيئاً. هي فقط خطوات لمكان سنسكنه ويسكننا. نتآلف معه بينما تمضغنا الأيام ونحن نسترجع ما مضى من أيام.

وجدت اسمي في سجلات الشيخ الأفندي: (يحيى الغريب)، وأمامه وضع إشارة اختلجت أعماقي لها، ورف بداخلي حلم لذيذ. وقفت أمامه:

ـ أسألك بالله من أين وصل لك هذا الاسم؟

ـ امرأة كانت تبحث عن صاحب هذا الاسم وتقول انه بيع

كعبد بعد أن خطف وهو في طريقه للحجاز.

ـ وأين هي؟

ـ لا أدري فقد حدث هذا منذ سنوات حين كانت تجارتي بمكة، لكنني سمعتها تقول انها ذاهبة للرياض.

ـ (الرياض مدينة بعيدة، وسأكون فريسة لصحرائها الموحشة).

كنت أوسوس بهذا لأقشع عن بالي فكرة الرحيل. وفي تلك الليلة وقف حامد بمخيلتي وهو ينهب الطرقات باتجاه الموقف. كان يتحشرج بالكلمات:

ـ لكي تصيب السعادة، عليك أن تتخلص من أحلامك.

فقررت أن أتخلص من أحلامي، واستقبلت الرياض بصحرائها المتسعة، وها أنا كدودة في بياتها الشتوي تقبع بصنادق جبل أبو مخروق تمضغ غربتها ووحدتها.

هذه الحياة كلمات تتقاذفنا فنركض خلف بريقها ونكتشف أنها سراب بعد فوات الأوان، هل حقاً نستطيع أن نتخلص من أحلامنا؟

في سفرنا للرياض قال السائق:

ـ هذه مدينة عفيف سنبقى بها هذه الليلة وفي الصباح ننطلق.

كان التعب يسكننا وشيء من الحنين نتبادله بكلمات دافئة. نزلنا وكان ذلك الراكب ذو العينين الدوديتين لا زال يمسك بزوجته وعيناه تتقافزان صوب من يحاول مد طرفه إليها. لا أدري لماذا كانت تلك الزوجة تحدق بوجهي كثيراً، وكلما أرخيت بصري عمقت نظراتها صوبي في غفلة من زوجها. عيناها تذكراني بعيني حياة. تلكما العينان اللتان تثقبان القلب وتتركانه دامياً وتمضيان دون أن تسعفاك بكلمة. لا

أدري لماذا أشعر بالندم ـ إلى الآن ـ لأنني لم أخالسها النظر كما كانت تفعل. أكنت خائفاً من الغرق مرة أخرى؟ أصاب بالحمى كلما أطلت عليّ عينا حياة في وحدتي، هي جرح آخر أحمله معي في هذه الغربة وكلما حاولت تناسيه ذكرني به هذا المنديل المصرور وتلك الجملة التي تحيي في داخلي أملاً خائراً (اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب).

كنت حائراً طوال الطريق أهذي بأسئلة خاوية:

ـ ستستقبلك مدينة الرياض فماذا ستجد فيها؟ هل أجد خالتي وأنهي كل هذا العذاب؟ أريدها أن تسندني، تحتويني بعد أن ضاع كل شيء.

كانت تلك الزوجة الشابة تصوب نظراتها باتجاهي وكلما أشحت بوجهي عنها أخذت تتبعني عيناها.

هل أحب جمال امرأة لها عينان حارقتان كعيني حياة فأحرق الدنيا من أجل أن تسكنه مقلتاها؟

هل أحب فعلاً فتاة كحياة؟

أيقنت أنني أهذي، وأن حياتي كانت سلسلة من الهذيان. فقد تم الإعلان عن مؤتمر الخرطوم وسيجلسان ويتصافحان، وينسى جمال أنه كان السبب في غربتي، سينسى أنه دفن أغصاناً لم تر الحياة بعد، ودفن معها تلك المرأة التي أحببتها وأحبتني، سينسى كل شيء. من يذكرني الآن؟ من يذكر طائراً رف بجناحيه الفضاء وحيداً عله يلحق بالطيور المهاجرة.

قلت لكم إنني أهذي، ولكي لا يطول هذياني لنبدأ من البداية إن شئتم.

الفصل الأول

من خلف الليل والريح، والحكايات المنسية، من هناك، من بعيد، من قرية صغيرة تنام بين عيدان القصب، وثغاء وخوار الأغنام والأبقار السارحة في شعاب الأودية الموصلة بعضها لبعض خرجنا. قافلة صغيرة كانت بغالها وحميرها وجمل واحد تخب في القفار الموحشة، وأصوات الذئاب تعوي بالأودية وترتد ذاوية، وحشائش أكلها الجدب فركضت في الطرقات توزع اليباس والشوك.

عتمة الليل تنيرها نجوم مهولة متناثرة ظللت لوقت طويل معلقاً رأسي صوبها أشكلها أشكالاً يأنس لها الفؤاد. كنت أشعر بلوعة ولم يكن أحد مكترثاً بطفل رديف لامرأة مسنة تمسك بلجام حمارها بسعادة واستبشار، وبين الحين والآخر تنكفئ تتحسس خرج الحمار وتطمئن لوجود أقراص الدقيق المعجونة بالسمن والسكر. هذه الزوادة التي انتهت قبل أن نصل إلى أقرب مدينة لنتزود بزوادة أخرى. أطلقت جدتي جملتها بعشوائية:

- أرى أن أحمل معي يحيى

- لا زال صغيراً على الحج

- بل ليعمل ويكد

- أيضاً لا زال صغيراً

ـ ستتكفل به خالته

ـ أخشى أن تفسده الغربة

ـ الغربة تصنع الرجال

جمل مبتورة وقصيرة قذفت بي في الدروب الموحشة البعيدة. سنوات طويلة مضت على تلك الجمل التي لا تزال عالقة بالبال.

خرجنا بعد أن وضعت أمي ريالاً مجيدياً في كمري وطبعت قبلة خاطفة على جبيني واختفت دافعة أخوتي أمامها، وعندما بكيت نهرني ابن أخيها حمد بغلظة:

ـ كن رجلاً لا زلنا في القرية

ابتسمت له جدتي مناصرة، فازداد شططاً وصفعني حين تماديت في البكاء، وحشرني خلف جدتي على حمار ضامر الأرداف طويل الأرجل. كنت أرى الأرض بعيدة، فأمسك بخاصرة جدتي بقوة وأدفن رأسي بظهرها المعوج، وأتطلع لقريتنا التي تركض للخلف. لمحتها تقف مع المودعين تمسك بأخوتي كي لا يتراكضوا خلفي، وظلت رقبتي معلقة بها حتى التهمتنا القفار الممتدة.

وجدت فرصة سانحة للعويل حين ارتفع صوت القافلة ملبية بصوت جماعي مهيب:

ـ لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، لبيك.

إن الحمد والنعمة لك،

لا شريك لك،

لبيك اللهم لبيك.

لبيك لا شريك لك لبيك،

إن الحمد والنعمة لك...

بكيت وصرخت ولم يسمعني إلا جدتي التي كانت تمد يدها للخلف وتقبضني:

ـ كن رجلاً

فأزداد نحيباً وعويلاً. أشارت لقريبنا بالتفاتة محرضة ليقطف غصناً من أشجار الأثل التي كانت ترافقنا وألقاه على جلدي. أحسست بنار تأكل ظهري، فأخذت أبكي بصوت مكتوم. كنت أبلع شهقاتي ودموعي، وأتمنى لو أنني أفر عائداً لأمي وأخوتي وغنمتي الصغيرة التي رأت الدنيا قبل أيام فقط. تمنيت أن أعود للركض بين حقول القمح المتعالية، وأندس بين سيقانها وأوغل بداخلها فلا يلمحني أحد. فكرت مراراً أن أنسل من خلفها وأركض وأركض وأغيب عن هذه الوحشة التي تغمرني.

شتمت جدتي في سري، فلم ترحني هذه الشتيمة فشتمت أمي، فنزل بالقلب حجر ثقيل ارتطم بعنف. بكيت حين شتمتها، وتلظت حرقتي. كنت أريد أن أسألها:

ـ لماذا أسلمتني لجدتي، ولهذه القفار البعيدة؟

سارت قافلتنا تتلكأ، ومع كل المنعطفات تتوالد قوافل وتنضم لبعضها ميممة نحو الشام. تضاعف عدد الراجلين ـ كان غالبيتهم من الرجال ـ يتوالدون من منعطفات القرى ويصبون في طريق قافلتنا. يبدأ دخولهم بالسلام وينتهي بمشاركتنا أكلنا وشربنا والخوف مما قد يصيبنا.

قافلة طويلة تخب في الأرض؛ وجوه هائمة، وأنفاس لاهثة، وقامات منحنية، ونساء صامتات، وأطفال أرهقهم التعب والبكاء.

قافلة طويلة تجتمع في السير والتلبية والغناء ويعودون لداخلهم فرادى. يثرثرون بأحلامهم ووساوسهم لصدورهم ويجدون في السير ويتقافزون ليتحاشوا الشوك المبسوط كفراش ممتد حتى الأفق. أحذيتهم المتآكلة انهارت وتركت الراحات نهباً للشوك المدبب الغائص ما بين اللحم والعظم، ليصبح المشي كالسير على جمرات من لهب. وبين الحين والآخر تتوقف القافلة لصياح الأطفال والنساء.

الشوك الممتد مع الأفق كان عبوره يستوجب الحيطة والحذر، فالراجلون ابتلعهم الشوك وتوقفت القافلة مراراً، وفي كل مرة يعيد الدليل بصوت واثق:

ـ هذه آخر شدة وبعدها ستجدون الرمال الناعمة.

ويصيح محفزاً:

ـ جدوا في السير.

وكلما عبرت القافلة الفيافي والقفار وجدت الشوك يسير معها، فسفه الكثيرون دليل الرحلة الذي اختلق الأعذار وردد:

ـ هذا الشوك يتوالد بسرعة والريح تدفعه أمامنا.

لم يعد أحد يكترث برأيه، وتبرع بعض المسافرين بإخراج تلك الأشواك ومرخوا الأرجل بزيت السمسم ولفوها بالخروق البالية، وفي أحيان كثيرة تهب رياح النخوة على بعض الراكبين فيترجل عن دابته لتصعد امرأة أو طفل مخففين من التوجع المصاحب لرحلتنا. كان السير ليلاً عذاباً إضافياً لأولئك الحفاة، فأكثر من شخص وجد نفسه يسقط

في فخ الأشواك، وكلما حاول التخلص تعمق في مساحات مليئة بالشوك. ولم تقلع القافلة عن سيرها ليلاً إلا في إحدى الليالي المظلمة حين ابتلعت إحدى الآبار المكشوفة امرأة وابنها. ليلتها ـ فقط ـ سمعنا صرخة استغاثة غرقت بالماء قبل أن تصلها يد. في تلك الليلة بقينا على حافة البئر وقد جبن الجميع عن النزول لنجدة تلك الاستغاثة، ومن وجد الشجاعة تخلى عنها سريعاً لافتقادنا للحبل الذي يعيده للحياة.

ظل الرجال يتبادلون المشورة حتى طلع الصباح حين جاء حاسي البئر وأخرجها هي وابنها جثتين. بدأ الانتفاخ يسري في بطنيهما وأطرافهما فتسابق الجميع لحفر قبر صغير وإلقائهما به، تاركين الماء ينساب منهما ليسقي حدبة قبريهما المجدبين على نبتة تنبت من بطنيهما ذات يوم، وواصلنا الرحلة كأن شيئاً لم يكن.

في الليلة التالية كانت الريح تلهو فتلقي بحزم الأشواك في الوجوه. وعجزت القافلة عن مواصلة السير خشية أن نفقد شخصاً، وأدرنا البهائم في دائرة توسطناها وتبادل المسافرون التهم والأحقاد:

قال الدليل: هذه أول مرة في حياتي أصاحب قافلة مشؤومة مثلكم.

فتلقفته الألسن: وأنت أسوأ دليل صحبناه.

صوت حاج: هذا نصر المرأة التي غرقت هي وابنها دون أن نلبي استغاثتهما.

صوت: هذا قدرهما.

صوت: لا ليس قدرهما بل تخاذلنا.

صوت حاج: لقد ماتت وهي قاصدة بيت الله، فليغفر الله لها.

صوت: ليغفر الله لنا جميعاً، إلا أن هذه الكوارث التي تسابرنا في رحلتنا لا بد لها من سبب؟

صوت: بيننا إنسان قلبه مظلم ويجب أن نتبرأ منه.

صوت حاج: وكيف نعرفه؟

صوت: لنتفرق كلنا وندعو بقلب رجل واحد أن يميته الله في ليلتنا هذه.

وأجمعوا على هذا، وقبل أن يتفرقوا في البرية والظلمة طفقت عليهم الأشواك من كل جانب، فعادوا يجمعون البهائم من حولهم وهم يدعون الله أن يرفع عنهم تلك الغمة.

في مسيرتنا البطيئة استهلكنا الزوادات قبل أن نصل لأقرب مدينة تمدنا بما نحتاج، فوجد التوجع مسلكاً جديداً ليصل إلى بطون أولئك الذين تربعوا على دوابهم، فهدأ نفيرهم ونمت بين القافلة آهة مشتركة. كانت القفار بيضاء إلا من ريحها وشوكها وبعض الأشجار غير المثمرة تحضن جذوعها بتكاسل واسترخاء، وفي أحيان كانت تغازلنا من على بعد أشجار السدر، فنستغل توقف القافلة ونتراكض بحثاً عنها ونمطرها بالحجارة ونقتعد مكاناً ظليلاً لنتقاسم تلك الحبيبات الناضجة، بينما نترك البسر لمن لم يخرج معنا لجني حبات «الكين».

كان قذف الحجارة يتم بطريقة عشوائية فأصيب البعض بشجوج تفاوت عمقها وفق رخاوة الرأس وحجم الحجر الفاض لتلك الهامة، ولاسترضاء مفضوض الهامة يزود بثلاث حبات من الحصص المقسمة.

كان معظم السائرين ملبين، وفي أحيان يقطع تلبيتهم انسكاب صوت الحادي وهو ينشد بصوت لين عذب يتسرب لداخلي كحبات ندى الطل، فيمور صدري وأذرف دموعي مع تلك الكلمات الحارقة:

ـ يا مسافر وتارك حبيبك

قله يترك عرفه في الشام

ولا في طريقك

فيتأوهون معه، وسرعان ما يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم، ويتصايحون:

ـ خرجنا طلباً لوجه الله فلا تفسدوا حجنا بالدنيا.

فتسمع صوتاً معارضاً:

ـ لستم وحدكم في هذه الرحلة.

فيعود صوت حاد:

ـ قبحكم الله وقبح الدنيا التي خرجتم من أجلها.

فيصر الآخر على عناده وتبجحه: إذا دخلت الجنة لا تدخلنا معك.

فتصايح بعض الحجاج: هذا هو صاحب القلب المظلم

وتمادت الصرخات وتطاولت الأيدي نحوه، وتوقفت القافلة، وأصروا على أن يترك مسايرتهم، ولم يجد عناده فتناول كل واحد حجراً وحصبوه، وكلما ركض مبتعداً تبعوه وتراجعوا عن مطاردته بعد أن جاور دماءه المسفوحة.

قطعة من ليل لا زلت أعبرها، وكلما قلت دنا فجرها أغطشت

ليلها واختالت بطولها. لا زلت أقتات تلك الرحلة في كل حين. لم يترك أحد رائحته هنا كما كان يحدو حادي قافلتنا.

هنا انتشرت رائحة أجساد مضغتها الغربة فدست أنوفها في ماضيها ولم أكن أشم إلا رائحة تلك القرية البعيدة، رائحة العجور الأخضر المختال بجذوره في أيام الحصاد، رائحة أمي، غنمتي، ظهر جدتي، والحناء الذي غاص في راحتي ونسي أن يظهر مرة أخرى.

جئت من هناك أمسك بخاصرة تقصفت عظامها وتسللت من بين يدي الممسكتين بها لأظل حاضناً غربتي فيما تبقى من أيام.

عندما كنت أمسك بخاصرتها أحس بعظام لينة تتثنى تحت يدي الصغيرة، وحمى متلظية «تهتش» أوردتها وتقتاتها في مسيرتنا. أسمع صوتها الواهن يناشد رئيس القافلة بقطرة ماء فلا يستجيب لها، وعندما أصيح به باسترحام:

ـ جدتي ستموت.

يضغط على كلماته بجفاء:

ـ وإذا فرطنا بالماء سنموت جميعاً.

أحد الحجاج تنازل لها عن نصيبه فبللنا لها شفتيها، لكنها كانت تطالب بالمزيد وتلهث بفحيح:

ـ أحس بنار تأكل أحشائي.

وشربت أنصبة متعددة وظلت تطالب بالمزيد، وكلما مضينا في طريقنا احترقت بالحمى وبقي لسانها ممدوداً كقطعة خشب يابسة.

في اليوم السادس انكفأت على ظهر الحمار وأنزلوها لقبر عابر بجوار كومة شوك نافر، لتستقبلني جهات متفرعة أسلكها بلا هدى.

تنافرت قافلتنا وبقي التياعي صاخباً يهدر في أعماقي وينام بعد أن يوجعني حنيناً. فجأة وجدت نفسي وحيداً تائهاً وسط وجوه تائهة. كلنا كنا غرباء تجمعنا الدهشة وحلم صغير بالعودة السريعة. ويهرب ذلك الحلم كلما أوغلنا في المسير.

في تلك الأرض الممتدة التي قطعناها ليلاً، وفي أحيان قليلة نسير ولهيب الشمس يلفحنا، لم أكن أعرف لماذا نسير في تلك الظلمة كاللصوص. وبعد أن سقطت تلك المرأة وابنها بالبئر رأيت كثيراً من الراجلين يتقافزون في صحن الفلاة كما تنضج النار حبات البن. هذه الرمضاء أخرت مسيرتنا، فغدا السير مقترناً بالظل، نسير مع طلوع الشمس إلى الضحى، ويتنافر المسافرون بحثاً عن شجر يقيلون أسفل ظلها للأصيل، ومعاودة السير إلى دخول الليل. هذا السير الزاحف أغضب الراكبين فصاح أحدهم وكان يركب «حماراً مصرية»[1] ارتفعت بأطرافها عالياً وكأنها فرس:

ـ شرط الحج الاستطاعة، والاستطاعة تعني كل شيء، الصحة والمال.

فرد عليه آخر: خرجوا كلهم بحثاً عن حياة جديدة بالشام.

أغضب حديثهما بعض الراجلين فصاحوا بهما:

ـ هل تريانا نمدد أرجلنا من على ظهوركما؟

اشتاط صاحب الحمار المصرية غضباً وردد بفورة مصطنعة:

ـ هذا جزاء المعروف.

(١) الحمار المصري: كلمة تطلق على نوع من الحمير ذات اللون الأبيض توصف بالقوة والضخامة والطول.

فرد عليه أحد الراجلين بنبرة جافة: أي معروف هذا وأنت لا تنزل من على حمارك حتى عند النوم.

لم يتمالك نفسه فشتم شتائم بذيئة تطايرت في الهواء لترتفع الأصوات: حج يا حاج

ـ إذا كان هذا هو الحج بطلت.

ـ استغفر ربك.

فلوى عنق حماره، وعاد من حيث أتى، ممنياً نفسه أن يلحق به أحد ليسترضيه بالعودة. وعندما ابتعد كثيراً ولم يلحق به أحد، عاد يركض بحماره ومؤلباً بعض الحجيج بالانفراد عن هذه القافلة التي وصفها أنها ستؤدي فريضة الحج بمفردها بعد زوال الوقت. فقد أقسم أنها إذا واصلت سيرها بهذه الطريقة فسوف تلتقي بالعائدين من الحج في هذا الطريق. وارتفع نفس الصوت السابق:

ـ وهذا أيضاً قلبه مظلم احصوه.

وقبل أن تمتد أيديهم للحصى كان يقف معه مناصرون كثيرون، فصاح:

ـ والله إنكم قوم ظالمون، تحصون رجلاً يقول لا إله إلا الله.

فتراخت بعض الأيدي ووجد نفسه يصيح مجدداً:

ـ لقد قتلتم نفساً بريئة بالأمس وها أنتم تهمون بقتل أخرى لأنه حفزكم على العجلة باللحاق بركب الحجيج، والله لا أسايركم أبداً.

وانحرف بدابته، ونغزها في خاصرتها وذنبها بعنف وأخذ يهتز على ظهرها مخففاً عنها حمولتها فأخذت «تبرطع» في تلك الفلاة، ووجد حديثه أذناً صاغية عند البعض، فانطلقوا يركضون خلفه كقافلة منشقة عن قافلتنا.

قريبنا وجدها فرصة لأن يتخلص من حمولته، فتركني أنا وجدتي ـ حدث هذا قبل موت جدتي ـ وانضم لتلك القافلة المنشقة، ولم يلتفت لصيحات جدتي الواهنة:

ـ يا غارة الله يا حمد تتركنا لمن؟

لوح لها من بعيد وصوته يتباعد:

ـ أبحث لكما عن زوادة وأعود، واختطفه المدى ولم يعد.

أظهر الدليل تخوفاً من السير نهاراً فأفشى بوساوسه على مسامع القافلة:

ـ كل ما أخشاه أن نقع بيد قطاع الطرق.

ساد الصمت للحظات، وانتفضت جدتي فاستشعرت الخوف، فارتفع صوت أحد الحجيج:

ـ ليس معنا ما يغري قطاع الطرق.

ضحك الدليل بتوتر:

ـ أول ما تمتد يدهم إلى حمارك الذي تركب عليه.

وتابع بتخوف:

ـ . . . . أنتم لا تعرفون هؤلاء البشر، فقد بلغت قسوتهم أنهم يمدون أيديهم لتلبيسات الأسنان، وإذا استعصت نزعوا السن من جذوره من أجل تلبيسة لا تغني ولا تشبع من جوع، وقد رأيت بعيني قاطع طريق يجز أذن امرأة من أجل «غويشة» فالصو.

صاح به رئيس القافلة: كف عن تخويفك للناس.

فانفعل بغضب وردد بنبرات فائرة:

ـ أنا أحذرهم.

ـ لقد أرعبت النساء والأطفال، كف عن حماقاتك.

وعندما أراد مواصلة عناده تدخل أحد الحجيج:

ـ لقد خرجنا بأكفاننا ولا يهم ما يحدث ما دمنا نريد بيت الله.

هبط صمت ثقيل على القافلة، وواصلنا السير يرافقنا خوف متزايد كلما ظهر ركبان من بعيد. كنت مشتاقاً لقطرة ماء تعبر حنجرتي اليابسة، فقد مضى نصف النهار دون أن نتزود بحصتنا من القرب المحمولة على ظهر الجمل. فبعد أن قل الماء اتفق المسافرون على أن تجمع القرب ويتم تزويد القافلة به في أوقات متفاوتة، وكلما صحت بجدتي مطالباً بالماء مدت يدها للخلف ونتفت من جسدي أي قطعة تصل إليها أظفارها ونتشتها وهي تولول بضيق:

ـ لقد أفسدتك أمك بدلالها.

أظن أنني غفوت في الأصيل على ظهرها المحدودب، ورأيت شيخاً يناولني صينية ملئت باللبن وهو يتمتم:

ـ ضرعا غنمتك تدران اللبن والعسل فلا تتغرب.

غنمة وحيدة تبقت لنا بعد أن نفقت أغنامنا من سحابة مرض عبر قريتنا وابتلع كثيراً من الأغنام والأبقار. وقد تبقت تلك الغنمة بعد معاناة طويلة خلفت لها ورماً عظيماً فوق كتفيها. كنت أستعجل خروجي للرعي، فأسوقها أمامي وأخرج للمراعي القريبة وأتركها تنعم بالحشائش النابتة على أطراف الحقول، بينما أمضي وقتاً طويلاً بمطاردة «الزماميح»(٢) أو أسراب الطيور. ذات مرة شاهدت سرباً من الطيور تحط بقريتنا لها مناقير مدببة وريش ملون بالأخضر والأصفر، تتناقم وتتخاطف الفضاء بنشوة وتحط على رؤوس الأشجار. سعدت

(٢) الزماميح جمع زموح، وهي حشرة طائرة ذات ألوان زاهية متداخلة يغلب عليها الأصفر والأسود والأخضر، تصدر صوتاً عذباً خلال طيرانها. يمسك بها الأطفال ويربطون خيطاً طويلاً في إحدى أرجلها ويطيرونها مستمتعين بها.

برؤيتها، ركضت صوبها فنفر طائر له لون مختلف وحلقت خلفه الطيور لتملأ سماء قريتنا بألوانها الزاهية. كانت تخفق في المدى وتغيب كلحظات الشفق.

سقط منها طائر، فأمسكت به. كانت شقشقته متواصلة وعنقه مائلاً يدنو لسربه المبتعد. عندما رأته أمي تحسرت عليه وصاحت بي:

ـ أطلقه يا يحيى.

ـ لكنه جميل يا أمي.

ـ هذه العصافير لا تعيش إلا في بلادها فقط. تعبرنا لأيام وتمضي. وإذا جاء الشتاء وهي باقية هنا تموت. كنت عنيداً لم أستجب لما تقول، وأبقيته معي أطببه وأسعد بشقشقاته المشروخة. أنساني غنمتي لأيام كنت خلالها أتعهد جرحه، وبعد أن التأم رأيته مع الغروب يحلق وحيداً في الفضاء ويخفق بجناحيه المدى في رحلة عجلى يقطع بها البعد وحيداً.

عدت لغنمتي، وتناسيت حرقة فقدان ذلك العصفور. كنت أركض خلف غنمتي خوفاً من أن تطير.

في أحيان أبحث لها عن «ضراب» علها تسعفنا بخراف تمكنني من المفاخرة أمام الرعاة الساخرين من ركضي خلف غنمة واحدة.

كنت أغافل الرعاة وأسوق أحد الخرفان أمامي، وقبل أن أبتعد يتنبه الراعي لابتعاد خروفه فيركض خلفي ويعلقني من أذني للحظات بين يديه ثم يتركني لاعناً رعونة الرعاة من أمثالي. كان خروجي اليومي معها قد ولد ألفة بيننا، وتماديت في دلالها حتى أمست تبيت بالقرب من «قعادتي» وهي تمد ثغاءها فتوقظ إخوتي من مراقدهم لتطردني أمي أنا وغنمتي خارج عشتنا.

نمنا أياماً طويلة تحت أضواء النجوم المتلألئة، أتوسد بطنها

وانكمش بين أظلافها واستيقظ على حرارة الشمس أو على مكنسة أمي التي تنفضني في صبيحة كل يوم. وحين عجزت عن استصلاح أمري، قبلت بغنمتي بيننا وأبعدت «قعادتي» عن إخوتي. في أيام البرد أشاركها غطائي، فإذا لفحني البرد سللت غطاء أحد أخوتي وأسدلته على غنمتي.

استطعت أن أسرق كبشاً ضراباً قام بتلقيحها بمساعدة مني. يبدو أنه كان يتأفف من غنمتي الهزيلة، فما إن يمد يديه حتى يتراجع محرناً وثاغياً. كانت مهمتي صعبة؛ فقد كنت أكمم فمه كي لا يصل صوته لراعيه، وأبعد صدره عن الاتكاء على ذلك الورم النابت على ظهرها. بعد أن انتهى ركض راغياً ومن على بعد تبول ونظر صوبنا (أنا وغنمتي) نظرة اشمئزاز وانطلق لينضم للقطيع بثغاء متقطع. لم أكن أظن أن غنمتي ستستطيع الإنجاب، إذ كانت تمضي معظم أوقاتها تتهادى بين الأسجف أو أسفل ردائم الفل والريحان تلوك الحشائش باسترخاء وملل؛ وكلما حاولت حثها تهاوت والتصقت بمكانها. لاحظت ضحكات سريعة وخجلى على محيا أمي:

ـ من أي خروف (لقطت)؟

ـ ....

ـ يبدو أنه أعمى أو أجبر على تلقيحها.

وأطلقت ضحكة صافية:

ـ أنت لا شك وراء هذا الإجبار.

وعندما رأتني صامتاً أنظر إليها بتردد شدت غرتي ورددت:

ـ غنمتك ستنتج.

ومضت تغالب ضحكة جرت على فمها بتدفق.

وخلال خمسة أشهر وعشرة أيام وأنا أتعهدها بالرعاية، فهزالها لم يكن مؤهلاً لأن يلد حياة جديدة. كانت في كل يوم تسقط وتظل ترغي حتى نظن أنها ستنفق. كنت أحمل لها أكلها وشرابها وأجبرها في أحيان كثيرة على فك فكها وحشوه بالحشائش أو الحبوب، وقد أبقيتها بعيداً عن الحر والمطر الذي عبرنا سريعاً وترك أثراً باهتاً على الحقول.

في الصباح وجدتها شبه ميتة وخلفها روم ميت وورومة تخرج صوتاً أقرب للمواء من الثغاء، فرحت وركضت أهز أمي في مرقدها هزاً:

ـ غنمتنا نتجت روماً وورومة.

لم تصدق، ونهضت وهي تجرني:

ـ هل ماتت؟

وعندما وقفنا عليها، سمعت أمي تردد:

ـ الحمد لله.

وتخليت عن تلك الغنمة شبه الميتة، وأخذت أدلل غنمتي الصغيرة.

استيقظت ذات صباح، فوجدت أمي تتهيأ لجلب غنمتنا المريضة للمجلاب. ودون أن أسألها سرت معها، ووقفنا لوقت طويل قبل أن تباع. كان هزالها والعيب الذي استقر بأعلى ظهرها ينقصان ثمنها كثيراً، فبيعت بثمن بخس. وحين قادها المشتري تعلقت به وتوسلت إليه أن يتركها لنا. استجاب لإشارة أمي ومضى عابراً المجلاب وغنمتي تثغو وتحاول التملص من الحبل الذي عقد برقبتها، وتمد يديها متمنعة من السير فيخبطها على ظهرها بعنف فتستجيب له حين يؤلمها وتتوقف حيناً. خطفت أمي يدي وعادت بي للبيت باكياً. وفي صباح

اليوم التالي وضعت أمي ثمنها في كمر صغير اشترته لي ودفعتني مع جدتي.

أذكر بالتفصيل لماذا دفعتني لهذه الغربة التي لم تنقطع إلى الآن. ثلاثون عاماً أمضيتها غريباً وحيداً. من منكم يستطيع أن يتحسس هذه الوحشة التي نمت بداخلي وغدت ثمارها نكهة أعيش بها ومنها. لا أتصور أن باستطاعة أي إنسان إدراك المعاناة التي عشتها وأعيشها.

كائن وجد وقذف به للغربة ونسي هناك، كالحكايات المهجورة تبقى بالذاكرة ولا تستجيب لمطالبتك لها بالخروج، وإن استعدتها جاءت أوصالاً من أحاديث مفككة لا تغري بالاستماع، وإن استمع لها شخص ما أعرض عنها لبلوها أو تقادمها.

أنا الآن أحكي لكم حكاية بالية، مقطعة الأوصال، كلمات، مجرد كلمات. وما حياتنا إلا كلمات تتراص وتصنع أحداثاً وكوارث وآلاماً. السياسة كلمات تصنع تاريخاً والتاريخ يغزل رداءه بحياتنا وأحلامنا وآهاتنا، حتى إذا استوى تزين بشال على كتفه ونسي أن يشير إلى أن اللون الأحمر كان دمنا، وأن الألوان الزاهية كانت أحلامنا.

كلنا يخرج الكلمات ولا أحد يقف عند كلمته، نجاورها ونهرب منها إليها. هل تستطيع هذه الكلمات الآن أن تنصفني من شراكها حين أحاول أن أستعيد من خلالها تاريخي؟

بكلمة واحدة، خرجت من تلك القرية النائمة في أحضان الوادي، وبكلمة تورطت في حياة عشوائية، وغزلت أحلاماً بالكلمات نكثتها كلمات مشابهة.

الفصل الثاني

ـ ألا زالت تلوح بيدها لذاك الأفق الذي ابتلعني ذات مساء؟!

ربما لا زالت تلوح بيدها الآن.. ربما. مضت سنون طويلة على تلك التلويحة.. فقد نزحت من قريتنا منذ أمد طويل أصبحت لا أذكره بالتفصيل.. فقط أذكر أنها قافلة من السنين العجاف عبرتني وأنا كجسر أبسط لها ظهري وأطقطق بأنات محمومة. وأعلل النفس بأن القافلة ستنفق يوماً ما وأفيق من رقدتي الطويلة لأعود للأهل وتلك الحقول الممددة كجثث هامدة. وكلما أبطأت السنون في سيرها تضعضعت، وقبل أن أتهاوى أتذكر وجه أمي المتهدم ودمعتها المتهيئة للانحدار ـ دوماً ـ فأتصبر وأنهض من حمى حنيني وأجمع أوراقاً علها تعيدني وتعيد لي بسمة أمي وصخب إخوتي وغناء الجمالة وهم عائدون من بين الهيج(٣).

حين مات الوادي فجأة وأصبح قلبها حجراً، تمايلت وجمعت عظامها ووقفت أمامي وبصوت آمر تخالطه بحة صاحت:

ـ تغرب قبل أن يموت كل شيء.

---

(٣) الهيج: أشجار ملتفة عادة لا تكون من نوع واحد، فهي خليط من أشجار الثمام والأثل والسرو والسلام، ويقوم الجمالة بتقطيعها وبيعها لأهالي القرية لبناء العشش والأسجف.

حينما كنت أخرج للرعي ـ بغنمتي الوحيدة ـ في المراعي القريبة من الحقول أسمع العجائز يتحدثن عن أن من يسافر لا يعود، فأضم إخوتي الصغار وأبكي وأستحلفها أن تبقيني حتى أعبر طفولتي، فتقترب مني وتقبلني، وبحديث رطب لين تحدثني:

ـ في البلاد القريبة ستجد المال، وستعود إلينا سريعاً، أيرضيك أن يموت إخوتك من الجوع؟

أصاب بالهلع، وأشاركها الأماني:

ـ سأتغرب.

وتردد مقولة جدتي:

ـ ستعود تدفع أمامك قافلة محملة بالذهب.

كان أبي يقف دائماً في ذاكرتي، من الصباح الباكر ألمحه يقف في حقله يرفع يده للسماء ومن تحت قدميه تتشقق الأرض عن أشواك شابة، وعندما آتيه بزوادته يجثو و«يخمش» الأرض ويذرو ترابها في كل الجهات وصوته يذود حشرجة تعبر حنجرته بيأس:

ـ الرياح تذرو الحبوب في الأماكن الرديئة!

ويمضي قاطعاً حزنه والخلاء.

كانت دموعه كالأهلة تهل في أيام وتترقرق في محاجره حتى تكاد تسقط من تزاحمها في مقلتيه فيمسكها بموال جريح ويترك آهاته تفيض، وعندما أناخه المرض وأكل أطرافه سقطت تلك الدموع ولم يستطع صوته الدافئ أن يذودها بعيداً عن وجنتيه.

ذات ظهيرة عاد محموماً، واستلقى على قعادته. أخذ يئن بثقل وكأنه يحفر أخدوداً من الألم بدأب ومثابرة. كانت آهاته تتمدد وزفراته

تدب بكسل وثقل يثقبان القلب.

لم نعهده بهذا التهافت، كان صوته واهناً وهو يطلب شربة ماء:

ـ يا حرمة.

صوته لم يصل أبعد من أنينه، فلم تسمعه أمي، كنت عابراً لمرقده فسمعته يردد:

ـ شربة ماء.

فاستدعيت أمي التي هالها منظره، فانكفأت عليه تضع يدها على رأسه:

ـ ماذا بك؟

تراكضت مع إخوتي لجلب الماء، وكلما سقيناه طالب بالمزيد، لم يكن ليروى، كان يغرق في حماه فتندس بين شدقيه حبات النوفلجين. يتبلل بعرقه وينهض مطالباً بجرعة ماء. نفجت بجسده حبيبات حمراء ذات رؤوس قاسية سرعان ما أزهرت عن صديد ودم وعمقت آهاته التي كانت تحفر مسامعنا وتبذر إشفاقنا ولهفتنا عليه، ولم نعد نراه، فقد «حجب»[٤] عنا. كنت في كل صباح أخرج إلى الخلاء وأعود

(٤) حجب المريض عزله، ولم يكن أطباء ـ أو حكماء كما يطلق عليهم في المنطقة ـ متوفرين ويصبح المشعوذون هم الملجأ للحالات المستعصية والبسيطة. وفي أغلب الأمراض يتم عزل المريض في مكان خال لا يصل إليه إلا المقربون جداً أو ينتدب شخص واحد من أهله لتفقده وتمريضه. ويصاحب الاحتجاب طقوس معينة، وإذا دخل على المريض شخص آخر ينقض احتجابه، وعليه فإن فترة الاحتجاب تبدأ من جديد لأن رؤية المريض تفسد ما مضى. وغالباً يكون الاحتجاب لمدة أربعين ليلة.

حاملاً جلة لتردم بها أمي تلك الجروح التي افترشت جسده. ثم تبدل الوضع، فكانت أمي تخرج كل صباح لتدفن جزءاً منه، اصبعاً، رسغاً، قدماً.. كنت أسمعها تسر لجارتنا ميمونة وتمسح دموعها وهي تردد:

ـ المرض يأكله يومياً. لم يعد باقياً منه شيء حتى إذا دفن لن يسعد الدود بوليمة دسمة.

كنا نمني أنفسنا أن نراه ناهضاً ليطل علينا بابتسامته المتراخية، كنا ننتظر ذلك إلا أنه خرج محمولاً على الأكتاف وذهبوا به، ولم يعد.

وألفنا غيابه، وظلت لوعتي تتشجر في صدري كلما لمحت بندقيته المعلقة على وتد بداخل عشتنا، كنت أقترب منها وأتلمسها فتلاطفني أمي:

ـ عندما تكبر ستضعها على عاتقك.

وكل يوم أقف أمامها فارداً قامتي ومفخماً صوتي ومخاطباً إياها:

ـ انظري لقد أصبحت رجلاً.

فتطلق ضحكتها وتضمني:

ـ نعم لقد كبرت فأنت رجل البيت.

منذ ذلك الزمن الذي غادرت فيه قريتنا غاب عني كل شيء، ونسيت كل شيء إلا العودة. كنت أحلم أن أعود علني أحيي الوادي الذي مات، وأستعيد طفولتي المسروقة، تلك الطفولة التي سطت عليها الغربة بعنوة وتركتني كجذع خاو تقلبه الرياح فتنخر الموات فيه.

حينما كنت طفلاً كنت أحلم بقطف التعب من على جبين أبي وأقف بدلاً منه في تلك الحقول الممددة كالجثث الهامدة.. ومضت

سنون طويلة على ذلك الحلم.

لم يكن اهتمام أمي بي يتضاعف إلا في أيام الأعياد والمولد، حيث تجلسني فوق «شبرية»(٥) عالية وتلبد يدي ورجلي بالحناء، وأظل أتململ وأهم بـ (تخليص) الحناء قبل أن يجف، وبعدها (تمرخني) وتجلي جسدي من وسخ ران بين مفاصلي.

في تلك الليلة لم تعاملني كسابق عهدها، فقد أجلستني وهي تدللني دلالاً مضاعفاً وتنعتني بشتى الأوصاف:

«يا حالي الأعذاق أرضك هنا

يا بو البجيلة وطاوي الفنا

من مثلك ولا مين مثلي أنا».

سألتها:

ـ بكرة المولد.

ـ لا زال المولد بعيداً.

ـ إذاً عيد عرفة.

ـ تبقى شهر ونصف على عيد الأضحى ولن تكون بيننا.

ـ أين سأذهب؟

ـ مع جدتك.

ـ وإلى أين ذاهبة جدتي؟

(٥) الشبرية نوع من المقاعد تصنع من أشجار السدر أو السرو وتحبك بحبال يتم وضنها من أشجار الدوم.

ـ إلى الحجاز لتحج، وستبقى أنت عند خالتك.

ـ . . . .

ـ كن مؤدباً ولا تجعلها تغضب منك.

هززت رأسي ورددت:

ـ وأنتم؟

ـ سنبقى هنا.

ـ لا، نذهب سوياً.

ـ سنلحق بك.

وأخفت عينيها خلف «ختنها».

سرحت قليلاً (خالتي لا أعرفها ومع ذلك أحبها كثيراً، ففي أيام العيد ترسل لنا ملابس جديدة وألعاباً مسلية أفاخر بها أقراني.. تلك الملابس التي تتآلف مع أجسادنا ـ أنا وإخوتي ـ حتى تذبل لنخعلها في السنة التالية حين تصلنا ملابس جديدة. وعندما يتعذر وصولها نظل شبه عراة).

عندما ذكرت اسم خالتي، استدعت ذاكرتي أشياء كثيرة مفرحة، وبعد لحظات استوحشت ورددت بغصة:

ـ لوحدي؟

ـ قلت لك سترافقك جدتك.

ـ هل قرية خالتي قريبة منا؟

ـ لا، هناك مدن كثيرة ستعبرونها حتى تصلوا لخالتك.

شعرت بالخوف وبأن شيئاً ما يجتث من أعماقي، فصحت:

ـ لن أذهب.

صمتت ونكست رأسها وظلت تروب الحناء، وتراخت رقبتها. بعد حين مسحت وجهها بكم قميصها:

ـ كن رجلاً، ولا تغضب منك أحداً.

وجدت نفسي أمارس كثيراً من العناد وأمتنع عن مد راحة قدمي وأمارس دلالاً في أمور لم تكن تسمح لي بممارستها، وانسقت لمواصلة شغبي دون أن تردعني أو أن تمد يدها لتقرصني كما هي عادتها حين أستثيرها أو أغضبها، بل كلما تماديت في مضايقتها حضنتني وغمغمت:

ـ سأفتقدك كثيراً.

وتمطرني بقبلاتها، وتغرسني بصدرها غرساً.

فأحسست بأني مقدم على أمر جلل.

قبل أن تختطفني الغربة نعمت بثلاث:

أمي التي صبغت علي حنانها فغرقت به وظللت بقية العمر أبحث عنه؛

قريتي التي ظلت جبلاً بداخلي كلما جرفتني مياه الغربة صعدت إليه ولوعة شجن تثمر بداخلي، وحلم يخامرني بالعودة لحقولها وتعرجاتها وشوارعها النابتة بالناس الطيبين؛

وحياة.. تلك الفتاة التي أقف على عينيها فأغدو طائراً يحلق في الفضاء بلا جناحين.

إخوتي استشعروا بشيء ما يحدق بي فمنحوني تعاطفهم وتنازلوا لي عن أشياء كثيرة، وكان أخي الصغير يوسف يتفقد قعادتي في الصباح، وإذا رآني أطلق عصافير وجهه بمرح:

ـ كنت أخاف أن أستيقظ من النوم فلا أجدك،

ـ . . . .

ـ تقول أمي إنك مسافر إلى بلاد بعيدة.

ـ . . . .

ـ . . . . وسوف تغيب عنا كثيراً.

بدأت أهيئ نفسي للرحيل، وأتصور العالم الجديد الذي سأقذف إليه. كانت أمي تحاول في كل كلماتها أن تحبب إلي هذا المجهول:

ـ سترى ما لم يره أحد من قبلك، سترى الكعبة وستزور قبر المصطفى.

وبحت بكلماتها:

ـ . . . . أمانة يا يحيى تقرأ لي الفاتحة هناك، وتبلغه سلامي.

ـ أبلغ سلامك لمن؟

ـ بلغ سلامي للنبي.

ـ النبي عايش!

ـ عايش عند ربه.

ـ وكيف أسلم لك عليه.

ـ جدتك أو خالتك سوف تعلمانك. . لا تنس يا يحيى، ادع عند الروضة إن الله يجمعنا.

وانخرطت في بكاء جاهدت أن تكفكفه بتصنع الضحك، فلم

تقو، فخطفتني لحضنها وبكت. . كنت أحس بها ترتجف، وتلتهمني بقبل محمومة.

سمعت صوت جدتي في الخارج فأعادتني لموضعي، ومسحت دموعها بكم كرتتها الخضراء المطوقة بدنتيل باهت، وأعادت مصرها لرأسها بعد أن جمعت خصلاته النافرة تحت ذلك الغطاء:

ـ. . . في طريقك سترى السيارات وسترى البحر، وسترى أشياء كثيرة وستعود لتحكي لنا عما رأيت.

ـ متى أعود؟

ـ عندما تقول لك خالتك عد تعد.

ما بين اقتراح جدتي وسفري أسبوع انطوى بسرعة متناهية، وفي آخر ليلة جلست على «شبرية» عالية لـ «تحنيتي» كانت تنكس رأسها طويلاً وتحاول أن تضحك من بعض تصرفاتي التي دأبت على ممارستها في مثل هذه الحالات، لكن الضحكة لم تكن لتطاوعها بسهولة. شعرت بأن صوتها غدا ثقيلاً مبحوحاً تدفعه بجهد وهي تحاول تثبيتي على وضع معين، وتخلل الحناء بين فرجات أصابعي، صحت:

ـ يوم ختاني لم تفعلي كل هذا.

فزت فجأة وضمتني بقوة وهي تغمغم وبحتها تزداد ثقلاً:

ـ لا تنسيك الغربة أمك يا يحيى.

وأجهشت بالبكاء، وجدت نفسي أشاركها النشيج بلوعة وخوف مما سيأتي.

لم أرها متلهفة عليَّ إلاَّ يوم ختاني، ومن لهفتها أصرت على

حضور الختان بين الرجال. كانت تدفعني للحلبة الرقص، وهي تحذرني:

ـ إياك أن تتخبب[٦].

ـ. . . . .

ـ لا تجعل الناس يشمتون فينا.

ـ. . . . .

ـ لا تدعهم يقولون تربية حرمة.

ـ. . . . .

ـ لا ترمش بعينك وتفضحني وتفضح نفسك.

وصايا كثيرة كانت تدلقها على مسامعي وأنا أرقص وأسير صوب منصة الختان. كان صوت الزير صاخباً، أحسست أن الريس خميس يلهب بعصاه قلبي فيتعالى وجيبه ويكاد يفر بنبضاته المتسارعة من صدري، فأندمج في الرقص ويشاركني البعض رقصات سريعة، وينسل لأظل داخل المضمار أحوم برقصات مجهدة محاولاً إتقان أدائها، كنت أشعر بالعيون تقف على كل حركة أؤديها.

ثمة زغاريد تتعالى من بعيد، وأصوات البنادق تعبر مسامعي بأزيز ثاقب، وتعمد بعضهم أن يرخي بندقيته لتنطلق رصاصته أفقياً

(٦) طريقة الختان المتبعة في المناطق التهامية الجنوبية أن يتهيأ من يُراد ختانه، فيضع جنبيته على صابره ويطلق بصره للإمام دون أن يرمش بأهدابه حتى يقوم الختان بقطع العلقة الصغيرة ويربط، فإن نظر المختون إلى قطعه أو رمش أو أظهر الخوف يقال فلان تخبب، وتظل عيرته ما بقي حياً.

كالشهاب مخلفة دخاناً هزيلاً يتلاعب على رسخ البندقية. كانت زفة الختان تسير صوب المنصة ببطء وفرح، وأنا أقفز من مكان لآخر يحف بي «الزقارون»[٧] وحملة البنادق ومجموعة من أهل القرية. كنت أشعر بالمهانة حين ألمح أمي تسير خلفنا بلهفة، وددت لو أني أستطيع أن أصيح بها كي تعود. أثناء رقصاتي أسرق وجهها المخمور بالشفقة والترقب والفرح، كانت ترفع يدها من بعيد وشفتاها تتمتمان، وحين تتقاعس كلماتها من الوصول إليّ تخرج لسانها تذب الهواء بزغاريد ملتهبة.

وصلت إلى «المختينة»[٨] فقفزت ووقفت منتصباً. كنت أسمع أعيرة البنادق تعبر هامتي وأنا محدق في الفضاء، سل الختان إزاري وأحسست بشفرة تجتز قلفتي فيفور الدم لزجاً متدفقاً. كانت عيناي مسمرتين في المدى لا تحدق في شيء، كنت فقط أريد أن أجتاز هذه المحنة دون أن أخلف العار لأمي. سمعت خالي جبريل يصيح:

ـ رفع رأسنا ابن خديج.

فأخذتني الحمية وصحت بالختان دون أن يهتز لي رمش:

ـ أختن يا ختان واقطع من الزبان الخالي.

فامتدت شفرته الحادة واقتطعت شريحة من عانتي، فانطلقت أعيرة متوالية تزن في المدى ويتراقص دخانها على فوهات البنادق، فصحت:

(٧) الزقارون: ضاربو الدفوف والطبال.

(٨) المختينة عبارة عن كداديف (وهي جمع كدافة) تتكون من القمائم عبر زمن طويل فتتحول إلى مكان مرتفع. والكداديف توجد في كل مكان بالقرية، إلا أن منصة الختان تُختار عادة في فلاة خارج القرية.

- أختن يا ختان واقطع من شغافي لأمي.

امتدت شفرته لفخذي، كنت أشعر بدماء لزجة تفور أسفل قامتي وتنساب كأنهر صغيرة بين فخذي، تتعرج في انحناءات بعضها يتخثر وبعضها يواصل جريانه، لغط وزغاريد وأعيرة نارية ورجال يتصايحون:

- راجل من ظهر راجل.

أخذتني الحمية فأردت أن أقطع لكل من أعزه جزءاً من جسدي، كنت منفعلاً ومتهيجاً فصحت:

- أختن يا ختان. . . .

وقبل أن أكمل جملتي كانت أمي قد خطفتني من فوق المختينة وهي تزغرد:

- لا تقتل نفسك يا ولدي.

فتخلصت من بين يديها وأصررت على مواصلة السير للبيت راقصاً، يومها قال الختان:

- لم أر مختوناً كابن خديج.

هذه الشجاعة كادت تفقدني حياتي؛ فقد ظللت لثلاثة أشهر أتوجع من الجروح التي تقيحت وامتدت لتأكل شغافي وتشعبت لتطال تلك الخصيتين الخستين، وكلما تلمحني أمي أتوجع تضرب صدرها بهلع:

- أنا السبب. . أنا السبب.

فتلومها جدتي على تخاذلها وتنهرها زاجرة:

- كل الرجال تأكلهم جروح الختان.

فترد بلوعة: ابني يتيم لو ختنته في البيت ما لامني أحد.

بقيت تجاورني طوال تلك المدة وهي تلوم نفسها، وتجاهد لإيقاف زحف تلك القروح مجربة كل دواء تسمع به على أمل التئامها، وأقسمت بنذر ألاّ تدفعني لمكروه - بعدها - ما حييت، في الشهر الثالث من ختاني نحرت خروفاً بجوار قبة السيد المكي وسفت عليّ من ترابه، وعادت تزغرد على طوال الطريق.

استيقظت صباح السفر، فوجدت أمي تحضنني وتشهق بصوت مكتوم، تغالبه بحة أحرقها نشيجها:

- يحيى حان وقت السفر.

صوتها يأتيني وكأني مغروس في حلم صاخب، افتح عيني وأغمضهما واهرب في النوم مرة أخرى. . فتمنحني بعض الوقت وتنكفئ. تحضنني وتمهد على شعري، وعندما تسمع أصوات الاستعجال من جدتي وبعض من يهيئ راحلتنا تهزني برفق وهي تستحثني:

- هيا يا بطل كلها يومان وتعود لنا.

بعد محاولات عدة استويت على فراشي، وتنعمت بلينها لبضع الوقت، كانت تتشاغل بتجهيز أقراص الدقيق المعجونة بالسمن والسكر ووضع ثوبين حائلين في بقشتي، وتغني لي بصوت رقيق:

وابـنـي حـج بي ولـبـى   وقـبـر الـنـبـي بـياني
قـعـدت سـنـتـين مـدة   ومـلـك الموت جـاني
وابـنـي غـسـل وحـنـط   وسـدني يـمـاني

قـلي وداعـة الله يـا والـدة   وداعـــة الـــرحمـــاني
وان جـوك الملـكـين قـولي   النبي نبيه والمسلمين اخواني

كان صوت جدتي يصر من خارج العشة:

ـ لن يفسد هذا الصبي إلا أنت، دعينا نخرج تأخرنا على القافلة.

أذكر أنها حضنتني بقوة ورددت:

ـ لا تنسيك الغربة أهلك.

وتخاطفني إخوتي في وداع قصير مبتسر وكمن يسلم وريده لشفرة قاطعة دفعت بي لجدتي، وانبثت في نحيب مرتفع.

طفرت فجعيتي وبكيت وانطلقنا، وتراكضت الأشياء بسرعة عجيبة.

كنت أسير وظلمة موحشة تبسط أطرافها في أعماقي فأزيح لبدها بتقبيل كل من أجد في طريقي. قرب الضحى وقف المودعون يلوحون بأياديهم الطينية حين كانت القافلة تنثر خلفها رائحة قريتي، ومن خلفنا كانت العشش والحقول تمعن في الفرار، عبرتنا الشمس نحو المغيب ونحن لا زلنا نتلوى بين حقول القرى الممتدة على جنبات الوادي حتى انتهينا لفلاة أخذت تتسع، وتتسع فتطاولت حشرجة مرة في داخلي لأخبئ وجهي وشهقاتي المتقطعة في الليل، أو ربما دسست وجهي في ظهر جدتي التي حزمتني خلفها، لتمضي القافلة تعبر بنا بوابات الغربة.

استيقظت والشمس تمطر صباحاً جديداً وأرضاً جديدة وتلك الوجوه المخبة في السفر تلقي بعيونها على مشارف الغيب وتحت الخطى.

كانت القافلة مكونة من بغال وحمير وجمل واحد وعدد كبير من الرجال والنساء والأطفال. كانت الأصوات تلهج بالتلبية بصوت مهيب واللون الأبيض يرفرف على قامات الرجال ويلتف على أجساد النساء. وخرجت مجموعة أخرى بدون إحرام كانت تستهدف الدنيا ـ كما كانت تقول جدتي ـ وأماني طوال ترقص في أعماقهم بالعودة بالمال الكثير وأنا منهم.

كنت أنزلق من على مؤخرة الحمار الذي نمتطيه، فأسقط بين تلك الكثبان الرملية أو بين الأشواك وأظل أتألم، وحين ألمح القافلة تجد في سيرها أصرخ بهم فيعود البعض لحملي وإعادتي رديفاً لجدتي.

بعد مسيرة ستة أيام وجدت نفسي وحيداً على ظهر الحمار. وجدتي العجوز لمحتهم يضعونها في حفرة عميقة ويهيلون عليها التراب ويمضون.

كنت أبكي كلما خطر ببالي أن دوري سيأتي وأنهم سوف يلقون بي في حفرة عميقة ويطمروني بالتراب ويمضون. ظل هذا الخاطر يلازمني حتى انضم إلى قافلتنا رجل لوجهه نتوءات الحياة، وكان كلما لمحني منكسراً اقترب مني ومسح على رأسي:

ـ ما أقسى أبواك حين أخرجاك وأنت لا تزال صغيراً، ألا يعلمان أن الغربة تقتات القلوب والرجال. كان يحدثني وأنا غارق في طفولتي أستأنس بحنانه وأفر من وحشتي إلى لسانه الطري، أذكره كالآن: لكنته تبدو جبلية ووجهه المشرب بالحمرة موارب. لا تعرف بماذا يفكر ولماذا يضحك، تشعر أحياناً أنه غابة من المفاجآت وحيناً تلمحه كطفلة موشكة على الكذب، ومنذ أن انضم إلى قافلتنا وهو يسير على قدميه يتلفع صوته ويقلب وجهه في اتجاهات عدة، وبيده تلك العصا الريانة التي اقتطعها من أشجار الأيك يسوط بها الهواء

الذي أمامه ويزم فمه، ويصفر ويتبعها بدندنة محروقة:

تقطعت حبال الهوى

وعاد الليل له هوى

يا حارمني الرقاد أعد نجوم الخلا

عادني في طريقك ولا عني أنت في سلا

تجده أثناء استراحة القافلة يجلس وحيداً يغني أو يبحث عن أشجار النبق، ويظل يلقي بالحجارة في جميع الاتجاهات لتتساقط حبات النبق بوفرة فيجمعها ويقوم بتوزيعها على الأطفال وهو يغني بحزن فاتر. كان يخصني بنصيب وافر.

في اليوم السابع من انضمامه لقافلتنا وجدته يستحل ظهر حماري وأنا من خلفه ممسكاً بخاصرته بحنان. في ذلك اليوم أودعته قلبي الصغير وسرت تحت ظل أمره، منذ ذلك اليوم احتجت لمن يقودني. يأمرني فقط فأطيع. لم يكبر الطفل بداخلي، ظل يحلم بالعودة والارتماء في حضن أمه والبكاء حتى تسترضيه وتطلب العفو منه على ما سببت له من وحشة الفراق. كنت وما زلت أجمع دموعي في داخلي علني أبكي على صدرها يوماً. تيبس البكاء وتملحت روحي ولم يعد هناك طعم لهذه الحياة، فارتضيت أن أبقى أسير داخلي أنثر هناك أحلامي، وعجزي.

أذكر أنني لم أكن كذلك. فقد كنت طفلاً متسلطاً لا أرضى بالهوان، دائماً تسحبني أمي من فوق أقراني وأنا أكيل لهم الصفعات والركلات، وغالباً ما ينبع شجارنا من عيون امتهنت التحدي وسرعان ما تتفجر الشتائم لتتماسك بالأيدي ونذهب في عراك مرير.

في إحدى المرات فلقت رأس ابن الشيخ لأنه تقدمني حين كنا نرد الماء وغمزني باستخفاف:

ـ من تظن نفسك حتى تتقدمني.

كان يكبرني بسنتين أو ثلاث فتركت له حماري وابتعدت قليلاً والتقطت حجراً وفضضت له هامته وعدت راكضاً إلى البيت. كان أبي ينتظر الماء ليغتسل من طين الحقول، وعندما رآني ألهث، فطن أن وراء لهاثي مصيبة ما، فحمل «مهيره» وغادر إلى الحقول، لم يكن يريد أن يقف أمامه أحد شاكياً، ولم يكن يريد أن يكسرني أمام أقراني. جاء الشيخ وأزبد وأرعد، وعندما لم يجد لصوته صدى عاد وهو يلوم أبي على تفريطه في تأديبي، ويردد بصوت عال:

ـ ابن الغريب يريد أن يشرب من دمائنا.

كان يهيئني للغد، يقذف بذوره في حقله وبداخلي، يمسك بكتفي ويبذر كلماته في مسامعي:

ـ الرجل هو القادر على صنع حياته في أي ظرف من الظروف. عليه فقط أن يبتعد عن الخسة والذل، وألاّ يجمع برجليه هوى وجبناً.

كنت أعتمد عليه كثيراً، وحين ووري التراب وقفت في العراء بجوار أسرة خرجت جميعها لتدب في الأرض بحثاً عن قوت يملأ بطنها.

كنا نتلازم جميعنا ونخرج في أيام الحصاد للمجاودة في حقول أهل القرية، وأنا الوحيد من بين إخوتي أرفض أن أعمل أجيراً، وهذا يعود لغرس أبي.

أبي آخر أغصان أسرة انقرضت بالأمراض والهجرة وتمزقت أوصالها في الأرض، فهو الابن الرابع لجد هجر أرض قومه بعد نزاع على قليل من الماء، انتهى بموت خصمه، فانشق عن عائلته، وحمل أولاده وزوجته. هاجر ليلاً صوب قريتنا. كانوا يطلقون عليه لقب الغريب. ولم يسمح له بمزاولة كثير من الأعمال لكنه وجد طريقاً لأن يصبح محل احترام أهل القرية فتحالف مع بني الجويني، وتزوج إحدى بناتهم. بعد أن ماتت زوجته مخلفة له أربعة صبيان تناقصوا بانجراف أحدهم في إحدى دفعات السيل، وظل الصبيان الثلاثة في كنف بنت الجويني. استطاع كل منهم أن يكسب ثقة الأهالي، والتداخل معهم والتزاوج منهم. وأصبح لهم ما يدر عليهم المال من مهن متعددة. كانوا عصبة واحدة، كل واحد منهم يعمل ويودع أباه ما كسبه. وفي سنوات قليلة كانت حقولهم تمكنهم من العيش بهدوء وسكينة. وفي آخر أيام جدي احترق بموت اثنين من أبنائه، إذ انفلت عليهما جمل من عقاله وهرسهما وهو يرغي ويزبد. ويقول أبي إن أحد أعمامي وسم الجمل أثناء منافحته لإحدى النوق، وما زال الجمل يضمر له الحقد حتى جاءته الفرصة حين كان إثنان من أعمامي يتسامران بالقرب منه فتفلت من عقاله وبرك عليهما. وبعدها بأيام مات جدي حسرة على ولديه، وأصبحت مصيبتنا دعوة يطلقها الأهالي إذا أرادوا بأحد سوءاً فيقولون:

ـ ربنا يسخر لك موتة جمل وحسرة كحسرة الغريب.

فجأة وجد أبي نفسه وحيداً يقف في الحقول من الغلس إلى الغروب. وكثير من أهالي القرية رأوا أن ما امتلكه هو حق تم اغتصابه بالمال، وأن الأرض لا تباع، فأخذوا يمنعون عنه الماء، ويرسلون أنفارهم لاجتثاث السنابل من حقوله وهي واقفة. كانوا

يرغبون في أن يعود أجيراً، فبقي شوكة في عيونهم وان تناقصت الحقول التي امتلكها بموت إخوته، فقد ذهبت حصصهم لمن خلفوهم. وتفاقمت حسرته؛ فإخوته خلفوا ذرية إناثاً، فذهبت أموال أسرتي لرجال من أهل القرية، ومن يومها وأبي يعمل لاسترداد حقول أبيه وإخوته، فكان دائماً يمسك بي ويردد بصلف:

ـ عليك أن تعمل لاسترداد أموالك.

كان يردد هذه النصيحة كلما جلست إليه، وفي إحدى المرات اعتلفت للبركات حزمة قصب، ونقدني مبلغاً زهيداً. وحين علم أبي علقني بإحدى أشجار الأثل وتناول غصناً منها وأشبعني ضرباً وهو يصيح:

ـ الأجير يظل خادماً طوال حياته.

من بعدها لم أعمل أجيراً، وأستنكف كثيراً أن أكون تحت إمرة شخص. وهذه الخصلة جعلتني أترك كثيراً من الفرص التي كان بالإمكان أن تقيني بعض العنت الذي واجهني في غربتي الطويلة. قبل أيام الأعياد تتوسل أمي لمن يكتب لها رسالة لأختها، وتكتبها وتنتظر، ومع قدوم أي مسافر تركض إليه وتسأله بلهفة:

ـ هل أرسلت خديجة معك شيئاً؟!

في أحيان كثيرة تصلنا ملابس جديدة، وبعض النقود التي يتهلل لها وجه أمي، وننشغل أنا وإخوتي بتقليب تلك الملابس فنتخاطفها وكل واحد منا يدّعي أن ما خطفه يخصه، وفي أحيان كثيرة يمسك أحدنا بملابس الصبايا ظاناً أنها قميص أو كوت مستحدث، ولا نترك تلك الملابس إلا حين تصيح أمي بنا وتجمعها من أيدينا وتخبئها في صحارتها العتيقة. وفي يوم العيد نخرج في زهو بتلك

الملابس التي قلما يلبس أمثالنا مثلها.

ظنت بي خيراً حينما ختمت الختمة[٩]، فقد اشترت لي مدواة وعود قصب قلمته بشفرة حادة وأجلستني بجوارها وهي منتشية:

ـ لن أحتاج لأحد بعد اليوم لأن يكتب لخالتك، إجلس واكتب لها كتاباً تخبرها بختمك للقرآن.

جلست خجلاً حائراً. . ماذا أكتب! فأنا أحفظ القرآن عن ظهر قلب لكنني لا أجيد الكتابة السليمة، رددت بتحفز:

ـ أكتب.

غمست عود القصب بمحبرتي واحترت ماذا أكتب في حين أخذت تنبئني بترديد جمل شائعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي الغالية خديج

سلمك الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن سألتي عنا فنحن بحمد الله في خير وعافية لا ينقصنا سوى مشاهدة وجهك الغالي ربنا يجمع الشمل عن قريب إنه سميع مجيب.

أخبرك أن يحيى ختم الختمة وأصبح قاري وكتابه عالي، ويومين ثلاثة ويقري الناس في المسجد، وأريد له جبة من القطيف الأخضر، ولا تنسي البنات ثيابهم اللي وصلت في السنة الماضية تهلهلت وأصبحوا عرايا، وأنا لو قدرتي تشتري لي كرتة (موسلين) يكون خير.

وأطمنّك أن الوادي هذه السنة دفر دفرة قوية، ونحن منتظرين سنة فيها الخير، وربنا رزقنا بتبيع، وثلاث خراف جالسة أسمنهم

(٩) ختم الختمة حفظ القرآن كاملاً.

لبيعهم في الأيام المقبلة والتصرف بثمنهم إلى أن يحين موسم الحصاد، أخبريني عن صحتك وصحة أولادك جعلهم الله في خير وعافية، سمعت من زوجة الطبيني أن حسن ربنا وفقه وجاود عند بعض التجار، ربنا يسخر له في كل خطوة، ويسخر لكم أولاد الحلال في طريقكم، ويرزق إبراهيم بشغلة تفيده أحسن من القراية، أخبرك أني كنت ناوية الحج هذه السنة لكن الفلوس مقصرة معاية ربنا يرزقنا عن قريب ونلتقي عند قبر الحبيب المصطفى.

أمك شاغلتنا كل يوم تصبح وهي تردد اسمك، وكل يوم لها حلم لكن حلمها الأخير ضايقها وتقول أنها خرجت في الطريق لزيارتك ورأتك في آخر الطريق وأنت لابسة أبيض في أبيض وفي يدها رمانة نفسها تعطيك وكلما قربت منك بعدتي وقبل وصولها لك تناثرت حبوب رمانتها ونقمتها دجاجة قوقبية، وهي ذحين تبكي وتقول إلا تشوفك، لكني قاعدة أصبرها وقلها إذا أحينا ربنا من الموت تجي السنة المقبلة.

خديج: لا تشغلي نفسك بذا الهرج هي يومين وتنسى، أرسلي لها رسالة وطمنيها عنك، وعن جهلتك.

وفي الختام لكم منا السلام، سلمي لي على نفسك وعلى حسن وعلى إبراهيم وعلى جيرانك فرداً فرداً ويهدكم السلام من عندنا كل من أمك ويحيى، وليلى وفاطمة وحسينة ويوسف، وأخيك جبريل وبيت الوطاب وبيت حسن بن أحمد وسميتك خديج علية وكل أهل القرية وبلغوا سلامنا على كل من يعز عليكم.

خديج. . الله الله لا تنسي الوصية.

أختك مريم

حرر في ٦ جمادي الأولى لعام ١٣٧٣

أذكر أنها توقفت عن إنبائي مراراً وصاحت بجاراتها:

ـ تعالوا انظروا يحيى أصبح كاتباً.

التمت الجارات حولنا وكانت كل واحدة تزيد كلمة أو كلمتين وأنا أمرر قصبتي على تلك الورقة التي قايضتها بثلاث بيضات من دكان المنجلي. شعرت براحة حين توقفت عن إنبائي، لكن هذه الراحة تلاشت حينما طلبت مني قراءة ما كتبت، فأعدت جملها بتحريف مبالغ فيه فكانت في كل مرة تصحح قراءتي فأتصنع أنني أعيد كتابة كلماتها. خطفت تلك الرسالة ودستها في صدرها وركضت إلى بيت عمر مساوي ورجته أن يوصلها إلى أختها يداً بيد، وبعد مرور تسعة أشهر وصلت رسالة من خالتي وبعض الهدايا المتواضعة، أخذتها بفرح وأجلستني لقراءتها فأخذت أتعتع وأتقول ما لم تقله الرسالة، طوتها وقبلتها بحب، وفتحت الهدايا فلم تجد الجبة أو ثياباً للبنات، فشعرت بخيبة أمل، ناولتني الرسالة مرة أخرى وهي تردد بضيق:

ـ إقرأ، ألم تذكر سبباً لعدم إرسال ما طلبنا؟

تفحصت الرسالة مرة أخرى، وأخذت ألوك كلمات متشابهات، فضربتني على رأسي بغضب:

ـ كنك «طيست»[١٠]. الحق عليّ تركتك كالبهيمة تمضغ القصب دون أن تداوم على قراءة ما حفظت.

وخطفت الرسالة، وصاحت بإسماعيل إمام المسجد والذي كان يتوضأ استعداداً للصلاة:

ـ الله يخليك يا إسماعيل تقرأ لي خطاب أختي.

---

(١٠) طيست: أي فقدت ما حفظت.

تناول منها الخطاب وقرأه بصوت جهوري وكأنه يخطب في صلاة الجمعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي الغالية مريم

حفظك الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن سألتي عنا فنحن بخير لا ينقصنا سوى رؤية وجوهكم الغالية، ونحن بحمد الله في خير ونعيم ونسأل الله أن يجمع فراقنا ويجمع الشمل عن قريب إنه سميع مجيب.

أختي الغالية:

انزعجنا كثيراً حين وصلتنا ورقة مخططة بالسواد وليس بها جملة واحدة تقرأ وقد عبت على أولادي وقلت انهم لا يعرفون القراءة وأنهم لا يزالون يتهجون وتعبت كثيراً وأنا أدور بها وعرضتها على أناس كثيرين ليقرؤوها لي، وكلهم قال إن هذه ليست رسالة، ربما تكون شارة لموت أحد، أو لمغزى لا يعرفه إلا صاحبه أو من بعثت له، وعندما سمعت سيرة الموت خفت عليك خوفاً كبيراً، وظننت أن أمي ماتت أو أصابها مكروه، ولعبت بي الوساوس ولم أرتح إلا عندما حلفت لي زوجة المساوي أنكم بخير وعرفت أن الذي كتبها يحيى، ساعتها ارتحت وضحكت كثيراً من «شخابيط» ابنك، ولو كان إبراهيم أو حسن عندك لكتبوا لك رسالة فهم تعلموا وأصبحوا يقرأون ويكتبون، أتمنى أن ترسلي لي يحيى كي يتعلم ويشتغل هنا بدل جلوسه فلا فايدة عندكم.

وسلمي لي على أولادك وعلى فاطمة محمدية وزعفران وآمنة وراجحية وبيت الأعرج وسميتي خديج وعلى جميع من يسأل عنا.

ملاحظة:

خالتي الغالية: أنا كتبت هذا الجواب لأمي، وإبراهيم اشتغل مجاود عند بيت أبو سبعين وتركني أتعلم، وأنا أعمل في أيام الحج بس، سلمي لي على نفسك وعلى جميع أولادك.

المرسلة أختك خديج

حرر في ١٥ محرم ١٣٧٤

أنهى إسماعيل قراءة الجواب فتقافزت ضحكات من حضر قراءة الرسالة، ولكزتني أمي بيدها وهي تصيح:

ـ يا غارة الله عليك كل هذه السنين تقرأ كتاب الله وما تعرف تكتب رسالة.

وخبطتني في ظهري وهي تردد:

ـ والله إنك يحيى شخابيط.

ولصقت هذه النبزة بي ولم تغادرني، كنت أغضب كثيراً ممن يناديني بهذا الاسم، حتى إذا وجدت نفسي في المدن البعيدة الموحشة حننت لمن يناديني بـ «يحيى شخابيط».

تنويه

أناس كثيرون يظنون أن حياتهم مليئة بالعذابات وأنها لو كتبت لتحولت إلى رواية عظيمة، وكثيرون عرضوا عليّ تفاصيل حياتهم لأكتبها فكنت أجلس بالساعات فلا أجد في حكاياتهم ما يحرك في

داخلي تلك الشرارة المولدة للحكايات الغريبة المدهشة والتي تدخلك في عوالم بكر وتفتح أمامك أبواباً لم تقرع بعد.

كنت في زيارة لحسن جويني بعد خروجه من السجن، فقد ربطت بيننا صداقة حميمة منذ أن كنا تلميذين في مدرسة الفلاح نتقاسم شغب الطفولة وأحلام الشباب. وبرغم شظف العيش الذي لازم حسن طوال مسيرته، إلا أنه كان طالباً مثابراً استطاع بمقدرة خاصة أن يتجاوز كثيراً من العقبات المعيشية ويتفوق على ظروفه، لكنه أصاب أمه بخيبة أمل حين أودع السجن.

قمت بزيارة له عقب خروجه من السجن بعد تردد مضنٍ انتهى بطرق باب بيته وأنا أحوك الاحتمالات التي يمكن أن تحدث لي من جراء هذه الزيارة. وقف على الباب طالقاً قهقهة عالية لرؤيتي يغلب عليها الدهشة، وجذبني لحضنه مفخماً صوته:

ـ مرحباً بالكاتب الجهبذ.

كان ترحيباً خاصاً بالرغم من المبالغات التي أطلقها، وبعد ثرثرة طويلة كنت خلالها أتحاشى الدخول في التفاصيل وموقفي مما حدث، ويبدو أنه كان عازفاً ـ هو أيضاً ـ عن ذلك. ولكي يفتح باباً للحديث عرض علي كتابة رواية عن خالته

ـ أعلم أنك تواق لكتابة رواية عظيمة، وأنا أحمل لك هيكلها فقط، عليك ربط أجزائها وتمثل حالتها ليخرج حلمك لحيز الوجود.

بددت ضحكة جافة في فضاء الغرفة التي تجمعنا وأنا أنهره من مغبة أن يقودني لدهاليز السياسة:

ـ أنا فنان ولست سياسياً، وأعلم توجهك الأيديولوجي، والفن لا يرتهن للآراء المسبقة.

أحسست باحتقاره بعد أن انتهت جملتي. فرد رداً موارباً أسبغ عليه روح الدعابة:

ـ أنت أجبن من أن تسبح في المياه العاتية، أنا أريدك أن تستمع لحكاية ستروبها لك خالتي، وإذا وجدت بها ما يغريك للكتابة فافعل.

ـ الكتابة حالة إنسانية تشعر بها دون أن توزع صراخك على الجيران.

ـ مشكلتك أنك تبحث عن عمل عظيم وفي الوقت نفسه تؤثر السلامة.

ـ أنا لا أحب الجعجعة، ثم أخبرني: ماذا يمكن لامرأة قادمة من أقصى الجنوب أن تقوله؟

ـ وهذه مشكلة أخرى، يا كاتبنا الفذ.

فاحت رائحة سخريته هذه المرة، وقبل أن أقتص منه كان قد أكمل جملته دون أن ينتظر تعليقي:

ـ.......... ألم تقل إن الفن حالة إنسانية، فكيف لك أن تكون كاتباً وأنت تجزئ الأشياء على أية حال ـ أتصور ـ أنها تحمل حكاية ستكون رواية رائعة لو استطعت كتابتها. فقط استمع إليها.

وكالعادة هيأت نفسي للجلوس والإصغاء ويسبقني يقين أنني سأسمع حكاية باردة ككل الحكايات التي تعذب أصحابها وتتضخم في مخيلتهم وتسد عليهم منافذ البهجة. وكان يمكن لو أنهم حركوا أعناقهم قليلاً لرأوا أن الحياة أجمل مما يتوهمون، هؤلاء الناس يذوبون في حكاياتهم ألماً بينما لا تثير تلك الحكايات في داخل سامعها سوى الملل، وعلى أبعد تقدير يجلس ـ السامع لتلك الحكاية ـ مجاملاً ويود لو

يكون بينه وبين محدثه أمد بعيد.

جلست مع تلك المرأة ذات العينين السوداوين والبشرة الصافية وكأنها هربت بلونها من صفار بيض نضج واستوى على أنينها، لم يعكر صفاءه سوى تلك الدموع المتلاحقة. كانت تملك لساناً ذرباً ومقدرة مدهشة على السرد، وكأنها روائية مدربة على الروي.. تقدم وتؤخر، وتقطع وتوصل، وتلون صوتها، خالقة جواً مشحوناً مشوقاً وكأنها هربت من مخدع شهرزاد حاملة سر الحكي. وعندما سمعت قصتها أحسست أنني قادر على كتابة رواية ما من خلال ذلك الكوم الهائل من الكلمات والأحداث التي روتها.

وأعتذر من القارئ العزيز لهذا الخلط الذي أوقعنا به الناشر حين أرفق بهذه الرواية أجزاء من عمل آخر قال إنه عثر على مخطوطته عند أحد الوراقين بدون اسم لمؤلفه. وعندما قرأ تلك المخطوطة وجدها مناسبة لأن تكون رديفاً لعملي، وأقسم أن العملين مكملان لبعضهما ويستحقان أن ينشرا سوياً، كعمل تجريبي رائد. ولا أدري لماذا لم أعترض، لكن هذا التسامح الذي قد ألام عليه من قبل النقاد لم يكن هاجسي الذي يشغلني وإنما اعتراضي ينشأ من الاختلاف الأيديولوجي، فأنا رجل قومي وحدوي أعترض وأتفق مع جمال داخل المنهج وإن كنت أوصف بالسلبي تجاه كثير من القناعات التي أؤمن بها. فرؤيتي أن جميع الأفكار يمكن أن تتعايش وأن كل منهج عليه أن يعيش في دائرته ويتخلى عن رغبة الاحتواء تاركاً لكل إنسان فرصة أن يختار دون قمع أو إجبار. ولذلك فأنا أحترم كل تجربة إنسانية وأمنحها حسن الظن، ومع هذا الايمان فإن ما كتبه المؤلف المجهول من ألفاظ وتحقير للوحدة ولرموزها لا أقبله وأرفضه جملة وتفصيلاً، وأنبه القارئ العزيز أن ما كتبه المؤلف المجهول في هذا العمل لا يمثل

رأيي البتة. . لذلك فأنا أتنصل من كل تلك المقولات التي جاءت على لسان الراوي المجهول، وسأقوم بترقيم كل فصل أكتبه بالأرقام اللاتينية كي يستطيع القارئ الفصل بين ما كتبته أنا وما كتبه المؤلف المجهول، والذي لم نجد له اسماً على تلك الفصول التي عثر عليها الناشر، وليسامح الله الناشر على هذه الورطة إن كانت بالفعل ورطة.

الراوي

في فناء واسع تراكمت أعواد الحطب، وتناثر الكر والبعر في أماكن مختلفة، ويبست شجرتي الحنون والريحان ولم يتبق منها إلا أغصان عارية من أوراقها تنتظر من جذع خاو أن يمدها بقليل من الحياة، وبجوار السقيفة ربطت حمارة أخذت تلوك سجف العشة بنهم لتذود عن نفسها هلاك جوع يحوم بين دواب القرية ويخطفها، لتنتفخ لأيام قبل أن تتخطفها الحداءات والطيور الجارحة.

فناء واسع تركض به الرياح حاملة آثار الزواحف الليلية ومبقية ذرات رمل ناعم يتغلغل في ثنايا الجسد مخلفاً ضيقاً إضافياً لأهل القرية.

وقفت فاطمة بجوار التنور تسوي وتبسط جمراته المستعرة لتتمكن من خبز قرصين من حبوب الحنطة الدفينة، جمعتها من أرض بلقاء كانت فيما مضى مخزناً للحبوب. رمقتها أمها بإشفاق، وأخذت تكسر أعواد الحطب بتأفف:

ـ ليس لنا عمل إلا جمع الحطب، ولا أدري لماذا نجمعه.

ـ هذا أفضل من أن نجلس بدون عمل.

شعرت بغضب مفاجئ يعتريها فصاحت:

ـ أنت مثل العقرب تجيدين اللدغ فقط، وهل هناك عمل ولم أقم به، كل القرية تجمع الحطب وليس لها عمل إلا هذا.

ـ لم أقل شيئاً يستوجب غضبك.

ـ والعقارب تظن أن لدغها لا يؤثر في أحد.

ـ كلما تحدثت معك عبتِ عليّ حديثي، فلن أتكلم.

ـ وهل ترينني مجنونة؟

ـ . . . .

ـ لماذا أنت ساكتة؟

ـ . . . .

ـ والله لولا العيب لتركتكم هنا ونفذت بجلدي.

ـ . . . .

استشعرت بالوحشة، والضيق، فأخذت تبكي. كانت فاطمة تخالسها النظر، وتتشاغل بتسوية النار:

ـ خالص لا تبكي.

تناشجت، ومسحت دموعها:

ـ خالص، من أجل الغالي لا تبكي.

فارتفع نحيبها. اقتربت منها وضمتها، فدفعتها عنها بتوتر:

ـ لو انحرق القرصان فسنبكي كلنا.

ومدت يدها وأزالت دمعة تحدرت على وجنتيها وقبلت مفرق رأسها:

- كلنا فداك.

- دعي الكلام الذي لا يجدي وعودي لمكانك.

شعرت بالضيق فعادت لجوار التنور مزمجرة:

- أنت التي تصدينني كلما حاولت التخفيف عنك.

نفرت فيها مقرعة:

- أنا أعرف كيف أخفف عن نفسي. احرصي أنت فقط على قرصي الحنطة فربما لن نذوق شيئاً بعدهما.

- ....

هشت الصوص الذي فقص قبل أيام، وزفرت بضيق حين لمحت نفور عظام حمارتها النائمة أسفل سقيفة البيت. شعرت برائحة المرارة تجري بين جدران حنجرتها. زفرت وعادت تخاطب ابنتها الواقفة أمام التنور وهي تستعد للخبز:

- حتى أشجار السلم قلت بهذه القرية.

- ....

- هذه الحمارة ستموت اخرجي بها لأي مكان علك تجدين لها ما يؤخر نهايتها لبعض الوقت.

أهملتها كمن لم يسمع شيئاً، فعادت لنثر وساوسها بصوت مسموع:

- ما الذي يجعل الحياة بائسة؟

دفعت الريح المغبرة جملتها، ومضت مخترقة بين العشش المنكبة والأجساد المحتزمة بخروق بالية ذابت من أماكن متعددة.

- هل يمضي هذا الموسم بلا أمطار؟

جرى هذا الخاطر بمخيلتها فتحسرت بآهة مرتفعة:

- آوه نحن في حاجة ماسة لقطرات قليلة.

(ستمر غيوم هذا العام غير مبالية بنظراتنا إليها، هناك في البعيد خلف الجبال السوداء ستهمي بمائها حيث لا أحد يحتاج إليه بينما نحن منسيون هنا.. نجالس الجدب والأشواك، وسيجد الوادي نفسه يلهو برماله البيضاء الفضية، ويضحك من حقولنا النائمة على جنباته في انتظار أن تنهض بقوائمها. لن نجد أمامنا سوى الانتظار، ونبش الأرض علّها تمدنا بقليل من حبوبها المخزونة المنسية منذ أمد، تلك الحبوب التي كانت في يوم ما فائضاً. ها هي خلال عام واحد قرضت وظلت نواجذنا تبحث عما تطحنه، لم يعد باقياً منها إلا حبوب أكلها السوس، فتحللت وبقي منها حبيبات منخورة نجمعها بشق الأنفس لنلوكها علها تؤخر سقوطنا لبعض الوقت. هل سنموت ونحن ننتظر؟ لا.. لا.. لا بد من أن يخرجوا مرة أخرى للصلاة. سيرحمنا ربنا. نحن محتاجون فقط لصلاة ثانية وإن استوجب الأمر لثالثة ورابعة. فسنموت هنا إذا لم ينزل المطر. ها هي دوابنا تنفق، والأرض تغالي في صلفها فتكشف عن وجهها تشققاتها وقحطها. أرض تحتفل بالجراد والأشجار اليابسة.. ما الذي يحمل الجراد للوقوف في الأماكن الخربة. هذه الحشرات إشارة للموت، فقوارضها الصغيرة تخمد أرواح الأشجار المتبقية حتى إذا جاء الموت لم يعد هناك عرق ينبض. يا الله.. ارحمنا، سنموت جوعاً، نعم لا بد من الخروج للصلاة. سوف أوصي زوجة إسماعيل عبده لتحرض زوجها للخروج، ولا بد من سوق عجل سمين أمامنا. نعم لا بد أن نشترك جميعاً لشراء هذا العجل، وننحره بعد الصلاة علّ الغيوم تحن لإخماد الدماء المنسكبة، وسينزل المطر، وتعود إلينا الحياة....).

وأخذت تعدد احتياجاتها بصوت مسموع وهي تكسر أعواد الأثل اليابسة، وتجمع الأغصان والجذوع في حزم متفرقة:

ـ من يشتري حطباً في هذه الأيام؟

نادت على حسينة:

ـ ليس بالأزيار قطرة ماء لو تخرجين لتردي لنا.

ظهرت حسينة وهي تطيب شعرها وتضفره:

ـ رأسي لا يزال أخضر.

ـ لم يعد ناقصاً عليك إلا الزينة.

ـ لتذهب فاطمة أو ليلى!

فصاحت فاطمة من عند التنور:

ـ ألا ترين ماذا أفعل؟

شعرت بحيرتها أمامهما، فصاحت:

ـ وأين هي ليلى؟

ـ ذهبت بيوسف لبيت خالي.

ـ أنتن أشبه بالحبال المقطعة، لا أستفيد منكن في شيء.

ـ ....

ـ... غطي شعرك واخرجي أنت.

ـ والله ما خرجت بهذه الحمارة، فهي في كل مكان تسقط، وأظل سخرية للجميع وأنا أحاول معها.

ـ انتظري حتى أشتري لك حصاناً لتردي عليه.

ـ جربي واخرجي أنت، بعدها ستعرفين أن هذه الحمارة أصبحت عبئاً علينا.

ـ لا أحصد إلا كلمات ألستتكن، ولا واحدة منكن تحس بي.

فلم تجبها، وانسلت إلى داخل العشة وأخذت تشتمها بحرقة، وتردد:

ـ لو أبقيت يحيى لخفف عني.

وتنهدت وجلست بجوار حطبها الموزع تنظر لفاطمة التي بدا كتفها من خلال شق كبير في كرتتها الحمراء وتنهدت بضيق:

ـ ما الذي يمكن أن أفعله ولم أفعله.

وانهارت في بكاء محموم.

(أكان لا بد أن أدفع بابني للغربة من أجل أن أسعد أنا، آآآآآ الله الجلد عندما يجف يتطلب الماء من المستنقعات والبرك، من أي مكان يتطلبه ليرطب جفافه، أعذرني يا يحيى، فلم أعد أتحمل. فمنذ أن عرفت الدنيا وأنا أركض من أجل هذا البطن، لكنني أكثر قسوة من أمي، فهي كانت تخرجني للخليان القريبة لأعود بما تجود به الأرض القاحلة... بهش، كين، ويكة[11]، الويكة هي النبتة الوحيدة التي تصاحبنا في جدبنا، فعندما أعود بها تستعجل أمي سحقها على

(١١) البهش: حبات الدوم، والكين حبات النبق، والويكة نبتة من الخضروات مذاقها يشبه مذاق الملوخية غير أن نبتة الويكة تلبد أو تفترش الأرض افتراشاً، وهي أكلة المعدمين تؤخذ وتسحق وتخلط بالفلفل والليمون وتؤكل وفي أحيان تجفف لتكون وجبة احتياطية إذا ضرب الجدب أطنابه.

الرحى فنتلمظها بلهفة لتسكن بطوننا الملتهبة قليلاً. كنت أقسى منها، فقد أخرجتك لدنيا واسعة ليس بجوارها حقل ولا عين تمدك بقليل من جفافها. آوه يا يحيى تركتك قبل أن أشم عرقك رجلاً، وقبل أن تفرح بطفولتك بجوار إخوتك.. أي شمس تظللك الآن؟ هل وصلت لجدة؟ لقد وصيت جدتك أن تضعك في عينيها، ونسيت أن أوصي الدنيا عليك.........).

تناثر الصوص ناقماً بعراً ترامى على عرصة الدار ومقتفياً أثر دجاجة تسير نافشة جناحيها وخامشة الأرض بمخالبها المتآكلة، تلك المخالب التي تشي أنها نبشت أماكن عدة دون أن تجد ضالتها، هشتها فتقافزت على الأسجف المائلة والتي تساقط ثمامها وتداعى صربها وتفرق عن فرجات متقاربة.

تنهدت بعمق:

ـ الأسجف المنخفضة تغري العابر بالنظر ويبدو أننا أصبحنا هدفاً لتلك العيون.

قالت جملتها وانتظرت أن يأتيها الرد من ابنتها التي لا زالت تجلس بجوار التنور تتهيأ لخبز أقراص الحنطة، وهي تقلب جمرات مستعرة وتحاول تسويتها بعود قصير معوج وشعرها المكشوف يتلاعب على جبينها، بينما تعكر وجهها بحمى النار المتلظية المنبثقة من فوهة التنور، وظل وجهها مزموماً وهي تخبز أقراصها بعد أن تلعق أناملها قليلاً من ماء بصحن استقر بجوارها، وتلوك ملاحظات أمها بداخلها بحزن. كانت الأم تعيد جملها بتوتر وحِدة، وعندما لم تجد جواباً من ابنتها صرخت بها بضيق:

ـ يبدو أنني سأجنّ وأنا أحدث نفسي.

وتابعت بانفعال:

ـ هل ستتركيني أهذي ما تبقى من النهار.

بادلتها نفس النبرة:

ـ وما الذي أقدر أن أصنعه ولم أفعل؟

صمتت وسال ببالها ضيقها:

ـ (نعم ما الذي تستطيع أن تفعله فتاة في مثل سنها، أكان لا بد أن أقذف به للغربة، أين هو الآن؟ يا حرقة حشاشي، لو بقي معي لرحمني من هذه اللوعة، ماذا يصنع الآن؟ في أي مكان هو؟ ماذا يأكل؟ هل هو نائم أم مستيقظ، أم تحتفل به الغربة لتأكله في الغد؟ لم نعد نريد شيئاً. فقط أريده أن يعود، هو مذبوح بغربته وأنا مذبوحة بلهفتي عليه، أمن أجل لقمة خبز أرمي بقطعة من لحمي للمدن البعيدة، إنه يذكرني بالبهيمة التي تضل عن القطيع حيث تسير رافعة ثغاءها وربما تمتد إليها يد في الخفاء وتذبحها، يا آآآالله......).

نفضت خواطرها بصوت مسموع:

ـ أعوذ بالله من هذه الوساوس.

وعادت لمماحكة ابنتها:

ـ قلت لك اخرجي بالحمارة لأي مكان علك تجدين لها علفاً.

ـ يكفي ما حدث البارحة.

(بالأمس لاكت الحمارة سجف عبده مساوي، فخرج ثائراً وشتم فاطمة وأمها وانهال بميهره على الدابة حتى تقوس ظهرها).

ـ لعنة الله عليه من رجل كلما خطرت فعلته ببالي أتمنى أن أحش بطنه.

رمقتها فاطمة بصمت، بينما واصلت سخطها:

ـ ألا يستحي هذا الرجل؟ بالأمس فقط كنت أقف على رأس زوجته طوال الليل، أهذا جزائي؟ النفوس الوضيعة تظل وضيعة.

وقذفت بأعواد الحطب الممسكة بها على الأرض:

ـ أخرجي بها للخلاء علّ نبتة نسيت أنه فصل الجدب فخرجت.

ردت فاطمة بصلف:

ـ الأرض لا تنسى فصولها.

ـ تجيدين القول حين يكون الحديث عن التشاؤم، قولي شيئاً يريحني.

لم تجبها، وأغلقت التنور وجلست تقلب التراب بعود وتتطلع لأمها بنصف ابتسامة.

ـ لا تنظري إليّ هكذا، قولي أي شيء.

ـ غداً الأحد.

شعرت بغيظ شديد، وقذفتها بعود كان عالقاً بيدها:

ـ أنت وإخوتك ستعجلون بدفني.

وعندما رأتها تضحك عليها، راقت لها ضحكتها فهدأت قليلاً وخاطبتها بنبرة أقل حدة:

ـ ما هي أخبار خالك؟

ـ لم يعد، وتقول زوجته انه ذهب ليشتكي للقاضي عيسى.

عقبت بفتور:

ـ وماذا عساه أن يصنع له بدون بينة، كنت آمل أن يقرضني، أما الآن فعليّ أن أعرض وجهي للناس.

ـ وهل في القرية من يقرض في هذه الأيام؟

ـ قلت لك سدي فمك عن كسر الخاطر.

ـ أسده أو أفتحه، هذه هي الحقيقة.

كانت تغلي، وفي أحيان كثيرة تلعن الفاقة وبطنها الذي توالد بثلاث إناث وذكرين، ويزداد سخطها حين تتذكر يحيى الذي قذفت به للغربة وتفز من جلستها لتصب غضبها بصورة مفتعلة على أبنائها وتصيح بهم:

ـ إلى متى أظل معلقة بكم.

وعندما ينكسرون وتهل دموع يوسف تحوطهم وتشاركهم البكاء، وتردد:

ـ غداً يأتي الغالي ويريحنا من كل هذا العناء.

أحست فاطمة أن جملتها هربت منها حين عقبت على مقولتها:

ـ كل الخوف أن ينسانا في المدينة.

ففار غضبها وخمشت تراباً وسفته:

ـ ألم أقل لك، سدي فمك عن كسر الخاطر؟

فصاحت وأمسكت بعينيها وهي تتلوى وتظهر ألماً مبالغاً، فنهضت إليها فزعة تغسل لها عينيها بالماء، وهي تصيح بحرقة:

- إلى متى أظل معلقة بكم؟

❀ ❀ ❀

حط الجراد على تلك الأشجار اليابسة المتناثرة على مفترق القرية، وجرى نهار قائظ بين حقول احتضنت غبارها وتشققاتها منذ فترة ليست قصيرة، وتحت عرائش منصوبة على جنبات الحقول جلس الفلاحون يحتسون الشاي بملل، وعيونهم تتابع صبية تراكضوا خلف سرب الجراد للإمساك به وشيّه، وصبايا أخذن ينقبن عن أي شيء بداخل الأرض الميتة، وحين لا يجدن شيئاً يلتقطن الأعواد اليابسة ويجمعنها فوق حبل امتد لربط تلك الأعواد، وخلفهن تسير بعض العجائز متأففات من أعمالهن التي لا تروق لهن. خبطت إحداهن فاطمة على كتفها:

- العمل يحتاج صبراً وأراك تتقاعسين في كل مرة.

غمغمت فاطمة بتذمر:

- بالله عليك هل يجدي الصبر مع هذا القحط؟ مضت أيام ونحن نخرج ولا نعود إلا بالحطب اليابس الذي امتلأت به البيوت، وكل واحد منا يطمع أن يشتري منه الآخر، بينما لا يوجد شيء يحرقه هذا الحطب. . دفعتها العجوز أمامها:

- هذا الذي أقصده، أين الصبر!؟

تركتها وركضت باتجاه خالها المتفيئ بظل عريش متداع:

- يا خال. . أمي تريد رؤيتك.

- أخبريها أني لم أنس.

فتحركت من أمامه وحملت حزمة حطب على رأسها، ومضت تعبر طرقاً ملتوية توصل لبيوت القرية.

زفر جبريل وهو يتناول كأس الشاي الغامق:

- القحط أكل كل شيء حتى حركتنا.

فعاونه حسين مرعي بزفرة حادة:

- ليس أمامنا سوى الانتظار.

- لقد مللت.

- كلنا مللنا، ولكن ليس أمامنا من حيلة ويبدو أن هذه السنة ستمضي دون قطر.

- قال الله ولا فالك.

- أخبرني ماذا حدث مع جابر.

- قبح الله جابر، وصلت قضيتنا للقاضي وهو لا يزال يماطل وينفي وأنا لا زلت أنتظر، ولو كان غير هذا الوقت لانتظرت ولكن مقدم الوالدة أصبح وشيكاً ولا بد أن أساعد أم يحيى في استقبالها.

- أنت المخطئ، فجابر مثل المقبرة يأخذ ويدفن ولا تسترد منه إلا العفن.

- كنت أظن أنني أعمل خيراً معه.

- منذ أن عرفناه وهو جاحد لكل معروف.

- الآن لا يجد. . . . .

توقفا فجأة على صياح بعض الأطفال وهم يتجارون ممسكين بطائر غريب الهيئة، وقد التصق ريشه بين أصابعهم، وكل منهم يدعي أنه اصطاده بمفرده، فنهرهم جبريل وخطفه من بين أيديهم، وثنى رقبته ومرر شفرته فسال دمه شحيحاً وارتعش بين يديه للحظات وهمد. نتف ريشه على عجل وألقاه على تلك الجمرات المستعرة، وبجواره تناثر جراد مختلف الأحجام، وهبط الرجال والأطفال والنساء ملتفين حول الموقد وانتظروا أن ينضج الطائر بينما ظل لعابهم يسيل بغزارة وترقب.

❀ ❀ ❀

تناست كل ما يمكن أن يكدر صفوها، وعمدت إلى بيع «دبلول»[١٢] ذهب حصلت عليه يوم زواجها. أخرجته من صحارتها وأخذت تتطلع إليه بشوق، وأحاطت رقبتها به وحملت مرآتها المكسورة ونظرت إلى جيدها المتعطف قبل الأوان، وسرحت قليلاً قبل أن تداهمها ابنتها حسينة ذات اللسان المنزلق على الدوام ـ كما تصفها ـ:

ـ حنيتي للزينة.

تنبهت لها، ودلقت ابتسامة مقتضبة ورددت بمكابرة:

ـ لا زلت صغيرة ولم يعجزني إلا بطونكم المفتوحة.

سحبته من جيدها وخبأته بيدها، وتناولت «شيظرها» وهمت بالخروج، فاستوقفتها حسينة:

ـ إلى أين؟

(١٢) الدبلول عبارة عن قطعة ذهب دائرية تعلق بالحلق بواسطة خيط كتان أسود، وعادة ما يكون بلا سلسلة ذهبية.

ـ سأبيع هذا الدبلول.

فاحتجت حسينة على بيعه:

ـ ألم تقولي إنك ستهديني إياه مع زواجي؟

ـ وهل هناك من يفكر بالزواج في هذه القرية؟

ـ . . . .

ـ . . . . الجوع أنسى الناس كل شيء يا خبلى. . . . . .

ـ أنا الوحيدة التي ستتزوج.

نظرت إلى وجهها المتدفق بالأنوثة وسمت عليها في سرها، ورددت:

ـ «لما يجي نسميه».

ـ زوجي مفصل جاهز ليس محتاجاً لتسمية.

ـ قري في مكانك ودعيني ألحق بموسى بن أحمد قبل أن يغلق دكانه.

ـ حلفتك بالغالي يحيى ما تبيعي الدبلول.

زفرت بحدة:

ـ وبِمَ أستقبل جدتك؟

ـ بيعي هذه الحمارة.

شعرت بصدرها يتمدد وينفجر فصاحت بها:

ـ وأركب على ظهرك عندما أذهب لمشاويري.

فانطلقت ضحكات أختها فلم تتمالك نفسها من البكاء، فتركتها وتحركت لدكان موسى لبيع الدبلول أو رهنه.

❀ ❀ ❀

من بعيد كان صوت مريم يلهج بترنيم صاف، وهي تحمل قعادة أمها العائدة من الحج:

ألا يـا عـجـل وعـجـيـلـة

عـجـل بهـم فـي الـلـيلـة

قـل عـلى غـنـى المبـشـر

ذلحـين أتـاني فـي الـليلـة

شـبـشـره بـالـشـمـايـل

والـسـطـوق ليه بـلـيه

لم تطب لها تلك الكلمات فجلست تنسج كلمات جديدة من مخيلتها تغير وتبدل في كلماتها حتى راقت لها، فظلت ترددها بشجن. كانت ترددها بصوت رخو سكبت به لوعتها وتقاطرت دموعها كلما قفزت صورة يحيى في مخيلتها، وتقطع غناءها هنهنة مرة تحاول تمزيقها بتجويد الغناء ورفع الصوت ليرتد إليها شجياً تخامره لوعة استجاب لها أبناؤها بونة متلاحقة وترديد آخر مقاطعها.

❁ ❁ ❁

انطلق عبد الأشراف يصيح بأعلى صوته:

ـ. . البشارة لي يا أم يحيى، وصل الحجيج. . وصل الحجيج.

نهضت بعجلة وهي غير مصدقة:

ـ فعلاً وصلوا.

فأكد لها جوهر بلهجة متداعية:

ـ أول قافلة دخلت القرية قبل قليل.

ويتلهف استحثته: هل رأيت معهم أمي.

فهز رأسه نافياً، فخبطته على كتفه ضاحكة: وعلى ماذا تطالب بالبشارة.

ـ بوصول الحجيج.

فتركته يتبعها بتحفز وانطلقت إلى مشارف القرية.

❁ ❁ ❁

خرجت مجموعة كبيرة لخارج القرية ووقفوا ينتظرون القادمين، كان السؤال الذي يقف على ألسنتهم لأي قادم:

ـ هل رأيت قافلة حجاج قادمة؟

ومع اهتزازة رأسه النافية يكونون قد عادوا إلى مواقعهم وعلقوا أبصارهم بالمدى علهم يرون القادمين، فصعد بعضهم فوق أشجار الأثل العالية وبعضهم أخذ يتقدم بخطواته حتى بلغ الطرق المتفرقة من رأس الوادي والتي تتشعب لتقود الخطى إلى قرى نامت ببطن الوادي.

ترقب، وتحفز، وثمة فرح يجري على تلك الوجوه المكدودة، وأحلام خضراء يحملها المنتظرون ويلوحون بها لخواطرهم، وخاطر عذب يعبر مخيلتهم بأن يعود حاج بهدية ما، هدية صغيرة حتى لو كانت قليلاً من الحمص، والخرنوب.

كان الكثيرون يتوقعون وصول قافلة الحجيج خلال أيام معدودات، فنشطت كثير من المهن، الخسافون، والمقطرنون، والفخاريون، والمحبلون، والطلاسات، والخياطات، مهن كثيرة أفاقت من سباتها وأخذت تعمل وتبيع على ذمة السنة القادمة حين تنهض السنابل من يباسها أو بمقايضة جائرة أو برهن الحقول الميتة.

ولكي يكتمل الفرح بمقدم الحجاج تشاغل الصباغون بصبغ بضاعتهم وتلوينها بألوان زاهية، وتفنن بائعو الحلوى بتقديم منتجاتهم، ووضنت العجائز الطفي، ونشطت الخياطات يخطن الكرت والسداري لتقديمها للحاجات، وغزل الكوافي والشالات للرجال، وتفننت كثير من النساء في تلوين ركب القعايد بعد قطرنتها فتعرجت ألوان حمراء وخضراء، وحرصن على زخرفة العشش بانحناءات متعرجة دقيقة مستخدمات ألواناً فاقعة، ونقشن كلمات وآيات وفي صدر كل عشة كتبت جملة واحدة (حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً)، ومن وجد سعة في يده وضع قبباً من الفضة الملساء على رؤوس الأراك وبسطت فروش قطنية نجدت وملئت بتولات القطن الناصع، وارتمت على أطرافها مخدات طرزت بيوتها بالخيوط الملونة المزركشة وغطيت بأغطية ناعمة ذات ملمس رطيب.

وعندما أصبح دخول الحجيج وشيكاً عمدت بعضهن لسحق الحناء وتخميره وبعضهن خرجن طلباً للحصول على كميات كبيرة من الفل والكاذي من الأسواق القريبة بعد أن ماتت ردائمهم بالغبرة التي سكنت بينهم منذ شهر مضى.

وبعضهن جلسن ينظمن الأهازيج ويتدربن على ضرب الدفوف بنغمات توازي وتخالط تلك الأشعار المعدة. وكانت أهزوجة مريم خالدية الأقرب للأداء، فأخذن ينقرنها على الدف برقصة تعمد فيها النساء على إظهار الحبور المفتعل في رقصتهن، وقد جلست جمعة تنقر الدف نقراً شجياً وتلهج بكلمات مريم خالدية ومن خلفها تردد النساء آخر المقاطع:

يا مشى في طريق الكعبة

عودت بالمحبة

طريقك خير ونجمك سهيل

وعرفك عاده هيل في هيل

يا غادي في مطر وسيل

أعطف علينا في ليل

طولك ساني ومقدمك نساني

قوله آه من خلاني

وهرج كل من يشناني

تجمعت النساء بالبيوت المنتظرة حجاجها، وتبادلن الأمنيات والحكايات والضحك، واختلطت روائح المدع بالمستكى بعطورهن ذات الرائحة النفاذة.

فرحة تنسكب بينهن فتنسيهن غلبة القحط والدين المؤجل، وتخشب قامات رجالهن بين الحقول الميتة.

أبدت جمالة تذمرها بصوت مبحوح تغالبه حشرجة سكنت حنجرتها منذ أن كانت صغيرة:

ـ ليتني كنت معهم وسعدت بهذا الاستقبال.

فخبطتها على ظهرها إحدى صويحباتها بمرح:

ـ أطلبي من الله يسهل لك بابن الحلال.

فردت بضحكة مكسرة أقرب لانكسار صحن:

ـ تعبت من مثل هذا الدعاء، ولم أر أحداً في طريقي، قلت أغير الدعاء عسى تتفتح عيون الرجال، فتضاحكت صويحباتها، وغمزنها بسخرية:

ـ لأن الرجال مفتحون لم يمروا في طريقك.

وتوقفن عن ضحكاتهن حين سمعن «القاوي»[١٣] واستعذن بالله وهن يتراكضن صوب الصوت ويتساءلن بإلحاح:

ـ من مات؟

وينصتن من أي الجهات يأتي الصوت. كن يتراكضن ويرفعن أصواتهن مولولات بصوت حاد وهن لا يعرفن على من يبكين، وحين بلغن الصوت علمن أن محسنة يوسفية ماتت في طريقها لمكة، وتحول استقبال الحجاج إلى فرحة ذاوية وأخذن يسألن:

ـ كيف ماتت العجوز يوسفية.

(١٣) القاوي: لفظة تشير إلى ارتفاع صوت امرأة تنبئ بحدوث موت.

الفصل الثالث

بعد أن دخلنا جيزان تفرق أفراد قافلتنا ووجدت نفسي أسير معه دون أن أجرؤ على الاعتراض. كان يبدي حرصه عليَّ ويلزمني بأمور لا تجد في داخلي القبول، وأمتثل لأوامره رغماً عني، فلم يعد من أمسك به في هذه الغربة سواه.

في ميدان المطلع خرطت القوافل وجلسنا أمام دوابنا في انتظار من يشتريها. وانشغل الكثير بشراء ما يسد جوعهم من المأكولات المتعددة التي بسطها الباعة أمامهم وتنادوا بمحاسنها بصوت مرتفع لا يخلو من تنغيم. واختلط الناس في زحمة ولغط وقد تراصت سيارات قليلة كان سائقوها يتصايحون بأسماء المدن المتوجهين إليها ويملأون سياراتهم بأرتال من الأجساد المنهكة ويغادرون المكان بوجوه غارقة في شرودها وتعبها.

كانت قافلتنا قد تمزقت وتفرقت بداخل الميدان ولم يتبق إلا نفر قليل ينتظرون بيع دوابهم التي لم تعد صالحة لمواصلة السير إلى مكة. كنت أشعر بالجوع والتعب، إلا أن شعور الغربة والوحدة كان طاغياً. اشتهيت لأكلة دجر. فتحت كمري فلم أجد فيه شيئاً. فالريال المجيدي امتدت إليه يد ذلك الرجل وغير مكانه ليحتل مكاناً ضيقاً بكمره العريض.

كنت ألمحه يقف محرجاً على حماري وينفعل من مساومة أولئك

المشترين المتقاعسين، وكلما ساومه أحدهم على حماري صرخ به باحتداد:

ـ هذا حمار مؤصل تشتريه بهذا الثمن؟

كنت أسمع تعليقات على مرافقي يصاحبها ضحك مرتفع:

ـ هذا الجبلي يظن حماره حصاناً.

وطفرت ضحكاتهم حين علق أحدهم:

ـ أو أنه يريد أن يبيع نفسه مع الحمار.

كان مرافقي منشغلاً عنهم برفع صوته:

ـ هذا حمار مؤصل.

فتحرك أحد أولئك الساخرين منه وهو يغمز لأصحابه، واقترب منه مساوماً بنبرة تهكمية لا تخلو من تبجح:

ـ من أي سلالة؟

وهمَّ مرافقي ببيان أصوله لكنه توقف عند تلك الجملة التي ارتج لها:

. . . أم أنه من نفس سلالتك.

فصاح وتطاير زبد شدقيه:

ـ تشتمني يا فسل يا هين؟

وتماسكا بالأيدي، ووجدت نفسي أناصره، وأشد خصمه من الخلف فالتفت إليَّ وصفعني، فزاد سعار مرافقي وأزبد:

ـ وتضرب ابني أيضاً؟

وألقى بنفسه عليه، فتجمع أهل السوق عليهما وفرعوا بينهما، فجرني من يدي وباليد الأخرى قاد الحمار، بينما ظلت تلك المجموعة تتبعنا باللمز والضحك.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت ابناً له أمام من يقابلنا.

سرنا مع البحر حيث كانت أمواجه المتكاسلة تقذف بألسنتها، صبية تقافزوا لداخل مياهه وأجسادهم الصغيرة تطفو كأوراق شجيرات الرين الباهتة، بينما أطلت علينا بيوت المدينة بقاماتها المنخفضة وبيوتها المفتوحة.

قال مرافقي دون أن يلتفت إليَّ:

ـ لي صديق يسكن بالساحل نبيت الليلة عنده وفي الغد يسهل الله.

كنت متشككاً من حديثه، فعقبت على الفور:

ـ هل فعلاً لك صديق هنا؟

رفع رأسه، وتطلع إليَّ بزهو:

ـ في كل مكان لي أصدقاء إلا أن صالح الحنوني صديق عمر. ستراه، فهو شهم وصاحب نخوة. كان يهذي بكلمات كثيرة، وعيناي معلقتان بأولئك الصبية الذين يمرحون بداخل البحر وعلى شاطئه كنت أتوق لأن أقذف بجسدي بينهم ولتذهب بي مياه البحر إلى منتهاها، ولم أستطع أن أكاشفه بهذه الرغبة ككثير من الرغبات التي تتمدد في خاطري وتعجز عن الخروج، فسرت خلفه كخيط إبرة. كان يدندن بصوت مسموع حتى إذا خامره شك في رداءة صوته أعاد مقاطعه بتجويد أكثر رقة.

سلكنا طرقاً متعرجة وقد ترك لي مهمة أن أقود حماري. فكرت أن أصعد على ظهره لكنني تراجعت حين تذكرت صراخه لي حينما فعلت ذلك بداخل السوق:

ـ قطع الحمار مسافة طويلة دعه يرتاح.

وعندما وجد أن هذه الجملة لم ترِحْه عقب:

ـ لو أنك هذا الحمار وركبت على ظهرك مسيرة خمسة أيام أو عشرة كيف سيكون حالك، ارفق بالدواب ولا تكن غليظاً!!

سرت خلفه ورغبات كثيرة تراودني فأدفعها وأصرفها بعيداً عن نفسي خوفاً من صراخه.

وقف على «قبل»[١٤] واسع تناثرت في زواياه أشجار الريحان والحنون وشجرة سدر مثمرة، وفي وسطه استندت رديمة فل عامرة على سجف مدت عليه حبال رقيقة تمسك بتلك الأغصان النافرة للأعلى. واستقرت عشتان كبريان في نهاية «القبل» ببوابتين تطل إحداهما على البحر والأخرى باتجاه الشام.

وقف منادياً على صاحب الدار فخرج أربعيني بملابس نظيفة ذات ألوان متداخلة، وعندما رآه صاح بمرح:

ـ ألا زلت تجوب القرى؟

وحضنه بقوة، وسلم عليَّ بعجل وبدون اهتمام، وقاده للداخل. تناثرت كلماتهما في فضاء العشة بحبور، كان مضيفنا أكثر نشوة وشباباً سمعته يردد:

---

(١٤) القبل: فناء الدار، وبيوت المنطقة الجنوبية التهامية تكون عادة ذات أفنية كبيرة واسعة وفي نهايتها يستقر البيت، سواء أكان عشاً أم بيوتاً من الحجر أو اللبِن.

ـ عد إلى قريتك ودع جدة لأهلها.

كنت أشعر بأمعائي تتقلص وتنفر فجأة فتصيبني بطعنات حادة. كنت متردداً في طلب شيء آلوكه. طال الحديث بينهما وشيء ما يفتت أمعائي، وقبل أن أتجرأ بالشكوى كان هناك صوت ينادي من خارج العشة:

ـ الغداء.

فسبقتهما راكضاً، فرأيت مائدة ممتدة فاحت روائح تلك المأكولات المتنوعة: حنيد، بنت الصحن، مغش، مرسة، سمك طازج، لحوح، حلبة، وكثير من المشهيات. جلست بعجل وأسكت ألم بطني بلقيمات سريعة ومتلاحقة كنت أزدردها، فأحسست بعروقي تجري بها الدماء ويعاودني النشاط قليلاً قليلاً.

عدنا لتلك العشة وعاد حديثهما أكثر خصوصية وأعمق بوحاً، بعد أن تقاسما ربطة قات أخضر ذي أغصان قانية الاحمرار، فنشط حديثهما على صوت الآنسي وهو يشدو بنشوة وافتتان:

أنـــا يـــابـــو يـــانـــا   خـــطـــر غـــصـــن الـــقـــنـــا
يـــا نـــازل وادي بـــنـــا   أنـــا يـــابـــو يـــانـــا

ونمت ومرافقي يتحدث عن لوعة ما تحرقه، وصلتني جمل قصيرة مبتورة:

ـ ألا زلت تبحث عنها؟

ـ جبت كل القرى ولم أعثر عليها.

ـ انسها والتفت لبناتك.

ـ والله إني أدعوه أن لا ينسيني إياها.

صياح الديكة يغمر المكان، وندى يبلل الأراك، وغبش يحمل رياحاً خفيفة تجري على رؤوس الأشجار فتشقشق عصافيرها وتتعالى شقشقتها بصخب متداخل. فتحت عيني ووجدت نفسي نائماً على شبرية ذات فراش رطيب، ومغطى بشرشف زاهي الألوان وقد غطتني حبات فل فاغ، انتشر أريجها فملأ أنفي برائحة خمرية سرت في أوصالي بخدر لذيذ. كان مرافقي يجاورني على شبرية مرتفعة، فنهضت وهززته:

ـ أشعر بالجوع.

فتح عينيه بصعوبة ونهرني بغلظة:

ـ عد للنوم.

وبانكسار رددت:

ـ لا أستطيع فالجوع ينخر بطني.

زفر بضيق:

ـ هل تحمل بطناً أم بئراً؟

انسحبت وعدت لفراشي أتمرغ بين حبات الفل، وأسترق السمع لسيدة كانت تحرض خادمتها بعجل:

ـ اذهبي بالصفارة[١٥] للغرباء.

فتاة صغيرة تعنكبت ضفائرها ونام خشمها حتى استوى

---

(١٥) الصفارة وجبة خفيفة تسبق الإفطار الذي يسمى القروع. وتتعدد الوجبات في الجنوب حسب مهنة صاحب البيت، فإذا كان مزارعاً فهناك وجبة تسبق الغروب تسمى الهرشة.

بوجنتيها، وظلت سنونها البيضاء هي الوحيدة التي تشع في ذلك الوجه الأسود المائل إلى الطيبة. دخلت علينا وهي تحمل المطبق والمشبك وحلاوى تركي وكثيراً من الحلويات التي لا أعرفها، وخرجت وهي تبادلني النظرات وابتسامة خجلى مترددة.. ثم عادت تحمل القهوة، وتمتمت بلهجة مكسرة:

ـ سيدي سيكون بعد قليل معكما.

نهض مرافقي وغسل وجهه وهو يوصيني:

ـ هيا املأ بطنك الذي لا يمتلئ.

وقفت الخادمة الصغيرة على رأسينا، وتمتمت:

ـ سيدتي تريد أن تراك.

بقيت في مكاني أنظر لمرافقي فحفزني بعجل:

ـ إنهض.

فنهضت لتتناول الخادمة يدي، وتسير بي بعجل لداخل العشة الأخرى وقد اتسعت ابتسامتها. استقبلتني سيدة بيضاء ذات ضفائر مسترسلة فاحشة السواد، وقفت أمامها محتاراً، فضمتني لصدرها وكلماتها ترفرف بالتهليل:

ـ ما شاء الله تبارك الله.

ـ...............

ـ كم عمرك؟

ـ لا أعرف.

ـ ما رأيك أن تظل هنا؟

- . . . .

انتظرتُ لأن أستجيب لرغبتها، فلم أنطق بحرف. استثقلت هذا البرود، فمررت يدها على رأسي، وتمتمت:

- ليس لي ابن، ما رأيك أن تكون ابناً لي؟

- لا.. لا.

شعرت بها تتراجع فجأة، وتختفي ابتسامتها لردي الحاد والنافر، مدت يدها ودست ريالاً مجيدياً بجيبي، فتركتها في مكانها، وعدت راكضاً لمكان الضيافة.

كان صالح الحنوني قد استقر بجوار طاهر؛ نظر لوجهي متأملاً:

- ماذا بك؟

رددت بارتباك:

- السيدة التي بالداخل تريدني ابناً لها.

- هذا سعدك.

قال طاهر جملته تلك وخاطب مضيفنا الذي غض بصره:

- لا تجزع من رحمة الله.

تنهد بعمق:

- زوجتي لم تعد تطيق صبراً، فهي تريد ابناً بأي ثمن.

- سيأتي، وسوف تمل من الذرية.. ساعتها ستندم على هذه الحسرة وتتمنى لو أنك ظللت وحيداً.

- أنت تهون عليَّ عجزي، فقد مضى على زواجنا عشر سنوات

كما تعلم وليس هناك من أمل.

- قل يا رب.

- يا رب.

- إذا جاء صبياً سمه طاهر وإذا كانت بنتاً فهي طاهرة.

- أعدك.

نظر إليَّ طاهر مستخفاً:

- ألا تريد أن يتبناك صالح الحنوني؟.. كم أنت بائس!!

فتدخل صالح مترفقاً:

- دعه، لا تعنفه.

كنت أجلس صامتاً مستشعراً أنني أحدثت شرخاً عميقاً في نفسية الحنوني وزوجته، ومع ذلك ربضت في مكاني لا أعرف ما هي الخطوة القادمة، وإلى أين سأتجه، فقط أسير خلفه. فبعد أن تناولنا قروعنا وقف طاهر مستأذناً مضيفنا بالمغادرة والذي لم تفلح أيمانه من إبقائنا لليلة ثانية، وخرجنا بعد أن ترك حماري عنده.

سرنا إلى المطلع وحنين جديد يعتريني، فبعد أن ترك حماري وديعة أو هبة لصاحبه شعرت أنني غدوت أكثر وحدة وغربة، تجرأت وسألته:

- لماذا تركت حماري؟

وتراجعت عن كلمة حماري وكررت:

- لماذا تركت حمارنا؟

شابس في وجهي، وبتهكم مفرط خاطبني:

ـ وهل تريد أن تركب حمارك مع السائق أم خلفه؟

وقف أمام المنادين وسأل عن السيارة المتجهة إلى جدة فتخاطفته الأيدي، ووجدت نفسي أجاوره بصمت وحيرة ماذا أفعل؟

(لم يعد لي خيار. فهذا الرجل حولني إلى دابة أتبعه أينما ذهب، لم أكن قادراً على شيء سوى الإذعان لأوامره، هل أعود لقريتي؟ وكيف لي أن أعود وأنا الذي خرجت لأعود بقافلة محملة بالذهب، الرجال في قريتنا يرددون: الصبر هو الدابة الوحيدة التي توصلك لمبتغاك، ولو عدت سأكون محل سخرية الجميع، سيقولون: حن لصدر أمه، ومرافقة أخواته الصبايا، أو يختصرون كل سخريتهم بقولهم: «رابع خواته»(١٦). لا لن أتراجع ولا بد من الصبر، آآآه لو يترك مرافقي صراخه جانباً!).

أقلتنا سيارة متهالكة ذات أزيز مرتفع، وقد جلسنا خلف السائق مباشرة، ومرافقي يطفح وجهه بالضيق والتأفف ممن يجاورنا من الركاب، كان يردد:

ـ هؤلاء القرويون يصيبونك بالاشمئزاز.

كان يترفع عن الحديث معهم، ويرد بطرف لسانه لو سئل، أو تحدث أحدهم معه.

وتعرَّفت على اسمه كاملاً حين أملى على أحد الرجال الواقفين أمام السيارة اسمينا، كان اسمه طاهر محمد الوصابي. ومنذ ذلك اليوم

(١٦) رابع خواته: يعير بها الشخص إذا ظهرت عليه مظاهر الميوعة، أو تطلق لنفض التقاعس والتخاذل إذا أظهر تراجعاً عن أمر لا يقوم به إلا الرجال.

أصبح اسمي: يحيى طاهر محمد الوصابي.

كانت الشمس تأكل المدى بشراهة وتترك بقايا مضغها على الأفق أوصالاً من ألوان داكنة، تغرق الكون في وحشة. وثمة رياح كسولة تهب من الجنوب فتعبث بحاجياتنا البسيطة المستقرة على سطح تلك السيارة التي تمخر في أرض رخوة بلهاث وأزيز هادر قاطعة حقولاً مرهقة تجاهد لرفع نبتاتها للأعلى، وفي أحيان كثيرة تركض على طريق مجدبة تناثرت على جوانبها بيوت متهالكة أقامت أودها بأخشاب شاحبة متداعية.

جشع السائق جعل مقصورة السيارة أجساداً متلاصقة ومتراكبة لا تستطيع الجلوس باسترخاء مما ضاعف ضيق الركاب وتبرمهم بعضهم من بعض.

شعرت بدوار وغثيان يتمددان في ضلوعي ورغبة ملحة للاستفراغ. كنت أشعر بألم أسفل ظهري من تلك الجلسة التي لم تمكنني من الاسترخاء، وكلما تحركت السيارة ازداد دواري ورغبتي بقذف ما يموج بأحشائي، وبصوت واهن همست:

ـ أريد أن أقذف.

فأبدى أحد الركاب تعاطفه وناولني قشور ليمون كان يضعها على أنفه خوفاً مما أنا فيه، غرست خشمي في تلك القشور فتلاعبت نفسي، وسفحت ما في بطني فتراشق على المجاورين الذين أبدوا اشمئزازاً، فحضنني طاهر إلى صدره وهو يوصيني:

ـ نم.

كنت أتمنى أن يتوقف السائق لأشم الهواء النقي بدلاً من هذا الهواء الفاسد الذي يجوس في مقصورة السيارة. كان الوقت يمضي

ونحن نشق عتمة الليل في خط ترابي جاهدت سيارتنا وهي تعبره بتثاقل وأزيز مرتفع. وتمايلت أجسادنا مع اهتزازاتها وطقطقتها المرتفعة. كان دوار عنيف يعصف برأسي، فأستند على كتف طاهر وأحاول الهرب من تلك الصور السريعة التي تضج بمخيلتي، فتزيدني رهقاً.

ليل طويل قطعناه، وأفقنا على شمس حارقة بزغت لتجفف الحياة من تلك الخبوت الممتدة. أبدى السائق تذمره من أشعتها المسلطة على عينيه، فأمر مساعده بتبليل منشفة ووضعها على رأسه، فتسابق الركاب على تقليده فصاح بهم:

ـ لا تفرطوا بالماء على رؤوسكم الثقيلة.

أثارت كلمته بعض الركاب:

ـ وأنت لماذا لا تحافظ عليه؟.. ألا ترى أنك تفرط فيه أكثر منا؟

فصرخ باعتداد:

ـ أنا السائق، ولو سقطت فسوف تموتون جميعاً في هذا الخلاء.

رد عليه أحد الركاب بانفعال:

ـ أذكر الله وقل خيراً.

فتبادلوا الصراخ لبعض الوقت، وصمتوا فجأة حين توقفت بنا السيارة.

فأثناء الشجار كانت رقبة السائق تدور في وجوه من يبادلهم الشتائم فغرقت السيارة بين أمواج من الرمال الناعمة وظلت دواليبها تدور وتسفي الرمال في كل الاتجاهات، فارتمينا على جنبات الطريق

وواصل السائق سبابه مع الركاب مطالباً إياهم بانتشال السيارة من بين الرمال فطالبوه باسترجاع جزء من الأجر مقابل مساعدته في إخراجها من مكانها بعد أن اتهموه بالتسبب في ذلك، فاشتط غضباً وأقسم أن تبقى السيارة في مكانها لا يحركها أبداً، وامتدت مساحة هذا العناد فبقيتا لساعات طويلة تصلينا الشمس ونتلقى حبيبات الرمل الصغيرة التي كان يدفعها الهواء العابر. وتنازل الركاب عن مطالبهم وظلوا يسترضون السائق فتعنت وطالبهم بدفعها دون أن يحرك محركها.

وقفت الشمس على رؤوسنا، وكف من كان يحاول انتشال السيارة من مرقدتها عن محاولته، وتناثر المسافرون يستظلون بما يجدون من أشجار وهم يرجون السائق الإقلاع عن عناده. وتجرأ البعض بدلق الماء على رؤوسهم غير مكترثين بزجر السائق لفعلتهم. كان طاهر أكثر المسافرين سباباً للسائق وتوعده بأن يشكوه لشيخ السائقين فزاده هذا الوعيد صلفاً، وبلل إصبعه في فمه وأطلقها في وجه طاهر فاشتط غضباً وقفز للعراك، وقبل أن يصل إليه كان المسافرون يقفون بينهما.

كانت مدة التوقف كفيلة لأن أستعيد قليلاً من نشاطي حين بدأ المدى يبث نسائمه ويبسط ظله المديد. وتهيأت الخبوت المتسعة لاستقبال ليل بارد بهبوب ريح اختال كثيراً، فذكرني بهسهسته بين حقول قريتي.. عصف بي حنين لرؤية إخوتي وداهمتني رغبة ملحة نفذتها على عجل... تسللت بينما اجتمع المسافرون حول السيارة لانتشالها بعد أن تعاطف السائق مع من وقف معه ضد طاهر، تسللت وركضت في تلك البرية، كنت أرى الخلاء شبيهاً بخلاء قريتنا، وكمن يعرفه تماماً أوغلت فيه، وكلما مضيت تخيلت أن أجد أمي في آخر الطريق تنتظرني وتلويحتها لا تزال معلقة. كنت أراها وأرى إخوتي، والرعاة، والبئر التي نرد منها الماء. هناك كان ثمة

عصافير مهولة تقف على أغصان شجرة ذاوية. كانت مناقيرها صغيرة مدببة تصوص بتداخل وتتعرش ببعضها وتتناقم، وتتخاطف الفضاء وتعود لتقف على تلك الأغصان اليابسة. تلهيت بمنظرها وكثرتها وتمنيت لو أنني من بقية السرب أمد جناحي وأحلق صوب قريتنا. اقتربت منها، نفر من بينها طائر له لون مميز وحلقت خلفه بقية العصافير كسحابة مسافرة، تبتعد وتخفق أجنحتها في المدى. انتظرت أن يهبط طائر منها يؤنسني في وحدتي لكن أجنحتها حملتها بعيداً وغدا المكان موحشاً قفراً تعبره الريح مخباً لا يهز أغصان تلك الشجرة اليابسة.

وجدت نفسي وحيداً، فأخذت أركض في اتجاهات متعددة علني أصل إلى قريتي. ابتعدت عن كل شيء ووجدت نفسي نقطة ضئيلة بذلك الخلاء. استشعرت بالخوف، فعدت أركض بدون هدى، وكلما ركضت ركض معي الخلاء وتمدد، فأسمع ضحكة صاخبة تصلني من جهات متعددة، وأشباح تنبت من الخلاء وتتقدم نحوي مادة مناجلها لبطني. اعتراني رعب هالع فسقطت في ذلك الخلاء.

أفقت وأنا مسند على ذراعيه، كان وجهه صلباً قاسياً، وفكه الأسفل العريض متوتراً ومبدياً عروقاً عريضة جرى بها الدم والغضب. كان ينضح وجهي بالماء وحين أفقت صرخ بوجهي:

ـ بصبيانيتك جعلت ذلك الكلب يقتص مني بتركي في هذا الخلاء، وأنا أبحث عنك.

كان مغتاظاً يقضم أظفاره ويزأر كحيوان جريح:

ـ هذا الكلب يتركنا هنا، لو سلمني الله سأعرف كيف أجعله يندم.

نمنا ليلتنا بتلك البقعة النائية بعد أن أشبعني صفعاً حين بكيت

شاكياً الجوع. نمت وأنا أعتصر عصراً، وأفقت في الصباح أكثر ضرراً مما كنت عليه، أنهضني من وقت مبكر وهو يصيح:

ـ قم قبل أن تأكلنا الشمس هنا.

ـ أريد أن آكل.

كشف مدرعته فأبان صدراً فائراً، ومز حلمته متهكماً:

ـ لم يعد في صدري قطرة واحدة.

ـ: ....

أمسك بيدي، وخطواته تتباعد وهو يلوك الكلمات:

ـ لا بد أن نصل إلى أي قرية قبل حلول الظهيرة أو أن نموت هنا.

تذكرت جدتي، والشق الذي فتح لها بالأرض، والأيدي التي انهالت عليها بالتراب، وذلك الكفن المصفر الذي أخرجناه من خرج حمارها. كانت الكثبان الرملية تصنع حدبات كثيرة، تجاسرت وسألته:

ـ هل كل هذه الحدبات موتى؟

بصق في وجهي بضيق وخرج صوته حاداً:

ـ ما الذي حملني على ملازمتك؟

كان تهديده هذه المرة صارماً:

ـ إذا لم تسر بعجل تركتك هنا ومضيت لشأني.

تيبست حنجرتي وغدا لساني قطعة خشب يابسة. وكلما لاح السراب لعب بخاطري فأصيح به:

ـ أنظر هناك ماء.

فيجذبني من يدي ويحث الخطى باتجاه مغاير. كانت الشمس

تزحف على رأسينا، وقبل أن تغلبنا بلغنا مقهى يقف منكسراً على الخط يستقبل المسافرين والغرباء. هناك قذفنا بجسدينا على إحدى الأراك ونمنا كجثث توارت للتو في لحودها.

❀ ❀ ❀

كنت متحرقة لرؤية أمي، وسؤالها عن يحيى.

شوق يجري في أوردتي فأرف كعصفورة أجهدها الطيران وحنت لأن تبتلع الفضاء بجناحيها لتحط على شجرة تشقشق بتعب الرحلة المهلكة.

نحن مساكين حتى شوقنا مطعون بعجزه، فأيدينا تمسك بالهواء وحسراتنا تسيل من البال فتسد الجهات.. تغدو لهفتنا ألماً. الفاقة آفة تزحف لخاطرنا وتبتلع الشوق، الحب، الحنين، والجسد. وتتركنا نطبب بقاياها لتذوي لهفتنا ونتزوي لروحنا المعتمة نحصي آهاتنا.

فالشوق تحول إلى شوك وأزهر آهات متتابعة، شوقي العاصف ـ لأمي ـ تكدر صفوه بالاستعداد لمقدمها. فاستقبالها يتطلب أن أهيىء لها قعادتها وأعد لها ملابس وأولم لمقدمها. أمور عديدة لا تتحقق إلا بالمال، ولم يكن بحوزتي ما يغطي كل تلك النفقات، ضاقت الدنيا في عيني، كنت طوال الوقت أفكر:

ـ من أين يمكن أن أجلب نقوداً؟

تمنيت لو أنني لم أبع الحقل المتبقي.. تمنيت لو أنني كنت أدخر من النقود التي ترسلها خديجة، وتمنيت لو أن الغريب لا يزال يقف بين حقوله يحمل عني تعب هذه الحياة.. وآخر الأمنيات لو أنني لم أولد.

أمنيات كثيرة كنت خلالها ألوم نفسي لتفريطي في ساعات الرخاء، وكلما اقترب موعد عودة الحجاج شعرت بصدري يضيق، وتذمري يتناسل عن زفرات حارة أبددها في الهواء، فترتد لصدري وخزات ألم طاعنة. فكرت بالاقتراض وتراجعت، وحين ضاقت الدنيا سعيت لليلى عبدية فصدني ردها عن طرق أبواب أخرى:

ـ أنت تقترضين؟.. ليتنا مثلك.. أختك أغرقتك بالمال. أما نحن فمساكين.

تمنيت لو أن الأرض خسفت بي قبل أن يمتد لساني. كان لسانها يتمدّد وتستطيل سخريتها وغمزها ولمزها، تبعتني لآخر «القبل» وهي تمطرني بلسانها:

ـ جئت تقترضين أم تبعدين العين عنك.

كنت أسير أمامها وأنا أرجوها أن تنسى كل كلمة تفوهت بها إليها، فتمادت في رفع صوتها ونادت بجاراتها:

ـ اسمعوا مريم تتسلف!! تقول ليس عندها ما تستقبل به أمها، هل تصدقون هذا الكلام؟

أطلت رؤوس الجارات من فوق «الأسجف» وظلت ألسنتهن تتبعني:

ـ إذا مريم تتسلف فماذا نفعل نحن؟

وجدت نفسي أعود إليها ضاحكة:

ـ كنت أجربك يا مخبولة فالخير كثير والحمد لله.

فضحكت حتى باتت سنونها الأمامية المذهبة وخبطتني على كتفي:

- يخزيك من حرمة لم تجدي أحداً في القرية تجربيه إلا أنا.

واستدركت جملتها بعجل:

- «والله لو أقطع من جسمي ما أوفي جمايلك».

كان زوجها خارجاً من الدارة حاملاً مدرعته على ظهره والماء يتقطر من لحيته، رحب بي ترحيباً مبالغاً، فسبقته زوجته بذكر ما جئت من أجله وأطلقت ضحكة مصطنعة:

- لم تجد مريم أحداً تمازحه إلا أنا!!

فضحك ضحكة باردة قصيرة:

- لا شك أنها تحبك.

فحضنتني مرددة:

- يشهد عليَّ الله إني أحبك.

وخاطبت جاراتها اللاتي لا زلن مدليات رؤوسهن من فوق الأسجف:

- والله أنا صادقة فيما أقول!!

ارتفع صوت زوجها مستبشراً:

- نويت أمر عليك الليلة لتطلبي لي من أختك قرضاً.

وصمت متفحصاً وجهي. شجعته بوضع سبابتي على عيني:

- «من ذي العين قبل ذي».

فأردف متحسراً:

... قرضاً نصل به حصاد الموسم المقبل، فكما تعرفين الحقول

ميتة ونحن بحاجة لمال يحيي جدبها.

كانت رؤوس الجارات لا تزال في مكانها تطل علينا فرفعت صوتي:

- تشرب القهوة عندي الليلة ونكتب خطاباً لأختي لتقرضك ما تشاء، والله لو احتجت ما احتجت فلن تردك خديج، أصل بيتنا بيت الكرم.

ورمقت تلك الرؤوس المطلة ولم أقف على تبادل عيونهن لغمزاتها السريعة، عمقت بصري في محيا زوج ليلى ورأيت ابتسامته تتسع وتفور عن استبشار مفاجئ وهو يردد:

- في كل وقت أقول ليس مثلك امرأة.. اسألي ليلى.. هه يا ليلى؟

ففتحت فمها على اتساعه كمن فاجأها سؤاله وتداركت شرودها:

- والله قبل ما ينام وهو يذكرك بخير!!

وخرجت من عندهما وأنا أشتمهما في سري، وقررت تدبير حالي، وعقدت النية أن يكون استقبالها فاتراً إذا لم أقدر على تدبر حالي. وخامرتني أمنية (لو أن أحد أبنائي يموت ليكون هناك عذر للاستقبال الفاتر)، اتسعت الأمنية بداخلي (لو أن أحداً يموت، لو أن أحداً يموت، لو أن.....) الدنيا لا تمنحك ما تشتهي، حتى الموت ينأى وقت الاشتهاء. جلست أفكر فيما يمكن بيعه، تطلعت حولي، دجاج منتوف، حمارة تتشمم البول ولا تسير إلا بالذنب، غنمة يحيى، وكيس حب، وبيت مرهون في السر، وحقول طارت من أيدينا بالبيع المتواصل. لا شيء ذا قيمة، فلم أبق على شيء من حطام الدنيا الذي

كنت أمسك به. فمع كل ضائقة أبيع ما تصل إليه يدي. بعت أربعة بناجر في ختان يحيى، والغويشة مع مرض ليلى والخلخال والزمام وأربعة خواتم حين أصلحت عشتنا المتداعية، ورهنت البيت لأجد لأمي مالاً تحج به.

كانت حالتنا تضيق يوماً بعد يوم وتلتهم كل النقود التي تحط بأيدينا، ولولا ما تبعث به خديج من نقود وبعض الملبوسات لاحترقت من زمن مبكر.

كانت بعض جاراتي يعبرن قبلي، ويسلمن ويتركن عيونهن تبحث عمّا أعددت لعودة أمي، وبعضهن ينقعن في مسامعي ألسنتهن:

ليلى عبدية: يا مريم الحاجة محسنة على قدوم، تريد قعادتها مجبلة.

حفصة راجح: ألم تزيني عشة الحاجة يوسفية؟

عائشة عمر: حسك عينك أمك متسررة(١٧) وعليك أن تستقبليها بما يليق بهذه المناسبة.

صالحة حمدية: واه يا مريم. الحجيج على الأبواب وأنت لم تفعلي شيئاً لأمك.

كانت ألسنتهن تزيدني ضيقاً، ولم أستطع أن أسر لإحداهن بحاجتي، بعد أن أسمعتني ليلى عبدية تلك الكلمات التي تمنيت لو أن الأرض تخسف بي قبل سماعها، فهن يتقولن بأن أختي ترسل لي أكياس النقود، فأقوم بطمرها كي لا تصيبني عين الحسد. ويصرحن

---

(١٧) المتسررة هي التي تحج أول مرة، ويقال للرجل متسرر، وعادة ما يستقبل الحاج المتسرر استقبالاً حافلاً تطغى فيه البهرجة.

بهذا في أوقات كثيرة حتى أصبحت كلمتهن واحدة:

- بري بنفسك، فالقرش الذي يأتيك هو لك لن يشاركك فيه أحد.

في البدء كنت أثور وأتبادل معهن الشجار وأتهمهن بالتجسس، وعندما لم يجد نقع الخصام المثار بيننا صمتُّ، وارتضيت بغمزهن ولمزهن، واتهامي بالتقتير على نفسي وعلى أولادي.

كانت غنمة يحيى الصغيرة قد كبرت، وفي أوقات كثيرة تخطر بالبال، فأعزم على بيعها وأتراجع حين تلومني نفسي:

- حتى غنمته تريدين إخراجها من المكان الذي ألفت عليه.

وأظل في حيرة من أمري. تذكرت الدبلول الذي تبقى من ذهبي، ذلك الدبلول الذي لم ينفق بسبب وعد قطعته لحسينة بأن يكون هديتي لها في يوم زواجها. كنت أتخيله يكبر ويتنامى ويغطي جميع نفقات الاستعداد لمقدم أمي. سعدت كثيراً، وانطلقت إلى صحارقي، وأخرجته وانطلقت لبيعه دون أن تعيقني اعتراضات حسينة، وفي طريقي لبيع الدبلول وقفت في طريقي غنمة يحيى، فجررتها من حبلها المدلى من عنقها وأسلمتها لأول مشتر.

في عودتي للبيت كانت النقود في يدي، ويحيى يصرخ في مخيلتي:

- حتى غنمتي.. حتى غنمتي.

قذفت بالنقود لفاطمة وأمرتها أن تجهز كل ما نحتاجه لاستقبال جدتها، وبقيت استرضي يحيى في خاطري، وفي كل لحظة يطل من رموشي وبصوت مكسور يحرق لوعتي:

ـ حتى غنمتي.

فأظل أبكي بحرقة، وكلما تناسيت عاد من جديد أكثر انكساراً وشجناً.

كرت الأيام سريعة متلاحقة، وأنا لم أتم عملي. وبعجلة غزلت لأمي ثوباً جديداً وصبغته بلون برتقالي واختطت لها سديرية مقلمة، وملأت مكحلتها بكحل، وحبلت قعادتها وزينت كربها برون ودفعت بربع ريال للريس[18] ياقوت لكي يبشرني بمقدمها.

فخرج من الصباح الباكر يعترض القوافل القادمة من الطريق الشمالي. كان أبنائي يحلمون بالهدايا التي ستجلبها جدتهم معها من الحجاز. وقد بادرت ليلى بقطع ملابسها البالية وأقسمت أن تظل متجردة حتى وصول جدتها. ولم أغضب من فعلتها فسترتها بقطعة قماش لبصت أهملتها في صحارتي إلى ذلك الحين، وكنت أنوي جعلها لباساً لمخدة قطنية نجدتها لأمي وحشوتها بقطن من قطف العام الماضي، لكن لون تلك القطعة لم يكن مناسباً للاحتفال الذي ننتظره.

كنا جميعاً نترقب وصول كسوة تستر أجسادنا التي بانت من خلال تلك الهتر البالية.

تغيب ياقوت بالربع الريال ولم يظهر، وجاءني جوهر صائحاً:

ـ.. البشارة لي يا أم يحيى، وصل الحجيج.. وصل الحجيج.

---

(١٨) الريس: لقب يطلق على الخدم وأصحاب المهن الوضيعة، وغالباً ما يكونون عبيداً ـ وبعد أن تم تحريرهم ـ ظلوا في خدمة أهل القرية مقابل أداء مهمات توكل إليهم، وغالباً ما يشتغلون في تطهير الأولاد والجزارة أو الحلاقة أو التطبيل وإقامة الأفراح، ولهم أسماء لا تطلق على سواهم.

نهضت بعجل وأنا أردد:

ـ فعلاً وصلوا.

ـ أول قافلة دخلت القرية قبل قليل.

وبتلهف استحثيته: هل رأيت أمي معهم؟

فهز رأسه نافياً، فخبطته على كتفه ضاحكة: وعلى ماذا تطالب بالبشارة.

ـ بوصول الحجيج.

ـ لقد أعطيت ياقوت ربع ريال على أن يبشرني بمقدم أمي لا بالحجيج، لكن الكلب لم يظهر إلى الآن.

تعتع جوهر بكلمات مقتضبة:

ـ سيدي الحسن بن علي أرسله للمدينة.

ـ ألم يرسله إلا اليوم؟.. حسبي الله ونعم الوكيل.

والتقطت شيظري[19] وركضت لمشارف القرية بينما كان جوهر يتبعني ولسانه يعترك بعجمة مكسرة:

ـ أنا أحق من ياقوت بالبشارة.

وقفت على مشارف القرية ردحاً طويلاً وكل قافلة تقدم تكون خالية من وجه أمي. ظللت يومياً أخرج لاستقبال الحجيج دون أن أجد جواباً لسؤالي المتكرر:

---

(١٩) الشيظر: هو رداء المرأة الذي تلبسه عند خروجها، وهو عبارة عن ثلاث قطع سوداء.

ـ أمي معكم؟

في آخر النهار قدمت قافلة كانت تقل محمد هادي الذي أطلق الخبر صاعقاً:

ـ لقد ماتت العجوز محسنة في الطريق.

فشعرت أن الأرض تميد بي، وأنني على وشك أن أغادر الدنيا، فسقطت بين تلك الرمال وتجمع أهل القرية وحملوني للبيت.

عندما أفقت كنت أهذي:

ـ هل مات يحيى؟.. مات.. يحيى مات.

وخرجت أسأل كل الحجيج الذين خرجوا من قريتنا للسؤال عنه. كانت إجاباتهم مفككة ولم أستطع الوقوف على خبر ابني. أقوال وأقوال تفتح طرقاً متشعبة من الاحتمالات، قالوا:

محمد هادي: كنا نسير في حالة لا يعلم بها إلا الله، فقد انقطعت زوادتنا وقل ماؤنا، وتعبت دوابنا، وتدافعتنا الرياح من كل صوب. ظن الجميع أننا هالكون، فتشهدنا ومضينا، وفي أحد الصباحات سقطت أمك من على دابتها، ووقفنا عليها ميتة، فدفناها وواصلنا السير، وكان يحيى معنا إلى أن وصلنا جيزان.. وهناك تفرقت القافلة، وعندما واصلنا سيرنا لم يكن ابنك معنا، وكنت أظن أنه عاد مع دليل الرحلة.

عبده حسين: بعد أن وصلنا جيزان وقفنا لبيع دوابنا والتزود بثمنها في رحلتنا، ورأيت الجبلي يمسك به في المجلاب، وبعدها تعاركا مع نفر من أهل جيزان، ولا أدري أين اختفيا.

موسى بكر: بعد أن دفنا العجوز محسنة انشقت القافلة إلى

قافلتين ولا أعرف مع من ذهب يحيى، وكنت أتوقع أن نلتقي بجيزان لكن ذلك لم يحدث. فقد أدركنا الوقت وانطلقنا مسرعين لمكة.

صابر الرديني: لقد حمله ابن عمك حمد وواصلا السير مع قافلة أخرى.

فاطمة ابراهيمية: طلبت من زوجي أن يتنبه له لكننا تركنا القافلة لتباطئها، ولا أعرف ماذا حدث له.

هادي جعفر: تكفل به أحد الجبالية. فقد انضمّ إلى قافلتنا وعندما رآه صغيراً حمله معه وتعهد برعايته.

صالحة محمدية: آخر مرة رأيته في جيزان وكان يجلس في المجلاب مع ذلك الجبلي.

جبريل بن عمر: ابن عمك حمد رجل فسل تركهما وذهب مع أحد الحجاج من أهل اليمن ورفض أن يبقى معهما. وبعد موت العجوز محسنة بقي ابنك على دابته في صحبتنا لكننا تفرقنا في جيزان ولم نعثر عليه، فقد اختفى هو وذلك الجبلي.

ميمون عبد الحوازمة: ابنك طاوع ذلك الجبلي، ورأيت عسكراً في جيزان يمسكان بهما ويدخلانهما الحبس، وأنا غريب خفت إن سألت عنهما أحبس معهما.

إبراهيم بن علي: أو تصدقين العبد الميمون؟.. لا.. لا، يحيى لم يسجن، كل ما في الأمر أن الجبلي تشاجر مع أحد الجوازنة، ثم حمل ابنك واختفى، ولم أرهما في كل السيارات التي انتقلت ذلك النهار. ربما سافرا في اليوم التالي، خاصة وأن الجبلي قال انه متّجه إلى جدة.

عوش عيسى بكيري: كنت ضمن القافلة التي انشقت عن قافلتنا التي خرجت من القرية، وعندما وصلنا إلى جدة سمعت بوصولي أختك خديج فجاءتني، كانت متلهفة للسؤال عنك، وعندما أبديت دهشتي وأخبرتها أن العجوز يوسفية كانت ضمن قافلة الحجيج عادت تسأل عنها. وبعد أن أنهينا الحج جاءت إليّ تخبرني أن الحاجة محسنة لم تصل، ولم أحتط لتشاؤمها فسردت عليها حلم أمك الذي حدثِتني عنه حين وقفت وبيدها رمانة، ساعتها بكت خديج وضربت صدرها، وقبل أن أغادر جدة «ذمتني» أن أسلمك هذه الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي الغالية مريم خالدية

حفظك الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بعد السؤال عن الأحوال، الحمد الله نعيش في رغد بفضل الله ولم يعكر صفونا سوى الأخبار التي تناقلها الحجاج، فقد بلغنا أن الوالدة محسنة بنت يوسف خرجت للحج هي وابننا يحيى الغريب، وقد انتظرنا قدومهما لأيام طويلة، وخرج إبراهيم وحسن للمواقف للبحث عنهما وعندما لم يصلنا خبرهما قلنا ربما اتجها إلى مكة ومن ثم يعودان إلينا ولكن لا خبر ولا مخبر، وخشيت أن يكون قد أصابهما مكروه، فأرسلت أولادي إلى المواقف وإلى تجمعات الحجيج والمستشفى وكل مكان يمكن أن يكون لهما فيه أثر فلم نجدهما، وأصبت بالكرب والخوف ولم يوقف هذا الخوف إلا أخبار بعض الحجيج من أنهما عادا إلى البلد بعد فوات الحج عليهما قبل أن يصلا إلى مكة.

أختي الغالية:

أول ما يصلك جوابنا خبرينا ماذا حدث، وأرسلي لنا مكتوباً مع أول متوجه إلينا، الله الله بالمرسول ولا تتركينا في غمنا وكربنا.

وسلامي على جميع من يسأل عنا، وتصلك وصية مع عوش بنت البكيري ثلاث كرت، وخمس مصار ومضرب عطر، وصنبرا ومنظار وستة ريال فرانسة.

مريم: أنا مكروبة من الحلم الذي روته لي عوش بنت البكيري، لا تنسي تطمئنينا على الأم محسنة والولد يحيى. نحن ننتظر جوابكم على أحر من الجمر.

المرسلة أختك خديج

حرر في تاريخ ٢٣ ـ ١ ـ ١٣٧٤

كنت أخرج من كل هذه الأخبار السوداء وأمني نفسي بخبر آخر. كنت أنتظر عودة حمد عسى أن يكون معه خبر مختلف، وتعلقت بهذا الأمل، وكلما مضى الوقت شعرت بأعماقي تمور وتتجشأ حرقتها وحريقها.

كنت في العزاء أتقبل كثيراً من الأخبار غير المجدية، أخبار تلتهم يحيى وتغيبه، وانشغلت بتقبل العزاء في أمي، أجلس مع المعزين وقلبي يكاد يطير لهفة على ابني، فأنا لا أعرف في أي أرض هو.

بعد الحج يقل المسافرون إلى الشام، وكنت يومياً أسأل عن المسافرين لأرسل برسالة لخديج، فقد طلبت من إسماعيل خطيب المسجد أن يكتب لي خطاباً، وبعد أن أنهاه طالبته مراراً أن يعيد قراءته،

فكان في كل مرة يستجيب لطلبي ويعيد قراءته بصوت مفخم:

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي الحبيبة خديج خالدية

سلمك الله من كل أذى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدنيا فانية لا يبقى عليها إلا وجه الله الأعز الأكرم، ونبلغك بعزائنا في أمك محسنة بنت محمد بن عبد الله بن يوسف والتي قضت نحبها وهي متجهة إلى أطهر بقعة على الأرض، ونبلغك عزاءنا وعزاء أهل القرية في الوالدة جعلها الله من معاتيقه وأدخلها جناته، وأن يصبغ عليكم الصبر والسلوان إنه على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولا أعرف كيف ماتت، وقد تناقل الحجيج أنها سقطت من دابتها فجأة بعد أن زادت لهفتها في طلب الماء، وتقول عائشة حداداة إنها أحست بجلدها يشتعل كالجمر عندما سقتها آخر مرة، وإن الابن يحيى كان يطلب لها الماء في كل حين ولم يتنبهوا لها لأنهم كانوا يمرون بمحنة عظيمة، فسقطت من على الدابة ودفنوها في الطريق.

والحمد الله لم ينقصها شيء فقد حملت كفنها وغسلها معها، والذي أحزنني أنهم لم يغسلوها، ودفنوها كما ماتت، فقد قالت زينب حسين أن أمير القافلة قال لهم:

ـ الحاج شهيد يدفن على هيئته.

وأدعو الله لها بالمغفرة وأن يسكنها فسيح جناته، وإنا لله وإنا إليه لراجعون.

خديج:

ونبلغك بأن الابن يحيى كان مياسراً لجدته في رحلة الحج، لكنه

فقد في الطريق ولا نعرف في أي أرض هو، وأنا أقضي الليل أبكي وأدعو الله أن يسلمه من كل مكروه، ولا أعرف ماذا أصنع، ويقول كثير من الركبان أنه كان بصحبة رجل جبلي انضم إلى القافلة وحمله معه، وأنا خائفة على ولدي، فكما تعرفين الولد ربنا زينه وملحه وكل خوفي أن يلعبوا به في الطريق، أسألك بالله وعزته وجلاله أن تبحثي عنه في جدة أو في مكة وتردي لنا خبراً سريعاً فكبدي مجروح وعيناي تهلان بالدمع وأنا حرمة مقصوصة الجناح ولا أعرف ماذا أصنع. بربك تعجلي بالخبر.

خديج:

اسألي عنه، الله يخليك، ولكي أقرب عليك فهو ابن ثلاث عشر، أبيض البشرة سبط الشعر، له خشم كسلة السيف وجبين صغير، يميل للطول، عيناه دعجاوان، ويده اليسرى بها جرح عريض.

يمكن أن تساعدك هذه الأوصاف في السؤال عنه.. الله الله يا خديج لا أوصيك في البحث عنه، الله يجبر خاطرك.

وأخبرك أننا استلمنا الوصية من عوش بنت البكيري كاملة غير منقوصة، وفي الختام سلامي على أولادك وعلى نفسك خاصة وربنا يحفظكم من كل مكروه.

أختك مريم خالدية

حرر بتاريخ ٢٦ ـ ٤ ـ ١٣٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخت المحترمة مريم خالدية

سلمك الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)، بنفس محتسبة تلقينا خبر أمنا الغالية محسنة بنت محمد بن عبد الله بن يوسف ولا يسعنا سوى القول (إنا لله وإنا إليه لراجعون) وتقبلي عزائي وعزاء أبنائي في الغالية، وقد حزنت كثيراً لموتها قبل أن أراها، وزاد لهفي وجزعي حين قرأنا مكتوبكم. وعلمنا أن الابن يحيى تاه وقد خرج أبنائي للبحث عنه، ولكن أين نبحث، فجدة كبيرة وبها من كل جنس ولون، والباحث فيها كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، لكننا لم نيأس فعسى أن يأتينا خبر، فهو بلا شك يبحث عنا، وقد زكنا على من يعرفنا بهذا وعسى الله يجمع شملنا بعد تفرق.

أختي أم يحيى: أنا انقبض صدري من زمان، من اليوم الذي خبرتني فيه عوش بكيري عن حلم الوالدة محسنة ـ الله يرحمها ـ فقد قالت ان الوالدة حلمت إنها خرجت في الطريق لزيارتي وتراني في آخر الطريق وأنا لابسة أبيض في أبيض وفي يدها رمانة نفسها تعطيني تلك الرمانة وكلما قربت بعدت وقبل أن تصل تناثرت حبات الرمانة ونقمتها دجاجة قوقبية.

هذا الحلم كنت دائماً أفكر فيه وأنا خائفة منه، وها هو يتحقق، وينقمها الموت ويتركنا حبات رمان مبعثرة.

مريم:

خبريني بكل ما يصلك عن يحيى ونحن بدورنا نبحث عنه وسوف نخبرك، وندعو الله أن يحفظه في غربته، وسوف نعلمك بكل ما يحدث.

ما في يدي إلا الدعاء أن يجبر الله خاطرك بحق هذا الشهر

الكريم ويعيد غاليك يحيى، ويجمعنا عن قريب إنه سميع مجيب. وفي الختام يبلغك السلام حسن وإبراهيم وسلمي لنا على كل من يعزك صغيراً وكبيراً، ويصلك مع حامل الجواب ريالان فرانسة وأربع كرت وبدلة ليوسف كسوة العيد، والسلام ختام.

أختك خديج

حرر في تاريخ ٢٧ ـ ٧ ـ ١٣٧٤

قرأ محمد عبد الله خطاب خديج، وأنا استمع إليه دامعة، وكلما انتهى استعدته، وصحت بأعلى صوتي:

ـ يحيى مات.. مات يحيى.

وأخذت أصيح، فتجمع على رأسي ليلى وفاطمة ويوسف وحسينة، وأخذنا ننوح على الغالي الذي سلمته بيدي للضياع والموت.

كنت فقط أنتظر عودة حمد عسى أن يكون معه.

ليال طويلة من الألم والحزن كنت أصرفها بالبكاء والدعاء ولم يعد معي سوى الوقوف على مشارف القرية أتلقى العائدين من الأسفار والمتسوقين عل أحدهم يخبرني بخبره.

كنت أراه يوماً يقف في حلمي منكسراً ومعاتباً:

ـ قذفتِ بي للغربة ولن أعود إليك.

فأستيقظ من حلمي مبللة المحاجر، وحلقي خلاء مجدب يستعصي أن يردد صراخي، فأجد فاطمة تقف على رأسي، وتناولني شربة الماء لأعب منها ويظل حلقي جافاً كقطعة خشب ناشفة.

الفصل الرابع

مقهى وقرية بائسة استقرا بجوف هذا الخلاء الصامت.

مقهى قذف في الفلاة يقف على خاصرة طريق عبدته السيارات العابرة وبقيت فجواته تضحك في أماكن متعددة وهي تلتهم دواليب السيارات المجهدة.

مقهى، نقطة تضج بالحياة في مكان موحش، ترك أمامه وخلفه مساحات من الخبوت النائمة على أحلام شجيراتها الصغيرة ذات الأزهار العنقودية الزاهية، ومن بعيد أطلت تلك القرية البائسة التي تتلحف بالخلاء وتغلق عينيها عن القادمين من الطرق البعيدة.

مقهى يضج بالغرباء ينزلون به ويغادرونه دون أن يترك في نفوسهم حسرة على فراقه.

فرشت أرضيته بالحصى، وتناثرت كراسيه ـ المتراخية الحبال ـ على مساحات كبيرة، مقهى ككل المقاهي التي تقف على الخطوط الطويلة به: نار، دخان، شيش مختلفة الأحجام، أكياس فحم، شاي تفوح منه روائح النعناع والحبق، طعام، عيون معلقة بالمدى، أصوات تتبادل كلمات عجلى مستترة، وسيارات تنتظر تلك الوجوه المغلقة لتزفها للمجهول.

ولا شيء ـ هنا ـ غير الغرباء.

تنبهت لنفسي فإذا أنا أرقد على سرير رث، وبجواري نام طاهر قرير العين، وثمة جوع يعصف بمعدتي، وأصوات تقطم الكلمات، ومسافرون يتهيأون للنزول وآخرون للسفر، والنادلون يتراكضون تلبية لطلبات القادمين، ووجوههم تفيض بابتسامة تتكسر في أحيان كثيرة. استويت في جلستي:

ـ هل أوقظه؟!

دائماً يكرر «بطنك بئر لا تمتلئ»، أحس بأمعائي تهوي لقاع بطني وتتقلص متكورة على هيئة حجر يندفع مفجراً تجويفات معدتي و«تخرخر» بطني مفرغة شحنات ألم عصف بِقاعِها واستكان للحظات ليعاود محاولة فض جدران معدتي بعد حين.

كنت أتوق لأن ألوك أي شيء، أي شيء حتى ولو كان ورقاً من تلك الشجيرات القليلة التي تناثرت حول المقهى، تبادلت النظرات مع أحد النادلين، فاقترب مني:

ـ هل تريد إفطاراً؟

احترت، وظلت عيناي معلقتين بوجهه الكاحل السمرة، ترددي جعله يأفل من أمامي راكضاً لتلبية طلب أحد المسافرين الذي كان يستحثه بإحضار فطور بصراخ متعال.

طاهر لا يزال نائماً تتردد أنفاسه ببطء وقد حافظت إحدى عينيه على نصف إغماضة، وارتوى جسده بنوم عميق، وعندما لم أعد قادراً على تحمل أعاصير الجوع، هززته، فنهض مرتبكاً:

ـ ماذا حدث؟

تطلع حوله فهدأ، وحاول أن يعود للنوم، تمتمت:

ـ أشعر بالجوع.

لم أتوقع رده:

ـ أنا أكثر جوعاً منك. ناد على النادل واطلب ما تشاء.

كان إفطاراً دسماً بقي عالقاً في ذاكرتي لوقت طويل. تناول طاهر كأس الشاي ودندن بكلمات عشق قديمة، وتساءل عن المقهى وصاحبه، وعاد لمؤانستي. قدم كثيراً من الكلمات المؤنسة وبعد كأسه الثانية مسح شاربه، ونظر في عيني:

ـ لكي نصل لجدة نحتاج إلى نقود، وعليك من الآن أن توفر لقمتك بنفسك.

لسعني، فرددت على عجل:

ـ ونقودي التي معي.

ـ وهل تظنها تلد، ألم تأكل وتتنقل وتنم؟.. أم تظن أن من يقدم لك الأكل والشراب يقدمهما من أجل عينيك.

ـ سأعمل عندما أصل لخالتي.

ـ وهل تظن أنني سأحملك على ظهري طوال هذا الوقت؟

كنت أود أن أقول له أشياء كثيرة لكنني خشيت منه، فقد لمحت ملامحه متعكرة تنتح بالزفرات، فانقدت لأمره، سحبني من على الكرسي الذي أجلس عليه، وتقدم لصاحب المقهى:

ـ هذا ابني وأريده أن يعمل لديك.

نظر إليّ صاحب المقهى بالتفاتة مشجعة:

ـ هل تعرف في أمور المقهى؟

فرد عليه طاهر بعجل وابتسامة واسعة:

ـ يتعلم.

ـ حسناً، لتبدأ في تقديم الطلبات.

تنحنح طاهر وهو يدور حول كرسي صاحب المقهى وابتسامته تتسع. تناول كرسياً مجاوراً وجلس في مواجهته:

ـ لي طلب بسيط.

ـ ما هو؟

ـ أن تسلمني أجرته، فأنت تعلم أن الصبيان يفرطون بما في أيديهم.

ـ وماذا يضر الابن وماله ملك أبيه.

ومد يده، وتناول أجري لمدة أسبوع مقدماً، ومضى إلى حيث لا أعلم، وهو يوصيني:

ـ كن رجلاً.

كنت أعمل بالمقهى، أتحرك كنحلة لا تمل من العمل، أخدم زبائن المقهى وأغلبهم من المسافرين. وفي ذهابي وإيابي يقفز ببالي قول أبي:

ـ الأجير يظل خادماً طوال حياته.

كنت أشعر بلسع حاد حين أسمع رواد المقهى ينادون عليَّ بألفاظ مشينة تقل من قدري داخل نفسي، فأمعن في تجاهلهم، وفي أحيان كثيرة أذعن لطلباتهم حين يقترب مني صاحب المقهى، ويعلق أذني بيديه.

تعلمت أموراً عديدة بداخل المقهى وبدأت أحترز، بدأت أتعلم كيف أحافظ على نفسي، لم أكن لأنام قرير العين، ولا أستجيب لدعوات تبعدني عن عيون الناس.

بعد أسبوع عاد طاهر وحملني لأبيت معه في عشة استأجرها على أطراف القرية وأقسم أنه استأجرها من خالص ماله، وأقسم أن نقودي لن يمسسها وأنه سيجمعها لي لأعود لأمي دافعاً أمامي القوافل المحملة بالذهب.

كنت أفيق من نومي فلا أجده، يخرج من الصباح الباكر ونلتقي في المساء حين يعود لاصطحابي للنوم، أسلم جسدي وهو لا يزال يترنم بأغنيات دفينة، وفي ليال عدة كنت أسمع نشيجه وهو يهتز على سريره، ليلة واحدة سمعته يردد:

ـ لم أعد أصلح لشيء!!

❁ ❁ ❁

أصبت بالذعر.

رجل غليظ الملامح، شحيح الابتسام، ذو هيئة رثة يجر ثلاثة أطفال يصغرونني بقليل قيدوا في سلسلة واحدة. كانوا يبكون، أسرني منظرهم وشعرت بالكراهية لذلك الرجل الذي يقودهم كما تقاد النعاج.

دخل للمقهى، وأناخ بجسده على المقعد، وأخرج صوتاً حاداً غليظاً:

ـ قهوجي.

انطلقت صوبه، وأنا أنظر لأولئك الصبية بإشفاق:

ـ أريد عشاء وتعميرة.

كانت عيناي معلقتين بأولئك الصبية وراعني منظر الدماء العالقة بثيابهم (أيكون أحدهم مجروحاً، وإن كان كذلك فلا يمكن أن تتلطخ ثيابهم بهذه الصورة، ما سر هذه الدماء).

كنت لا أزال أتطلع إليهم فنهرني بجفوة:

ـ ألم تسمع؟

جفلت لصوته الحاد وملامحه النارية وترددت قبل أن أسأله:

ـ هؤلاء أبناؤك؟

ـ . . . .

ـ ماذا فعلوا؟

ـ . . . .

ـ من أين كل هذا الدم العالق بثيابهم؟

ـ . . . .

ـ كان صامتاً يذود عبوسه ويهش ذباباً كثيفاً تطاير وحط على الطاولة التي تجاوره.

ـ لماذا تقودهم كالمساجين؟

صرخ محتداً:

ـ هذا لا يعنيك اذهب واحضر ما أمرتك به.

اقتربت ماسحاً طاولته:

ـ لا أحد يغضب من أبنائه في السفر، وإن غضب لا يفعل بهم كما تفعل.

ـ . . . .

ـ إغفر لهم فهم. . .

وقبل أن أكمل توسلاتي بإطلاق سراحهم، زجرني بغلظة:

ـ إذا لم تذهب سلسلتك معهم.

جاءني نادل يكبرني ودفعني أمامه:

ـ أتريد أن تصبح عبداً؟

ـ عبد، لماذا؟

ـ هذا الرجل يقوم بسرقة الأطفال ويبيعهم في أسواق العبيد.

ـ لكنهم بيض.

ضحك النادل بعمق وأردف:

ـ وهل تظن أن العبيد فقط هم أصحاب البشرة السوداء، هؤلاء الناس يبيعون أي شيء حتى ولو كنت ابن من. . .

شعرت بالخوف، وعدت لداخل المقهى لا أتحرك، وعندما مد لي صاحب المقهى بعشاء ذلك الرجل لأوصله رجوته بتوسل أن يعفيني فصاح:

ـ أبوك لا يعفيني من دفع أجرك.

وغرس الصحن بصدري وأكمل صراخه:

ـ هيا أنجز عملك.

حملت الصحن، كانت يداي ترتعشان فاندلق الإدام على الرز في باطن الصحن، وعندما وصلته كانت شتائمه تلتصق بمسامع أولئك

الصبية، قذفت بعشائه على الطاولة وعدت أركض، وأثناء تلبية الطلبات كانت عيناي مسمرتين عليه، وهو يزدرد الأكل بينما ظل الأطفال يرمقونه ولعابهم يسيل وعيونهم تصعد وتهبط مع يده، وعندما انتهى تناول الشيشة وأخذ يتجشأ بصوت مسموع بينما انكفأ الأطفال على فضلته لحساً وقرمشة كالقطط المشردة وهم يغالبون القيد.

أنهى تعميرته، وطلب كرسياً للنوم، وقام بربط السلسلة بفرجات الكرسي وثبتها وأغلق دائرتها بقفل كبير صدئ، وأخذ يسابق الصباح بشخير مرتفع.

(ما الذي يمكن أن يحدث لو أنني أطلقت سراحهم؟)

وقف بوجهه الغليظ على فعلتي وشد رقبتي للأعلى فتعلقت كثوب بال. أحسست برذاذ زبده يعلق بوجنتي ويسد على ترقوتي بقوة وصلابة، وعندما استعصت عليه أطبق بالقيد عليها، غاص فؤادي للأسفل وتعالى وجيبه حين تخيلته يقودني من رقبتي بسلسلة قصيرة.

(هل سيحدث هذا لو قمت بإطلاق سراحهم؟)

كنت أوسوس وأتدبر طريقة تمكنني من إطلاق سراحهم دون أن أوقظه، وكلما أقدمت تراجعت وتخيلت رقبتي تعصر بين يديه، وأحياناً ألمحها معلقة بتلك السلسلة القصيرة. وبعد تردد طويل قررت فك أسرهم وليكن ما يكون.. تحركت نحو أولئك الصبية، مستعيناً على كشف الظلمة بكشاف صغير، رأيتهم كالقطط الضالة، يستدفئون ببعضهم. نائمون بصورة سيئة، فقصر السلسلة لا يمكنهم من النوم على ظهورهم فتكوموا فوق بعضهم وقد تلبدت دموعهم على عيونهم. فضحت تلك الملابس المقطعة هزالهم، وعلقت الدماء بثيابهم في أماكن متفرقة، حاولت فك قيدهم بيدي فلم أتمكن. وعندما أحسوا

بمحاولاتي أفاقوا، واستحثوني بفرح.. كنت أحمل مدية رهيفة الحد ركزت سنها بذلك القفل وسحبتها بقوة فمرقت بيد أحدهم ليصرخ متألماً ويفور دمه بتدفق فاستيقظ على صراخه ذلك الرجل وأمسك بياقة ثوبي صائحاً:

ـ والله لأحملنك معهم.

وشدني من معصمي فارداً تلك السلسلة ومحاولاً وضع القيد في معصمي، شعرت بالخوف ولمحت رقبتي معلقة بين يديه صحت بكل ما أستطيع، ليأتي لنجدتي كل من كان بالمقهى. أحاط به زملائي، ووقعت مشادة كان خلالها ذلك الرجل يصيح بانفعال:

ـ هذا الصبي أراد أن يهرب عبيدي ومن حقي أن أقتص منه.

وبعد مجادلة وتدافع بالأيدي رضخ وعتقني، شعرت بالقوة والتحدي. فركضت لداخل المقهى وعدت أحمل البن وأكبس جرح الصبي الذي مرقت على يده شفرتي. كنت أضع البن وبصري معلق بذلك الوجه الجامد وهو يرمقني بغيظ وتهديد مر يندلق من بين شفتيه المتشققتين:

ـ والله إذا لم تلتزم حدودك لأجعلنك تندم بقية حياتك.

أهملت تهديداته وانشغلت بتطبيب الصبي. كان وجهه مستديراً، وعيناه سوداوين وكبيرتين، وفمه عريضاً ترتفع شفتاه قليلاً عن ناب ركب على أخيه فظهر ملائماً لذلك الفم العريض. كان يبعد بيده الأخرى القيد كي لا يمس الجرح بينما ظل صديقاه يتطلعان إليه بإشفاق، تمتمت برجاء:

ـ لو سمحت ضع قيده في اليد الأخرى.

ـ يبدو أنك تحن لوضع يدك مكانه.

فركضت من أمام عينيه، وعدت لداخل المقهى مؤملاً أن أفك قيدهم في الليلة التالية.

جاء طاهر قبل منتصف الليل وسحبني من يدي وعاد بي إلى تلك العشة التي قطناها منذ أن حللنا بهذه القرية، التي توازي المقهى وتموت داخل أعشاشها بصمت. أخبرته خبر أولئك الصغار فأمسك بأذني مؤنباً:

ـ ألم أقل لك لا تتدخل فيما لا يعنيك، أم أنك تريد أن تصبح عبداً تباع في الأسواق.

في اليوم التالي استيقظت مبكراً ورغبة ملحة تساورني وأهجس:

ـ الليلة سأطلق سراحهم.

وعندما وصلت إلى المقهى، كانوا يقفون استعداداً للرحيل، تبادلنا النظرات المنكسرة ومضوا خلف ذلك التاجر الذي رمقني بنصف التفاتة، فعادت صورة رقبتي المعلقة بين يديه كثوب بال لأركض لداخل المقهى، بينما كان أولئك الأطفال يتابعونني ببصرهم الذاوي.

⊛ ⊛ ⊛

حرص طاهر على ألاّ أحمل نقوداً في يدي أبداً.

كان يتنقل بي من بلد إلى بلد، وفي كل مدينة وقرية يجبرني على العمل، ويتقاضى أجري بنفسه، يوصلني لرب العمل ويوشوش له في أذنه ويمضي بعد أن يتناول نقوداً، وأظل أعمل لوقت طويل، وحين أعود إليه أجده مسترخياً كما تركته. ثرت في إحدى المرات واتهمته:

ـ أنت تستغلني وتتقاضى أجري دون أن تعمل.

نهض من رقدته، وصفعني على وجهي:

ـ عليك أن تحترم أباك.

فصحت بعناد:

ـ أوَ صدقت؟

وأحسست بحاجة لأن أصرخ وبكل قوة صحت:

ـ لست أبي وأنت تعرف ذلك.

لان بعض الشيء ونهض ليحاورني بصوت يرققه كلما أراد إقناعي محاولاً تعميقه وتفخيمه:

ـ في الغربة إذا لم يكن لديك أب عليك أن تبحث لك عن أب بديل، وأنا أبوك هنا والمسؤول عنك حتى عودتك لأهلك.

ـ أنا أريد أن أعود.

ـ وأنا مثلك أود أن أعود لزوجي وبنتي، ولكننا محتاجان للمال لكي نعود، أو أنك تود العودة ماشياً خالي اليدين وتتسبب في حسرة أمك التي أخرجتك لتعود بالمال.

ـ لم أعد محتاجاً للنقود. فقط أريد أن أعود.

ـ لا أقدر على تركك تعود بمفردك فربما اختطفك أحد وباعك.

انتفضت وشعرت برهبة تسري في أطرافي، ووقفت صورة أولئك الصبية المقادين بسلسلة واحدة في مخيلتي، وعادت رقبتي تتدلى من تلك السلسلة القصيرة، لكن رغبة العناد نمت بداخلي:

ـ أنا أعمل طوال الوقت وأنت تنام الليل والنهار.

فعاد لسطوته واحتد غاضباً:

ـ أنت سيىء الظن، كل الذي أعمله من أجلك تجحده.

ونفض يداً بيد وصاح حتى بانت عروق رقبته متوترة بتشنج:

ـ........ بل أعمل أكثر مما تعمل وأحرص على أن تعود لأهلك سريعاً، فقط أن تعود إليهم رافعاً رأسك.

ـ أريد نقودي.

ـ أي نقود تتحدث عنها؟

ـ لقد عملت في قرى ومدن كثيرة وكنت تتقاضى أجري، أريد هذا الأجر.

ـ ألا تفهم؟ أنا أجمع لك النقود كي لا تفرط بها أو يسطو عليك أحد ويأخذها منك، لكنك سيئ الظن.

ونهض واقفاً، وامتدت يده لكمره وأخرج مفتاحاً صغيراً، وأداره بقفل صحارة اشتراها قبل أيام وأخرج نقوداً وصاح:

ـ هل تسمي هذه نقوداً، فهذه لا توصلنا إلى أي بلد قريبة ولا تنس أنك خرجت من أجل أن تعود محملاً بالذهب. وأنا أخطط لك لكي تعود محملاً بالذهب.

كنت صامتاً أنظر إليه بتحد وجمود، تحرك حتى قابلني ودفع بتلك الأوراق المهللة في يدي:

ـ إذا رغبت في العودة بهذه فخذها ولا تريني وجهك من الآن.

وكمن شعر أن جملته لم تعبر عن استيائه فأتبع:

ـ وليكن في معلومك طريق العودة أكثر خطورة، فكثيرون

يتنظرون العائدين ليسلبوهم، وكل ما أخشاه أن تسرق وتباع.

قبضت على النقود، ووقفت حائراً، وعادت صورة أولئك الصبية المسلسلين بالقيد تفترش مخيلتي، بكيت فاقترب مني وحضنني بساعده، فناولته النقود، وارتميت على سريري أجهش بالبكاء.

خلال هذه المدة كنت لا أعرف عنه شيئاً سوى اسمه ونتف باهتة عن امرأة يبحث عنها. كان غامضاً يحيرني بكثير من تصرفاته. وفي إحدى الليالي أنهضني وبكلمات مقتضبة أخبرني بالعزم على الرحيل:

ـ إلى أين؟

ـ ستعرف فيما بعد.

وانطلقنا في رحلة طويلة.

كنت أردد في داخلي (ما الذي يحملني لمصاحبة هذا الرجل، كان عليَّ أن أعود إلى قريتي منذ أن ماتت جدتي. وفكرت مرة أخرى في العودة لقريتي. كنت كل ما أخافه أن أسرق في الطريق، فقد عمق في داخلي هذا الخوف. كان لا يترك مناسبة حتى يذكرني بالاحتراز من أي كائن. في البدء كنت أنظر لتحذيراته بشيء من الاستخفاف، وأيقنت منها حين وجدت أولئك الأطفال الثلاثة يقادون بسلسلة واحدة، فكلما فكرت بالهرب منه، تخيلت نفسي أقاد بسلسلة طويلة بيد ذلك التاجر الذي رمقني ذات مساء وكأنه يتوعدني بالبيع).

❀ ❀ ❀

وصلنا إلى جدة.

مدينة شابة تنام في أحضان البحر. وفي الصباح تفيق وتجري في مناكبها الحياة. كنت أظن أن جيزان أكبر مكان يمكن أن أصادفه في طريقي، لكن تلك المدينة تقازمت أمام جدة ذات المباني الحجرية

العالية، المزينة برواشين منمنمة دقيقة الصنع.

دخلنا إلى أسوارها المهدمة مع الغروب. كانت السيارة التي أقلتنا من الليث قد توقفت بالموقف وتناثر المسافرون في عجلة. كنت أجلس في مكاني مندهشاً فخطف يدي وأمرني أن أقتفي أثره، فعبرنا أزقة ملتوية، وكلما أوغلنا في سيرنا تلاشت تلك الشوارع النظيفة والمشجرة والطرق المسفلتة وبدأت تستقبلنا روائح خمرية لمياه آسنة، وقمائم ترامت على جنبات الشوارع الضيقة.

وقف أمام بيت متداع وأخرج من كمره مفتاحاً صغيراً وأداره فانفتح الباب بأزيز مرتفع لينهض سؤال من داخل البيت لامرأة سكنها الحزن ـ على ما يبدو ـ:

ـ من بالباب؟

ـ . . . .

زاد إلحاح الصوت: من هناك؟

وبضيق ردد:

ـ أنا.

تهلل صوتها، وانفتح الباب وذراعيها، وعندما رأتني أقف خلفه تراخت يداها وظلت عيناها تشعان بفرح غامر، وتقافزت بنتان من داخل حجرة ضيقة وتعلقتا برقبته وهما تصيحان:

ـ أبي. . أبي.

قبلهما بعجل وأزاح أيديهما المعلقة برقبته، ودخل لـ «بيت الماء» مستعجلاً. وقفت حائراً أمام تلك العيون التي تتربص بي، اقتربت البنت الكبرى وسحبتني من يدي وأجلستني على كروية وابتسمت:

ـ ما اسمك؟

تلعثمت قليلاً ورددت بارتباك: يحيى.

ـ أنا اسمي عواطف وأختي اسمها حياة.

كانت امرأة أربعينية تجر قدميها وحزنها نظرت إليَّ بنصف عين، ووقفت على باب الحمام تنتظر خروجه، وقف أمامها مباشرة:

ـ لا تنظري إليَّ هكذا، جهزي لنا ما نأكله.

ـ وهل تظن أن لدينا ما نأكله؟

ـ كلما غبت أقول ستتغيرين. لكنك مثل الأشجار اليابسة تتغيرين نحو الأسوأ.

نظرت إليَّ وأعادت وجهها نحوه ورددت:

ـ من أين جئت به؟

زمجر بصوت محتد: هذا لا يعنيك.

ـ وما الذي يعنيني

ـ . . . .

ـ . . . . أن أظل أنتظر عودتك من كل سفر، كل يوم في ترحال وأنا أتحمل العنت والجوع وتدبير كسرة خبز لابنتيك.

فصاح محتداً:

ـ هذا الذي آخذه منك، تذمر وشكوى.

كانت البنتان تنظران لشجارهما بانكسار، كنت متضايقاً متمنياً لو أنني أستطيع مغادرة مكاني، رأيته يفتح كمره ويمد إليها بالنقود التي

عملت بها في المدن والقرى.

ـ دبري أمرك.

تناولتها باستخفاف:

ـ يا ما جاب الغراب لأمه، سوف نصوم على هذه النقود سنة كاملة.

فكشر عن أنيابه وصرخ بها:

ـ أحذرك من مغبة الاستخفاف والاستهجان.

فانكمشت وهي تتطلع إليه بغيظ بينما كان لسانه يتدلى للخارج بصلف:

ـ والله لو لم تصمتي لأقذف بك خارج البيت في هذا الليل.

انسحبت لداخل الغرفة الموازية للحوش، وبقيت فريسة لنظرات تلك البنتين، وإن بادلت البنت الصغرى النظرات بشيء من الفرح.

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخت الغالية مريم خالدية

المحترمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن سألتم عن صحتنا فهي تسركم لا ينقصنا شيء سوى رؤية وجوهكم الغالية ربنا يجمع شملنا عن قريب إنه سميع مجيب.

طالت الغيبة يا مريم ونحن متفرقون في هذه الدنيا وكنا غنم موسى وكل ليل ونهار وأنا أدعو الله أن يجمعنا ولا يفرقنا بعد لقاء.

أنتظر قدومك مع إطلالة الحجيج، وكنت أمني نفسي أن أراك مع حجاج هذا العام، وأسعد بضمك لصدري فقد طالت الفِرقة ونحن جسدان من بطن واحد، الله يا مريم كم هي الدنيا واسعة تفرق الأحباب وتبعدهم وما أقول إلا الله المستعان.

ويا غارة الله عليك، تقطعي عني جواباتك وتحرميني من أخبارك وأنت العارفة انه مالي في الدنيا غيرك، وتعرفي المثل الذي يقول «ما المخوة إلا في الدنيا وفي الآخرة بخت تلقاني» فوالله الذي لا إله إلا هو إني أبات الليل أفكر فيك وفي سبب انقطاع جواباتك، ولعبت بي الوساوس، ساعات أقول مريضة وساعات أقول الرسايل ما توصل وساعات أقول حصل مكروه وفي كل مرة أستعيذ بالله من هذه الوساوس وأطلب من الله أن يبقيك لأولادك، ولي، فأنا مالي في الدنيا غيرك، فالله الله على الجوابات لا تقطعيها عني، فبعد أن فرقتنا الدنيا لا تفرقينا بقطع أخبارك ورسائلك ولا تفرقنا الدنيا وتبعدنا الهموم، يكفي ما أشعر به من غربة، ولولا أن الأولاد (مصرين) على البقاء هنا ما بقيت يوماً واحداً، وكما تعرفين ليس لنا في القرية مصدر نقتات منه ونحن هنا ربنا ميسر علينا فأنا أسعى في الدنيا هذه، أبيع أقمشة وعطور وإذا قصرت غسلت كم قميص وأهو ربنا مباركها، وأخاف إن رجعت للقرية يضيعوا أولادي ومن أجل هذا فأنا متحملة الغربة والبعد عنك، وعن قريتي وناسي.

أختي مريم:

أخبرينا عن الولد يحيى ما هي أخباره، أنا لم أيأس فلا زلت أرسل إبراهيم وحسن للبحث عنه في الأسواق وفي أماكن تواجد الحجاج، ولكن بدون فائدة، وكما تعلمين أن حجاج كل سنة تتغير أماكنهم ويحل حجاج جدد، ومع ذلك كنت أمني نفسي أن أجده،

فكنت أذهب بنفسي في أوقات كثيرة وأقف على بعض الحجاج الذين استوطنوا وأسألهم عنه، وكلما ذكرت الأوصاف التي كتبتها لي في جوابك القديم وأسأل عن صاحبها يقولون ليس هناك أحد بهذه الأوصاف، وأظن أن الرجل الجبلي الذي صحبه لم يقدم على الحج وبقي في مدينة أخرى أو لا قدر الله يكون باعه لأحد التجار، وأنا لا أريد أن أخوفك ولكن كل شيء جائز.

أكتب لك هذا الخطاب وأنا عارفة بما تحسين ولكن يشهد الله إني ما أنام وطوال الليل والنهار أفكر فيك وفي أولادك، وما يكدر خاطري إلا غياب يحيى، وقبل يومين سمعت من أحد الجيران أنه رأى ولداً يباع في السوق يشبه الأوصاف التي ذكرتها لي، وقد خرجت إلى السوق بصحبة جارنا الذي أخبرني بالخبر وسألنا البائع فقال إن الذي اشتراه رجل من أهل مكة، ولا زلت أدور على عنوانه وبمشيئة الرحمن أصل إليه وأتأكد من خبره، ويقول النخاس الذي باع الطفل إنه اشتراه من تاجر العبيد محسن أبو حصان وهذا التاجر ـ حسب ما يقول الناس ـ يتلقط الأطفال من القرى ومن الأودية البعيدة ويغريهم بالمال والحلوى ويجذبهم إليه ثم يقودهم إلى بلدان بعيدة عن بلدانهم ويبيعهم.

وإذا كان ابنك هو الذي بيع في مكة لك عليّ عهد أن أعتقه حتى ولو تطلبت قيمته من الأسواق أو بعث أحد أولادي، فاهنئي وقري عيناً وعسى الله يجمع شتاتنا بعد فراق إنه سميع مجيب.

أختي الغالية:

في خطاباتي السابقة كنت أقول عسى يحيى يصل جدة ويسأل عني وألتقي به وكل ما أخافه أن يسأل يحيى عني فلا يدله أحد، فأنا هنا لا أعرف بخديج خالدية فكل أهل الحارة ينادونني ناجية ولم

أخبرك بسبب هذا الاسم من قبل، فعندما قدمت إلى جدة اصطدمت سيارتنا الأنيسة بسيارة أخرى ولم ينج من هذا الحادث إلا أنا وأبنائي وتم نقلنا للمستشفى ولم يعرفوا اسمي فسجلوني في سجلاتهم باسم ناجية تيمناً بنجاتي أنا وأبنائي والتصق هذا الاسم بي وأصبحت لا أعرف إلا به، ولم أحب أن أعكر عليك فلم أخبرك في السابق بهذه القصة، ولا أظن أن يحيى يعرف اسم أبو الأولاد وهذا يعقد بحثه عنا لو استطاع الوصول إلى جدة لكن ربنا كريم. ولا أدري لماذا أحس أن يحيى رجع إليك، وأتمنى أن يأتيني ردك وتخبريني أنه عاد. أوه يا مريم لو رجع لك يحيى عليك الله أول ما تخلصي من قراءة هذا الجواب تكتبين لي وتفرحيني، وقد نذرت أن أذبح خمسة كباشة وأوزعها على أبناء السبيل.

أختي الحبيبة:

الحمد لله نحن بخير، والأولاد يعملون، فحسن يقرأ بالليل ويعمل بالنهار، وقد حصل على الشهادة الإعدادية، ويرغب في مواصلة دراسته، أما إبراهيم فهو يعمل صبياً ببيت أبو سبعين ويعاملونه كأحد أولادهم، ويزورني كل جمعة.

أختي مريم:

تجدين مع الرسالة وصية أربع كرت، وبدلة ليوسف، وثلاث بناجر كل بنجر لواحدة من البنات ومضربين عطر جنة النعيم، وروح الروح ومعاهم ثلاث ريالات عربي وثلاث فنايل وحوك لجبريل. وفي الختام تقبلي سلامي على نفسك وأولادك فاطمة وليلى وحسينة ويوسف وجميع من يسأل عنا بدون تخصيص.

أختك خديج خالدية

حرر بتاريخ ٢٤ ـ ٣ ـ ١٣٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخت خديج خالدية

حفظك الله، آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وصل كتابكم وفهمنا ما به وما منعني عن مكاتبتك إلا قلة المسافرين للحجاز، وفي كل يوم أكتب لك كتاباً ويبقى في يدي وأنا أدور وأسأل عن من ينوي السفر إليكم فلا أجد أحداً متوجهاً نحوكم وأظل أنتظر حتى تأتي أيام الحج وأبعث به، وفي أحيان يتنافر بعض التجار للحجاز لكنهم يمتنعون عن حمل الجوابات ويقولون إنها تعطلهم، وفي أحيان يحملون لي رسالتي لكنهم يعيدون كتابي بحجة أنهم لم يصلوا لجدة، ويبتلعون وصية السمن والعسل الذي أبعثه إليك، أصل تجار قريتنا بهم خسة.

قرأت كتابك وتمنيت أن أفرحك، وأقول لك لقد عاد الغالي، لكن هذه الأمنية لم تتحقق، فأنا يومياً أخرج لأطراف القرية وأظل أنتظر علّه يعود من هناك ومع الغروب أعود وقلبي موجوع. فالطيور ـ يا خديج ـ تعود لأعشاشها والغائبون يعودون لأهلهم إلاّ قطعة قلبي ما أعرف أين هو، يا الله يا خديج لو تسكني في حشاشتي وتحسي بالنار التي تحرق داخلي من فراقه، كل يوم أستقبل القبلة وأرفع يديّ وأدعو الله أن يرد الغائب، والله والله إني ما أبات الليل فكلما خطر ببالي ان ابني تتلقفه الأيدي وهو ضائع في بلاد الله أصيح بكل صوتي وأنتحب حتى ان البنات أصبحن خائفات عليّ أتجنن، وأسأل الله القدير أن يلطف به وبي، فأنا لم أعد قادرة على تحمل غربته، ولو كنت أعرف طريقه لهان عليّ الأمر لكن حسبي الله ونعم الوكيل،

وقبل ما يغيب يحيى كان قلبي مخلوعاً على فراقك أما الآن فنار الفرقة تأكلني عليك وعلى الغالي، ادعي لي في الكعبة تعلقي بستائرها وادعي من قلبك إن الله يجمعني بكم.

كتابك الأخير رد قطعة من روحي، وأظن أن الولد الذي أخبرتني عنه في كتابك هو يحيى، فأسألك بالله يا خديج تذهبي لمكة وتسألي عنه، بحق بيت الله وقبر سيدنا المصطفى، ولو كان الولد الذي ذكرته في كتابك هو يحيى فسأبيع كل ما أملك وأدفع به لذلك التاجر حتى لو أبيع نفسي.

حلمت يا خديج بيحيى، رأيته مرمياً في مطبخ وجلده مسلوخ والذباب يأكل من عينيه، وبقيت أبكي وأنوح، ويعلم الله إني لا أهنأ بليل ولا بنهار، وقد تأثر حالنا، وخرج البنات للعمل مجاودات في الحقول، وعندما لا ينزل المطر يحتطبن وربنا ما يضيع عبده.

أختي خديج:

أهنئك بدخول شهر الخير والبركة والإيمان أعاده الله علينا وعليكم باليمن والمسرات، وأسأل الله بهذا الشهر الفضيل أن يجمع شملي بابني ويجمع شملي بك. ولو تدرين إني أصوم على الطوى وأنوح مع كل فطرة حين أتذكر يحيى وتلاوته للقرآن في عشتنا وإحياءه ليلنا بالذكر والتلاوة.

وأسأل الله بحق جاهه أن يرد عليَّ ابني ويقر عيني برؤيته إنه على كل شيء قدير.

أختي خديج:

فرحت لحسن وإبراهيم وأدعو الله أن يرزقهما من حيث لا يحتسبان، أما قولك إنك تريدين المجيء إلى القرية فهذا يسعدنا ولكن

كما تعلمين قريتنا تعيش بالحسد. ولو كان بيدك كسرة عيش يحسدونك عليها، وليس عندنا إلا الجوع والمرض. ونصيحتي لك إبقي مع أولادك وربنا يسخر لكم ولا تفكري بالعودة، فهنا الكل يتمنى أن يسافر للحجاز ويترك هذه الحقول الميتة، فقرّي مع أولادك، وربنا يسعدك ويرزقك من فضله.

أما قولك إنك كنت تنتظرين مقدمنا مع وفود الحجيج فكما تعلمين أنا محملة بالبنات ولو تركتهن من يرعاهن وكلهن شابات، ولو تركتهن وحججت فالخرجة تريد مصروفاً وأنا كل ما ألقاه منك ومن بعض الأعمال التي أزاولها أملأ به بطونهن المفتوحة. ومصيبتي معهن أن عيونهن مفتوحة، فكل شيء يرغبن فيه، وهن لسن مثلنا. تذكرين حين كانت أمنا ـ يرحمها الله ـ تعطينا شيئاً نفرح به ملء الدنيا. لكن بنات هذا الزمان كل ما أعطيتهن شيئاً يطالبنك بزيادة ولا خاصة بناتي.

أدعو أن الله يسهل لهن أولاد الحلال وأتخفف من حمولتي، وأخرج للحج وزيارة قبر الهادي الأمين والصلاة في الروضة الشريفة ومن ثم البحث عن يحيى.

وما أخفيك لا أستطيع مغادرة القرية فعندي إحساس أن يحيى سيعود بنفسه إلينا، فهو الآن رجل. لقد مضى على رحيله خمس سنوات وأظنه الآن يعرف كيف يتصرف. هذا إذا كان صحيحاً معافى ولم يتعرض لمكروه أو كما خوفتني أنه بيع كعبد، تصوري يا خديج ابن الحر يصبح عبداً، دنيا الله لا ورانا تقلباتها وأن يرجع الغالي إلينا.

وأخاف إن أنا خرجت أن يعود ابن عمنا حمد فأجد خبره معه لذلك لن أخرج من هنا حتى أراه أو أسمع أنك لقيته.

أختي الغالية:

يا غارة الله عليك يا خديج تدسين عني خبر صدمتك بالسيارة كل هذه المدة، أسألك بالله أن لا تخبي عليّ شيئاً يصيبك أو يصيب الأولاد لا سمح الله، وأدعو الله أن يمن عليك بالصحة والسلامة وأن يبعد عنك كل مكروه.

أختي ناجية.. لالا.. ما أحب هذا الاسم، أختي الحبيبة خديج:

وصلتنا وصيتك وما تدرين كم فرحنا بها، فقد جاءت في وقت كنا محتاجين لها. وربنا يخليك ويرزقك من أوسع أبوابه. وأخبرك أن جبريل ضاغي ويقول خديج ما تفكرني بشيء لأني أخوها من أمها أو لأني منعتها من السفر فحاولت أن أهون عليه، وأعطيته من الوصية التي أرسلت بها وقلت له هذا من عند أختك، ولا تشغلي بالك فجبريل طيب وكان يعتب وهو يضحك.

ويصلك مع حامل الرسالة قارورتا سمن وقارورة عسل، وكنت أتمنى أن أرسل لك جهشة، لأني أعرف كم تحبينها ولكن المسافة بيننا بعيدة وسفر طويل ولن تصلك خضراء.

أبشرك هذي الأيام يبرق ويرعد ويمطر والوادي دفع وننوي زرع حب وجلجلان ومنتظرون الخير، ربنا يبارك لنا ويعيد الغالي.

أختي خديج:

البنات يسلمن عليك، وتقول لك حسينة تتمنى منك أن تشتري لها شيظر فقد تقطع شيظرها وتستحي أن تخرج به بين صاحباتها، ونحن نكتب هذه الوصية مدت (حسينة) لسانها وغمضت عينيها وهي تضحك وتقول: سلمي لي على خالتي وقولي لها تشتري لي دبلول بدل

الدبلول الذي باعته أمي. والدبلول أنا بعته لما كنت أستعد لاستقبال أمنا الله يرحمها ويدخلها فسيح جناته.

وفاطمة وليلى تريدان زمامين وكل يوم تقولان:

ـ خرمتي أنفينا ليلعب بهما الهواء.

أما يوسف فهو يريد بدلة عسكرية لها فصوص مذهبة.

أعرف أننا نثقل عليك لكن ما لنا في هذه الدنيا إلا أنت، ربنا يبقيك لنا ويديم عليك فضله، وفي الختام تقبلي سلامنا وسلام جميع أهل القرية.

ويا خديج لا أوصيك، الوصية أمانة، أوصيك على يحيى والبحث عنه برموش عيونك.

وفي الختام سلامنا على نفسك وأولادك وكل عزيز لديكم.

أختك مريم خالدية

حرر بتاريخ ١٢ ـ ٩ ـ ١٣٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي الحبيبة مريم خالدية

سلمك الله ورعاك

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وصلت رسالتك وقرأناها وفهمنا ما بها، وما لك عليَّ حلفان لو قلت لك إنني لا أبات الليل من حرقتي على الابن يحيى، وزكنت على خلق كثير وأعطيتهم أوصافه ليدلوني عليه، وقد سافرت إلى مكة من أجل هذا الخصوص، ونويتها عمرة ودعيت على باب الملتزم وفي

زمزم وفي الحجر أن يجمع الله شملنا ويرد عليك غاليك، وبعد العمرة خرجت للسوق الصغير أدور عن التاجر الذي قالوا انه اشترى صبياً من جدة، وظللت أتردد على السوق حتى قابلت التاجر الأفندي وقد ندم عندما سمع القصة وقال انه باع الصبي لأحد تجار الرياض والذي خفف عليَّ أن أوصاف الصبي المباع كانت مغايرة لصفات ولدنا، فالمباع كان أخضر البشرة، مفلوج الأسنان ولا أظنه يحيى حسب الهيئة التي وصفتها لي في كتابك القديم. وقد وعدني التاجر الأفندي أن يبحث عن يحيى في سوق العبيد، وأقسم إن وجده ليشتريه بنصف ماله من أجل أن يعيده إلى أمه، فقد حكيت له تعبك وحرقتك على ابنك وقد سجل اسمه كاملاً في دفتره ووعد انه يساعدنا في البحث عنه.

ولم أتركه حتى أعطاني عنوان ذلك التاجر وقد قلت له إنني ذاهبة للرياض للبحث عنه، وما أخفيك الرياض بعيدة ولا أعرف أحداً هناك. ولكن لك عليَّ عهد أن أدور لك عنه عن طريق أحد جيراننا، فجارنا سائق يعمل على خط الرياض وهو يغيب لشهور ويعود لزوجته، وسوف أحدثه بأمر يحيى عندما يعود وقد أجد طريقة تدلني عليه غير السائق هذا.

وسمعنا في جدة أن بها صبياً تم جلبه من ناحيتنا، وأتأمل أن يكون هو وأعدك إذا عثرت عليه سأرسل لك رسالة في الحال.

أقول لك: نذر عليَّ إن لقيته أعود أنا وهو لتفرحي فرحتين.

وسلمي لي على جبريل وقولي له تقلك خديج:

رفسنا في بطن واحد، ورضعنا من ثديين لأم واحدة، ومهما حصل في الماضي عادك أخويه ابن أمي، وما نسيتك في يوم لكن

كنت أقول مريم حرمة معيلة وجبريل رجال قادر على كسب قوته، واسمحني إن أخطيت عليك.

مريم: الله الله على نفسك وحافظي على أولادك.

ويصلك وصية زمامان للبنتين فاطمة وليلى ودبلول وشيظر لحسينة وبدلة ليوسف، وكرتتان شيت ومصر وسديرية لك، واعذريني ما قدرت أوصيلك بفلوس، ومع الوصية ثلاث فنايل وحوك لجبريل، وهي رضوة. وإن شاء الله أرسل له ما يسعد خاطره. وفي الختام سلامنا على الجميع وعلى من يسأل عنا.

أختك خديج خالدية

حرر بتاريخ ١٦ ـ ١ ـ ١٣٨٢

الفصل الخامس

ـ المدينة تعلمك القذارة.

هكذا كان يقول طاهر، ولم أعرف أي قذارة يعني.

في كل مرة يجلس بمفرده ألمحه يردد كلمات اللوم والتقريع، ويسرح ويعاود نثر وساوسه بصوت مسموع، ويطبق عينيه صائحاً كمن داهمه فزع الموت:

ـ يا الله.

وفي لحظات شروده التي يسرقها خلسة ممن حوله يصاب بالسعار وينيب من يقترب منه.

في إحدى تلك الحالات وقفت على رأسه زوجته بحنو وهي تردد:

ـ بسم الله عليك ماذا أصابك؟

فوجدت نفسها محاصرة بشتائمه واتهامها بالتلصص عليه وولغ الآنية التي يشرب منها، فطفقا يتبادلان الاتهامات، لينتهيا إلى انزوائها باكية وخروجه لإحدى سفراته المتعددة والتي تمتد أشهراً.

مع زوجته يتعكر دمه سريعاً ويتحول إلى ذئب جارح، يظل يعوي ويدور حول جسده يتمحك بأي شيء ويطلق تهديدات مُرة،

وقبل أن يهدأ غضبه تغيبه الطرقات البعيدة.

وطاهر من قرية الوصابة، إحدى القرى المعلقة على جبال الخضري. وجد نفسه في فخاخ المدينة متورطاً في شراك امرأة وابنتين، وكلما حاول الفكاك منهن وجد نفسه يعود لقيده متبرماً.

جاء إلى جدة بحثاً عن حياة جديدة، فعمل بالبنط عند أحد تجار صناعة القوارب الشراعية (كان يطلق عليه أبو الزين)، وأبو الزين هذا ـ كما يقول طاهر ـ كانت له منجرة تكاد تكون هي المنجرة الوحيدة المتميزة بصناعة الدقلات التي تمخر عباب البحر لزمن طويل قبل أن تتفسخ أخشابها وتنخرها المياه. كان يصفه بأنه هامة يبتلع كل شيء ويظل جسمه طبيعياً لا يبين ما تلوكه نواجذه.

يقول عنه طاهر إنه كان بحاراً معدماً، ترك البحر وجلس على شاطئه يجمع الأخشاب وأسلاك الصفر وعلب التوتوة ومن هذه النفايات صنع منجرته ومن ثم عمل في صناعة القوارب.

الشخص الوحيد الذي لا ينسى طاهر ذكره هو أبو الزين، دائماً يتحدث عنه بغِل، وفي أوقات قليلة بإعجاب. ويصفه بالموسى ويردد في لحظات شروده المباغتة:

ـ أبو الزين كالموسى جرحه رقيق ودمه غزير.

ذات ليلة أجلسني بجواره وأسر لي برغبته في الحديث عن عمه ـ الذي أكله كما يزعم دائماً ـ جلست مصغياً بينما جلس يتحدث عنه بازدراء:

ـ أبو الزين قذفه البحر ذات يوم على شاطئ جدة مثلنا ومثل أناس كثيرين جلبهم البحر إلى هنا. يقولون إن عروقه قوقازية. هرب من بلاده خوفاً على دينه، وآخرون يقولون بل فارسي قدم للحج

وعندما وجد عملاً مغرياً حل إحرامه ونسي الحج وعمل أجيراً في إحدى المراكب جامعاً للؤلؤ، ثم غادر ذلك المركب وعمل في جمع الخشب والوقوف على الميناء لتقديم خدمات للقوارب القادمة. ويقسم ـ طاهر ـ أن أبا الزين كان يتخفى خلف تلك المهن البسيطة ليبعد عنه العين، فقد اتهمه بسرقة لؤلؤ صاحب المركب الذي كان يعمل عنده. وبعد أن مات تاجر اللؤلؤ أخرج أبو الزين أكياس اللؤلؤ وبدأ تجارته ليمضي في طريق ملوث بالخسة والدناءة.

كان يجمع المعدمين ويسخرهم لخدمته بمبالغ زهيدة، فجمع حوله نفراً نفضتهم الغربة على أطراف المدينة. أولئك النفر الذين حولوه لحوت على اليابسة. عملوا معه وسفكوا أيامهم من أجله فابتلع كل مدخراتهم وكان يعدهم بالأماني. فقط الأماني العذاب.

في أوقات كثيرة كان ـ طاهر ـ يتسلل إلى بعض ممتلكات أبي الزين فيعقرها إن كانت دواباً ويتلفها إن كانت قوارب، وعندما يقوم بإتلاف شيء من تلك الممتلكات يعود منتشياً مترنماً، ويقبل كل من يجده. في مثل هذه الليالي القليلة تسعد زوجته بقليل من رضاه، وتظل تسأل:

ـ ما الذي يغير طاهر بهذه الصورة؟

جاء طاهر للمدينة غريباً فالتقطه أبو الزين من محطات الغربة، وعمل معه لثماني سنوات، كان خلالها يأكل ويشرب وينام وعندما يتذكر هذه السنوات يصيح بقهر:

ـ ابتلعني هذا الحوت.

دائماً يكرر هذه الجملة بحسرة. في أحيان كثيرة يقودني ويشير إلى ممتلكات أبي الزين ويردد بندم:

- لي في كل ما يملك نصيب.

وإذا هيجه تعبه سرد قصته من البداية:

كان أبو الزين يخرج للمقاهي ومأوى الضائعين في هذه المدينة ويعود بهم لصناديق ابتناها بجوار الشاطئ. كان يخزننا كالأسماك المجففة، يحشرنا حشراً ويطعمنا، وقبل أن نطحن تلك اللقيمات يحملنا فؤوساً ويدفع بنا لوادي بني مالك لنقتطع الأخشاب ونعود بها على الدواب ونخزنها في مخزن كبير أعده لهذا الغرض ثم تتحول هذه الأخشاب إلى قوارب تشق البحر، هي عدة صفقات سريعة وغامضة فإذا به صانع للقوارب، ومتاجر في اللؤلؤ.

جئت من قريتي أحلم بقافلة الذهب التي جئت أنت من أجلها، وفي إحدى دوراته لمحني، وضمني لبقية رجاله. كنت فيما مضى هزيلاً فأجلسني لأقوم بمهامه الخاصة. وفي غفلة مني زوجني بابنة أحد خدمه والتي تكبرني بعدة سنوات فأنجبت عواطف وحياة.

تشعر بالضغينة تفوح من كلمات طاهر كلما تحدث عن أبي الزين، وغالباً ينعته نعوتاً ساقطة كلما خطر بباله أو قادنا الحديث عنه. نعته في إحدى المرات بالمرابي، ومرة بالفاجر، وبصاحب الذمة الواسعة. وفي كل مرة يحدثني عنه يصفه وصفاً بذيئاً.

ذات يوم، بعد أن تعب من شتمه قال لي محذراً:

- أريد أن أبعدك عن مثل هذا الطريق، فالبشر في المدينة أفاع عليك أن تتعلم كيف تعيش معهم وأنت آمن من لدغهم المميت حتى أنا تحرز مني.. أتفهم؟

في كل مرة يسكب وصاياه وأصدقه، وأقترب منه أكثر. كان العمر الزمني الذي يفصلني عنه كبيراً، ومع ذلك كنت أناديه باسمه

مجرداً - حين نكون منفردين - فلا يدعوني لتبجيله أبداً ويردد:

- إما أن تكسب الحب وتفقد الاحترام، أو تجد الاحترام وتفقد الحب.

وفي أحيان كثيرة يضحك بعمق ويضرب كفاً بكف:

- أنا كالأرض الجدباء لا ماء ولا شجر، لقد تشربت بالخسة فأصبحت أرضي سبخاً.

ويضرب جبهته أحياناً:

- لماذا كل هذا العنت؟

في أحيان كثيرة تشعر أنه ضحية، قدمته القرى قرباناً للمدن ليتصالح بقية أبنائها مع شوارعها الضيقة الملتوية وتمنحهم قليلاً من رضاها، هو يقول كلاماً قريباً من هذا.

يقول:

- دفعتني قريتي للمدينة كي يسيل دمي، وإذا جاء أحد منهم إلى هنا كان من معاتيق المدينة لذلك عجن نفسه بماء المدينة، وانسلخ عن قبيلته، دافناً عاداتها وتقاليدها في داخله، اصطك لهجة مغايرة وانتمى للمدينة ونسي كل التفاصيل التي يمكن أن تعيده لقريته. وحين رأى تلك الفتاة تقف بالباب عاد يحفر عن جذوره ويستذكر لهجته ويحرص على التفوه بها في كل أموره. ولم يعد يشغله سوى الخروج والسياحة بين قرى تهامة بحثاً عن تلك الفتاة التي صعقته ذات يوم.

خرجت عواطف تحمل وجه أمها وكثيراً من عنادها وطول أبيها وشغفه بمن يحب، وكانت حياة أكثر عذوبة وفتنة وقد تشربت وجنتاها بصخب الأنوثة والرغبة في الحياة.

يقول طاهر عن حياة: إنها سلافة الروح، وضعها في رحم أمها حين كانت تشاغل باله تلك الفاتنة التي أحالت حياته إلى بحث دائم، لذلك سماها الحياة معرَّفة فنكرتها أمها.

في كل ليلة يصعد سطح المنزل ويظل يلوك لوعته بالشعر والأغاني، وإذا سمع زوجته تنادي عليه ليكف عن ذلك الغناء رماها بأقذع النعوت وعاد يدندن بحرقة.

كنت أجد في لوعته قرباً من لوعتي، فكل الأغاني التي يسمعها تحرك لواعجي، أنصت له وأتحرق شوقاً معه. في إحدى المرات صعدت إليه، كان وجده يتلظى وحرقته تفوح من تلك الأشعار التي جمعها وظل يرددها بهيام منكسر. أجلسني بجواره لأستمع لتلك الأشعار، واقتربت منه. كل يوم أسمع نتفاً عن تلك المحبوبة التي أحرقته ورحلت تاركة نيرانها تتأجج بصدره. أجلسني بقربه وهو يردد أغنية بالية، يقطعها بآهة منغمة:

ـ أنت الآن فتى وإذا أردت أن تعرف سر الحياة فعليك بالحب، هو الشيء الوحيد الذي يمنحك سر الوجود.

وتناسل حديثه:

كنت يتيماً، وهربت من قريتي بسبب تعنت عمي، ووجدت نفسي أرافق قافلة طويلة بلغت بنا جدة بعد مشاق مضنية، وهنا تلقفني أبو الزين ومضغني سنين طويلة، كنت أعبث بشبابي كثيراً، فلحقني العطب سريعاً، فأوكل إليّ بأداء المهمات التافهة البسيطة. وكنت ألح في طلب الزواج فدفع إليَّ بإحدى بنات رجاله وقد عبرتها سنون طويلة من الجفاف، كنت محتاجاً لأي شيء ينهي نهمي، فالتصقت بها، وسرعان ما مللتها. كانت كالشجرة اليابسة. ميزتها

الوحيدة أنها واقفة في وجه تقلبات الفصول. هناك نساء يعلمنك الفضيلة، فالمرأة الكاملة تبعد غواية الشيطان عنك، وهناك نساء كالبصل المعطوب يدفعنك للرذيلة حتى ولو كنت عابداً ناسكاً، فقد تدفع بنفسك لطريق الغواية لتهرب منهن ومن فروجهن اليابسة.

بعد زمن استعدت صحتي، ولم أفرط في سكب مياهي في تلك البئر الخربة، واشتقت للخلاص. لم أكن أجد وسيلة تبعدني عنها إلا وقمت بها، ومع كل محاولة لمغادرة بابها أجدها تسبقني لتغلق باب آخر. رضيت بهذه الحياة البالية وفي انسكابه للقدر أفقت: لو لم أرها لكان حالي أفضل من الآن.

رأيتها أول مرة تقف على الباب، فصعقت لجمالها، وغدوت متيماً بها، ووجدت نفسي مندفعاً إليها. كانت تجاورنا، تعرفت على أبيها، وأصبحت أقضي الوقت الطويل معه، ألمحها بين الحين والآخر، وأفتعل الأعذار لرؤيتها أو سماع صوتها، وشاغلتها حتى أصبحت هواءها، وذات ليلة طرقت الباب، وطرقت وبت بجواره باكياً.

ـ لقد رحل ذلك الرجل بابنته.

كنت على وشك أن أخطبها، على وشك أن أجد الحياة بين تلك العينين اللتين تفيضان سحراً، علمت أنها من إحدى قرى جيزان، وخرجت أبحث عنها. في كل مرة أشد الرحال إلى قرى تغلق أبوابها دون الغريب فأعود أكثر جدباً مما مضى:

ـ الله كم يقتلنا الحب، وكم نقتل أنفسنا حين نفرط في لحظة أن نعيش، هي لحظة إذا لم تكن متنبهاً لها وتستغلها تضيع. وها أنا أمضي ما تبقى لي من عمر أبحث عن تلك اللحظة الضائعة، تلك

اللحظة التي ضيعتها بكثير من المماطلة. ليتني خطبتها قبل أن أثير خوف ذلك الرجل على ابنته.

وختم حديثه بتنهيدة حارقة:

ـ ساعة الحظ لا تعوض.

وأوصاني مراراً:

ـ لا تضيع فرصة تعبرك أبداً.

هو شخصية متقلبة لا يمكن أن تمسك بطينته، فهو كالأباريق المصطلية بنارين، رخو وصلب، خشن وناعم، حارق وبارد، ولا يمكنك من الإمساك بخصلة دون نقيضها.

❀ ❀ ❀

تآلفت مع عبوس زوجته، وأبديت تعاطفاً معها فسربت إليّ كثيراً من حكاياتها. كانت تقول:

ـ طاهر مثل الثمرة الخشنة. عليك أن تتعامل مع الجهة الناضجة، وهو دائماً يحاول أن يظهر هذا الجانب فقط.

وعلمت أنه بدد نصيبها في إرث أبيها على سفراته المتعددة ولم يبق لها إلا حسرة تجري بحلقها يومياً. كانت تحبه بشغف، تستقبل القبلة وترفع يديها داعية أن يريحه الله من تعبه بنسيان تلك المعشوقة أو الالتقاء بها، وأقسمت مراراً أنها لو التقت بها لتخطبها له بنفسها.

في المساء تتزين فيزداد بؤس وجهها وتطفر التجاعيد الصغيرة المتنامية أسفل رقبتها وتتراخى وجنتاها فتبديهما كالخروق المكرمشة. تطرق بابه فلا يجيب، وتظل منتظرة أن يحن عليها ويفتح لها الباب، وهي تتوسله:

ـ طاهر افتح لي الباب.

في أوقات كثيرة كانت تنام بجوار الباب المغلق.

أشفقت عليها، فمنحتني كثيراً من حبها، وأصبحت تحمل هم عودتي لأهلي، وقد أخطأت ذات يوم حين فاتحت طاهر بهذه الأمنية:

ـ لم لا تعيد يحيى لأهله.

فار فجأة، وشتمها وغادر المنزل لثلاثة شهور، كنت خلالها أقوم بمهام عديدة داخل البيت، وكلما حاولت العودة لقريتي ترجوني زوجته أن أبقى حتى يعود ووجدت نفسي منجذباً للبقاء لبعض الوقت، وفي كل يوم ازداد التصاقاً برغبة البقاء.

لم يكن يؤخرني من العودة لقريتي سوى خوف من أن أقع فريسة لأحد تجار الرقيق، وقبل ذلك لم أكن أملك النقود التي تحملني لأهلي، فبدأت البحث عن خالتي بداخل جدة.

❀ ❀ ❀

ـ انفجرت جدة خارج أسوارها ولم يعد أحد يعرف أحداً.

هذه أول جملة وجدتها في طريقي حين سألت عن خالتي في سوق العلوي، قالها الصدفة بثقة، وأردف بملل:

ـ لا تبحث عن أحد.

يقولون إن الصدفة يعرف كل أزقة جدة وحواريها؛ فقد ظل لنصف قرن يدور من الغلس بين منعطفاتها ويمضي ظهيرته متنقلاً بين مقاهيها وفي المساء يعود لينام بالقرب من البحر، انتظاراً لسفينة أبحرت ذات ليلة علّها تعود ذات يوم من الهند وتحمله لأهله. لم ييأس. كان يومياً يعلّق شاله على وتدٍ دقّه في مواجهة الغرب، حتى

إذا جاءت تلك السفينة ولم يكن بانتظارها، كان شاله رايةً لوجوده وانتظاره لسفينة أبحرت من زمن بعيد.

كان عزوفاً في كل شيء. لم يبع أو يشتر، يقاسم زبائن المقاهي مأكلهم ومشربهم ويسيح في الأرض. كان يضع بقشته بداخل صنبوك تداعى على الشاطئ مترقباً الرحيل دون أن يحمل شيئاً معه. فقط كان حريصاً على حمل طين من البقيع حصل عليه كهدية، وقد لفه في كيس صغير وكتب عليه بخط منمق (اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب).

وقلة قليلة تقول انه عاشق لامرأة من أهل المدينة، كانت تقطن بجوار البحر فتيم بها واشتغل بحبها فترك كل شيء واقتفى أثرها. وكان يجمع التراب الذي تسير عليه وصر بعضاً منه في كيس وكتب عليه تلك الجملة، وعندما تزوجت وتركته يذرف عشقها، تسكع في الشوارع عله يلمح عينيها ولا أحد بالتحديد يعرف تلك المرأة. فقط إذا هيجه الشوق نثر قصائده الركيكة وتناشج ببكاء مكتوم وهو يتضرع لله: اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب.

يضحك كثيراً حينما يتذكر شيخ الحواتين عبد الصمد:

ـ رحمه الله هو من أطلق عليَّ لقب الصدفة.

كنت صغيراً حينما وجدت نفسي منسياً على ميناء جدة. كنت أمسك بيد أمي، وأبي يحمل عفشنا عبر صنبوك لداخل البحر حيث رست سفينتنا التي ستقلنا إلى بومبي. انزلقت من بين يديها وذهبت باتجاهه. ويبدو أن أمي ظنت أني معه وهو ظن أني معها بينما كنت أتابع سرب نوارس كانت تتخاطف سمكات صغيرة تقافزت وتعاركت لابتلاع فتافت عيش طفا على سطح البحر، بعد أن قذف به المسافرون

إبعاداً لروح البحر الشريرة عن طريقهم، وبسرعة عجيبة غادرت السفينة موقعها لأجد نفسي هائماً على الميناء. كنت أبكي بحرقة وأنظر للمدى البعيد، وألوح بيدي، لم تفلح تلك التلويحة في إرجاع السفينة الماخرة عباب الغيب، تجمع حولي نفر وحاولوا حملي معهم فأبيت وظللت في مكاني بالقرب من رائحة البحر وصياديه، أشفق عليَّ الكثيرون، ومن فرط إشفاق أحد النواخيذ أقسم على حملي للهند، لكنه تراجع حين خبطه على ظهره أبو غنيمة:

ـ أين أنت وأين الهند؟

فأردف:

ـ والله لو كانت في آخر الدنيا.

أبو غنيمة: وهل تعرف مكان أبيه؟

الدقل: وهل تظن الهند كجدة؟

يحيى المصبن: والله لو بحثت فيها عشر سنين لن تجد ضالتك. فيها بشر كالدود.

حسين المبشبش: هيا اذهب وصم كفارة عن يمينك.

صدقة: نحن نتكفل به، وكأنه عند أبيه.

التف حولي الكثيرون، ولم أصطحب أحداً منهم وظللت بهذا المكان لا أبرحه إلا للمسجد، وهناك تعلمت القراءة والكتابة، وما أن أنتهي من الصلاة والدرس حتى أعود راكضاً لهذا المكان. ومنذ ذلك الزمن أطلق الشيخ عبد الصمد عليَّ لقب الصدفة، ونسيت اسمي ونسي معي الناس ذلك الاسم (مختار خان).

نبتت علاقتي بالصدفة بصورة غامضة، وتآلفنا. كانت الأيام

تقربنا من بعضنا وتربطنا ببعضنا، وكلما توثقت علاقتنا استعصى عليَّ أن أسأله عن صرة التراب التي يحملها معه أينما اتجه. أول مقهى عملت به كان قريباً من جلسته فكنت أعبره محيياً وفي أحيان كثيرة مصافحاً. أستجيب لدعوته أحياناً وأحياناً أغافله قبل أن يدعوني لمشاركته وساوسه. كان يقضي معظم وقته تحت ظل عمارة بخش يقلب كفيه، وفي أحيان كثيرة يرفع صوته متحسراً:

ـ لا يدوم إلا هو الباقي وجهه.

يقولون إن سبب ترديده جملته هذه أنه تزوج امرأة من بنات جلده ـ بعد أن يئس من العثور على محبوبته ـ فلم تطق خروجه وهجرها والوقوف في مواجهة البحر، فعافته ورحلت بابنه الذي في أحشائها.

كان محط إشفاق الكثيرين. فبعد أن قرضه الزمن نسجت حوله كثير من الحكايات. لكنهم أجمعوا على سحر كلماته فأصبح محطة لكل متظلم ليكتب لهم المعاريض التي تذهب وتعود حاملة إليهم حقوقهم. لكنه لا يتقاضى أجراً على هذه المهمة.

كان يسيح في طرقات المدينة وحيداً، وكلما قيل له:

ـ الآن تستطيع العودة لبلدك.

يردد:

ـ ومن يخرج الغربة من داخلي لقد سكنتني ولا فائدة من الرحيل.

وفي أحيان يردد:

ـ أضاعوني صغيراً ولم يبحثوا عني والآن لا حاجة للبحث عنهم.

كنت أشعر بغربته التي يجمعها بآهات حارقة ويظل يقلب كفيه ويصيح بجملته:

ـ لا يدوم إلا الدايم.

سلمت عليه:

ـ عم صدقة يقولون انك تعرف كل أهل جدة.

ـ كان زمان.. أما الآن فقد انفجرت جدة خارج أسوارها.

وأخذ يتحسر على أيام زمان، ووقفت أستمع لحكايات كثيرة نثرها على مسامعي حين كانت البيوت تتلاصق بجدرانها قبل القلوب. كنت أقف معه جسداً بينما كان يذوب حسرة ويضرب كفاً بكف على تفرق شمل أهل حارته، وكمن وجد أذناً تصغي له انفرط يعدد العائلات التي غادرت مواقعها:

ـ يا خسارة كلهم نسوا الماضي، لا أحد يلتفت للوراء.

اعتذرت منه، وهممت بالمغادرة، فاستوقفني:

ـ إياك أن تبحث عن الماضي قد تجده متعكراً فتموت مرتين.

ـ أنا أبحث عن خالتي، فأنا غريب هنا.

ـ كلنا غرباء في أيامنا.

أحسست بالضيق، فخطوت من أمامه، استمهلني مرة أخرى:

ـ لا تزال صغيراً ستجلس ذات يوم وتتحسر على الماضي. لكن أخبرني ألست ابن خيرية وأجاب بنفسه:

ـ خيرية ليس لها إخوة، أخذها أبوك كمتاع وتركها مع بناته، ألم يعد؟

- من؟

- طاهر، أبوك.

- لا لم يعد.

تمنيت أن أقول انه ليس أبي وخشيت أن يدخلني في حكاياته التي لا تنتهي فنهضت، وهو يوصيني بالنساء:

- النساء يعرفن ما لا يعرفه أحد. إسألهن.

فتركته ومضيت وهو لا يزال يردد:

- لماذا يضيع الناس حياتهم بالفراق؟

تسللت كلماته لداخلي وأخذت تعيث فساداً في روحي، ظللت أردد جملته كثيراً:

- لماذا يضيع الناس حياتهم بالفراق.

أمسكت ببائعات الملابس والمغسلات في البيوت أسأل عن امرأة تدعى خديج خالدية، وكلما سألت إحداهن بادرتني بأسئلة أكثر صعوبة من بعضها:

- أين تسكن؟

- ما هي أوصافها؟

- بماذا تشتغل؟

فأحتار أمام هذه الأسئلة. وعندما حاولت أن أسأل عن أبنائها لم أتذكر اسم أبيهم.

⊛ ⊛ ⊛

كان النهار يثرثر بين أزقة الحواري ويجر خلفه رطوبة فاترة تتلهى على أجساد المارة تاركة ضيقاً يجوس على الملامح برتابة.

كنت أشعر برغبة ملحة للتخلص من ثيابي التي التصقت بجسدي الفائر وعرق غزير يتصبب من أماكن متفرقة من ثنايا جسدي.

وقفت أمام بيوت كثيرة أسأل عن خالتي، كنت أدور كالمحموم واسمها مبلل في لساني، وكلما أمسكت برجل وسألته، نظر إليّ بارتياب، وتركني. وبعضهم صرح باستنكافه بصوت ممتلئ بالدهشة:

- ألا تستحي تسأل عن امرأة، ما اسم زوجها أو ابنها!

في أحيان كثيرة لا نهتم بالتفاصيل الصغيرة. حين كنت في قريتنا لم أسأل أمي يوماً عن اسم زوج خالتي، أو عن المدينة التي تقطنها، أي شام هذا الذي يقصدونه، واكتشفت أن الحجاز سلسلة طويلة من المدن، تلقفت اسم جدة من فم جدتي حين قالت:

- سنصل جدة ومن هناك نتوجه إلى مكة، فهل تسكن خالتي بمكة؟

اخترت أن أعمل ليلاً بالمقهى لأتمكن في النهار من البحث عن خالتي وها أنا أقطع الشوارع والأزقة سائلاً دون أن أعثر على طريقها. أعود مع الظهيرة - للصندقة التي ابتناها لي طاهر في آخر الحوش - كئيباً، فألتف على نفسي كأفعى ملت من بياتها الشتوي وظلت تسترجع ذكريات قديمة من دفء العيش الرغيد. كانت عواطف تتفقدني في كل حين وتقدم لي ما أحتاج، فأقدم لها شكري، فترخي رأسها وتتمتم بصوت منخفض:

- يسعدني أي شيء أقدمه لك.

مشطت حياً نبت في خاصرة جدة وأصابني الإرهاق واليأس، فجلست بجوار أحد البيوت المسورة بأشجار الليمون واللوز الهندي. اجتاحني هواء لطيف فشعرت بالانتعاش وتلهفت لشربة ماء، كانت عيناي زائغتين بين تعرجات الحارة، كنت أفكر أياً منها أسلك لمواصلة هذا البحث العقيم، وفي أحيان كثيرة أفكر بالكف عن البحث، خبطني على ظهري وهو يبتسم:

ـ أتذكرني؟

حدقت في وجهه، وجه دائري، عيناه سوداوان وكبيرتان، فمه عريض ترتفع شفتاه قليلاً عن ناب ركب على أخيه فظهر ملائماً لذلك الفم العريض. كانت قامته طويلة برغم ملامحه التي تشي بيفاعته، هزاله مفرط كما ابتسامته، ظللت محدقاً به فرفع كم قميصه وأشار لجرح قديم تقبقب واندمل بتشوه:

ـ هل تذكرت؟

لم أكن قادراً على تذكره وإن كانت صورته تلوح في ذاكرتي وتتلاشى. ظللت صامتاً، أتأمل وجهه، فتقترب مني ملامحه ولا أذكر أين رأيت هاتين العينين الواسعتين والناب المتطرف والبازغ من أسفل تلك الشفتين الرقيقتين.

ـ أظنك لم تتذكر.

ـ نعم، لم أتذكر.

ابتسم، فقفزت شفته للأعلى:

ـ لقد جرحتني ذات ليلة.

أفاقت من الذاكرة صورة ثلاثة أطفال مقيدين في سلسلة ينامون

على بعضهم شعث غبر، والدماء تلطخ ثيابهم. واقتربت وفاضت تلك الليلة بمخزونها، ابتسمت وهللت:

ـ أنت من جرحته.

ـ نعم.

ـ!!!!!!

ـ.......... واسمي حامد، وأنت؟

ـ أنا ماذا؟

ـ أنا خجل منك، فأنا لا أعرف اسمك.

ـ تعددت أسمائي، ففي كل مقهى أعمل به أخرج منه باسم جديد، وقد استقروا على البوري. فحضنني بقوة، واندلقت أسئلته متلاحقة فائرة:

ـ ما الذي جاء بك إلى جدة؟

ـ جئت لأعمل.

ـ وما تعمل؟

ـ أهو كما ترى، هنا وهنا.

ـ وأنت؟

ـ لا زلت عبداً والذي أحمده لسيدي إنه رحيم.

ـ وما الذي جاء بك إلى هذه الناحية؟

ـ أبحث عن خالتي.

افترقنا بعد أن وعدني أن يبحث معي عنها، واتفقنا على الالتقاء وأن نصبح صديقين في هذه الغربة. بدأت لقاءاتنا خاطفة، نتبادلها في أوقات متفرقة. في يوم الجمعة يذهب سيده إلى مكة فيخرج معي

للبحث عن خالتي في أحياء جدة المتفرقة وفي سيرنا كان يحكي لي قصة عبوديته.

⊛ ⊛ ⊛

في قرية تقف خلف سنابل القمح وتمد طرقاتها بسعة صوب الشرق، كانت لنا أبقار وأغنام تسرح خلف الحقول، وكنت أنا وأخي الصغير نركض خلفها. وفي أحيان كثيرة نمرح بين قوائم السنابل نطارد الفراشات ذات الألوان الزاهية. كنا محبورين بطفولتنا، نخرج في أوقات مختلفة للحقول حاملين الزوادات أو راكضين خلف أغنامنا لإبعادها عن قوائم السنابل التي رفعت سيقانها عن الأرض.

كانت الشمس كوردة يعتصرها الشفق فتسيل أشعتها بين السحب القاتمة، ووميض برق خاطف يسل سيوفه من ناحية الشمال منذراً بليلة ماطرة، وأصوات الرعاة تتواصى بالعودة. كنت أنا وأخي غالب ندفع أغنامنا وأبقارنا صوب القرية.

بزغ علينا من بين أشجار الأثل والثمام، شاربه الكث وعيناه الزائغتان أصابتانا بالهلع. انكمش غالب خلف ظهري، فأمسكت به مرتعداً، بكى غالب بحرقة وردد:

ـ النباش[٢٠].

---

(٢٠) النباش حيوان أسطوري تتعدد مسمياته وفق المنطقة الجغرافية؛ فهو يشبه بالضبع وفي أماكن أخرى بالغوريلا. وتقول الأسطورة إن من يؤذيه يصبح هدفه بعد الموت.. حيث يصيح به أثناء الموت قائلاً: «حلالتي بك وبعقب عقبك»، أي أن الشخص المخاطب حل له هو وذريته، فإذا مات قام النباش بنبش قبره وأكله قبل أن يصبح جيفة، ولذلك يخرج أهل المتوفى الموعود للسهر على قبره ثلاث ليال بعدها لا يقدر النباش على إتيان خصمه.

واسع خطوته حتى اقترب منا:

ـ أنا غريب عن هذه القرية، أريد ماء.

كان أخي يحمل كوز الماء، فناوله مرتعشاً، سقط الكوز وسال الماء، امتصته الرمال الناعمة بسرعة، حاول أن يظهر ابتسامته فازداد بشاعة، أمسكني:

ـ أرجوك أريد أن تدلني على قرية الحمام، فلي أهل هناك.

نظرت إليه بفزع، وأشرت بيدي في اتجاه القرية:

ـ إنها هناك خلف تلك المراعي.

قال:

ـ لا أعرف كيف أخترق حشائش الحلفا أريدكما أن توصلاني للطريق، لن تتأخرا.

ـ ستمطر ولن نستطيع العودة.

ـ لا تخافا فقط أرياني بداية الطريق.

سرت وغالب يسحبني للخلف وهو يسير بمحاذاتنا، وقامتانا الصغيرتان ابتلعتهما حشائش الحلفا. كان يتودد لأخي النافر منه، وكلما أوغلنا في المسير وحاولنا أن نتراجع يتودد إلينا بقطع من الحلوى التي لم نكن نعرفها فنتلمظها ونواصل معه وهو يسكب الوعود:

ـ عندما توصلاني للطريق سأمنحكما كيس الحلوى هذا.

وأدلجنا في الليل. كان وميض البرق يلمع فينير بعض الطرقات البعيدة، وصوت الرعد يقصف مسامعنا بدوي مجلجل. بكى غالب،

وأحسست بيده تجذبنا، وننعطف عن ممشانا. أذكر أننا أخذنا نبكي وهو يدفعنا بغلظة، أدخلنا لعريش قبع في منطقة نائية، وكمم فمينا. لم ننم ليلتها. كانت دموعنا مستيقظة، وقلبانا الصغيران يرفان كأجنحة طيور مجهدة وثمة مطر بالخارج يتصبب كالموج.

في الصباح امتطى فرسه وقادنا بسلسلة طويلة خلفه، بعد ليلتين كنا في بلد جديدة وحال جديد. مر بنا لإحدى القرى والتقى بأحد رجالها فاستضافه وأسلمه طفلين آخرين ـ كنت شاهدتهما في المقهى ـ أما غالب فلم يقطع تلك الليلة.

مات غالب في اليوم الرابع حين بتنا في حظيرة خيول صديقه، فقد تجمعنا في الليل على بعضنا ونمنا وشهقاتنا تتعالى. كنت مستيقظاً، دار حصان حول الفرس لمنافحتها فأحرنت، قفز برجليه الأماميتين على وركها فتقدمت عنه لتسقط حوافره على رأس غالب. شهق شهقة عالية وارتفعت قدماه للأعلى وشخب دمه في وجوهنا وعلى صدورنا، وصرخنا، وغالب يتخبط بين دمائه، وعندما همد جسده ظلت دماؤه لزجة على وجوهنا وثيابنا فظللنا نصرخ الليل بطوله دون أن يجيب صراخنا أحد. وفي الصباح أحلوا يده من بيننا وحملوه بعيداً عنا، وواصلنا الرحلة ولا أعرف أين دفنوا جسد أخي غالب.

عندما فشلت في فك قيدنا بالمقهى، انطلق بنا محسن أبو حصان ـ وهذا اسمه ـ إلى الطائف وعرضنا للبيع، فبيع ياسين لأحد التجار هناك وانتقلت أنا وعمر لجدة فبيع عمر لتاجر من أهل مكة واشتراني سيدي. فأحمد الله أنك لم تبع في الطريق وأن الله سخر لك رجلاً طيباً كطاهر حماك من مغبة الطريق وعبودية ذليلة.

الفصل السادس

كنت جائعاً، فرجوتها أن تجهز لي أي شيء ألوكه، وتبعتها. كانت منكفئة تهرس لي قرص حنطة خلط بزيت سمسم، فيما كان ريقي يموج باشتهاء، وقف على رأسنا ومد يده بقوة على صدغي:

ـ هل أربيك لهذا.

بهتُّ ولم أدر ما أصنع، كانت يدي تتحسس تلك الصفعة وأتطلع لعينيه المزمومتين بغيظ. كان منفعلاً ورغبة معاودة صفعي تطفو على أطرافه:

ـ الرجال لا يقفون في المطبخ.

نهضت أمي وخبأتني خلفها وهي تنافحه بالصوت:

ـ كان جائعاً وطلب أكلاً، ما الذي حدث؟

ـ لا أريد رؤيته بالمطبخ أم تريدين يصبح (رابع خواته)[٢١].

---

(٢١) رابع خواته لفظة تحقير تطلق في عدة مواقف: لو وجد الرجل في مكان خاص بالنساء، أو أظهر ميوعة لا تتناسب مع مظاهر الرجولة، أو نكص عن تحمل الأعمال الشاقة التي يقوم بها الرجال. وعادة تطلق وفق عدد أخوات من يقوم بهذا الفعل فإن كان له أختان يقال له (ثلاث خواته) وهكذا.

- وهل رأيته يخبز أو يعجن؟

- يكفي أن أراه هنا والرجال لا يقفون مواقف الذل حتى وإن ماتوا.

هي أول مرة أتلقى فيها صفعة مباغتة من أبي، تلك الصفعة التي حرمت دخولي للمطبخ وجعلتني في كثير من أموري المعيشية لا أستطيع تدبر أمري مهما كان الأمر هيناً.

في المقهى ظللت أقدم الطلبات دون أن تطاوعني نفسي لدخول المطبخ وإعداد الشاي والحليب، وفي كل مقهى أعمل به أظل مقدماً للطلبات. فكان هذا التصرف يثير دهشة أصحاب المقاهي وزملائي من القهوجية ويبخس أجري.

وفي بيت طاهر كدت أموت في الأيام الأولى فلم أكن أجرؤ أن أتحدث عن جوعي، لم أكن أعرف تجهيز أي أكلة يمكن أن تسكت أمعائي المفتوحة على الدوام. كان عليّ أن أنتظر فقط مواعيد الأكل انتظاراً يصل حد التصور.

في إحدى المرات كاد يغمى عليّ، نما جوعي وأخذ يفتك بأمعائي فتسللت للمطبخ، ووجدت نفسي عاجزاً عن فعل أي شيء فعدت للبرندة مرتعشاً وأعراض ألِفتها: هبوط حاد وجفاف يتيبس بجوف حنجرتي وعرق يتصبب بعنف فخرجت أستند على الحائط. كان صوتي واهناً، وعصف بي دوار وغابت ملامح الأمكنة. يبدو أن عواطف لمحتني، وقبل أن أقع انتشلني طاهر مستفسراً:

- ماذا بك؟

- أشعر بخواء وأن معدتي ستسقط.

تراكضت بنتاه وزوجته، وأجلسنني على السرير. كان صراخ زوجته يصلني من مكان بعيد وهي تولول بفزع:

- أنت لا تجلب إلا الموت. وكل الخوف أن يموت هذا الصبي هنا.

- يا بومة كفي عن الصراخ، فأنا أعرف حالته.. بطنه مملوء بالدود. احضري له أكلاً وسينهض في الحال.

أحسست بيدها تحشر لقيمات في فمي، بعدها شعرت بقواي تعود لي رويداً رويداً.

ومنذ ذلك اليوم لم تترك عواطف بطني فارغاً قط.

كانت عواطف تقاربني في السن وتتفانى في خدمتي. تمنحني اهتمامها وتقوم بغسل ملابسي، وتجهيز طعامي، وعندما تراني واجماً تحاول التخفيف عني، تمازحني وتختلق المواقف لإضحاكي. تخالس أمها وتأتي، تحدثني عن أمور كثيرة، وتنتشلني من ترددي، وكلما خطوت خطوة ناجحة فرحت وضمت يديها على صدرها بغبطة وهي تردد:

- ستحقق كل أمانيك. فقط احرص على نفسك.

في أول أيامي كنت طوال الوقت أظل قابعاً في الحوش لا أعمل شيئاً سوى الجلوس واجماً، أقلب بصري بتشتت. رقت خيرية لحالي. كانت تأتيني وتقدم لي بعض الفطائر وتمس شعري بيديها:

- لماذا لا تخرج لتلعب؟

سمعها طاهر ففار كإبريق انتظر طويلاً فوق نار حامية وصاح بها:

- هذا الصبي لم يخلق للّعب، فاتركيه وشأنه.

- وهل يعجبك أن يظل زاوياً هكذا.

- دعيه وشأنه، فأنا أبحث له عن عمل.

ظللت على هذا الحال لعشرة أيام، أستيقظ لأجلس في البيت. أتطلع لعواطف وحياة وهما تعملان بشؤون البيت أو تشاركان زميلاتهما اللعب، فأشعر بالخجل من نظراتهن وضحكاتهن المسترسلة وهنَّ يتطلعن باتجاهي، فأبحث لي عن مكان يبعدني عن عيونهن، وأحوم بداخل البيت كطائر لا يجيد الطيران. يعتريني خجل بكر كلما أحسست أنهن يتغامزن عليَّ. كنت أعرف أنهن يقصدنني بنظراتهن المائلة حين تكون عواطف محتدمة معهن في الكلام. وفي أوقات كثيرة تتركهن وتأتي لتجلس معي. كانت خيرية تعاملني بلين لكنها تغضب لرؤية عواطف وهي معي فتزجرها بعنف:

- هيا يا بنت العبي مع البنات.

فتتحرك صوب زميلاتها بينما عيناها مصوبتان نحوي، في حين تكون حياة منشغلة عن نظراتي بألعابها التي لا تنتهي.

انتظمت في العمل ومضت شهور طويلة أذهب وأعود كالميت فلا شيء يحرك بداخلي البهجة، فأعود ليلاً، أستأنس بمصاحبة القهوجي ياسين أبو شنب الذي يسكن في أول الحي، وعندما تمتد خطواتي لداخل الحارة تنبت مخاوفي فأظل أتربص بالأزقة وصور شتى من الاحتمالات تداهم مخيلتي، فأظل طوال الطريق أقرأ القرآن، وأستعيذ من كل مكروه.

كنت أحترز دائماً ألاّ أعبر من بعض الأزقة حيث تتطوح القامات وتدلق خدرها وهي تمسك بقوارير خمس خمسات. عند تلك

الأزقة أسلم قدميّ للركض ولا أجيب أي صوت يناديني. كنت خائفاً أن تتعلق يد أحدهم بظهري.

أدير المفتاح بباب البرندة وأغلقه، وأرتمي لاهثاً حتى إذا هدأ خوفي أتفقد ما حولي.

وفي كل ليلة أجد صحناً أعد بعناية وتنوعت أكلاته ألتهمه على عجل دون أن أفكر فيمن أعده، وأنام وأنا أستمع للراديو. وفي أحيان تهيجني أغنية عابرة فأنام ممسكاً بدموعي.

ومع توالي الأيام أصبحت عودتي من المقهى ومكوثي مستمعاً للراديو أنساً أطرب له وأظل للهزيع الأخير من الليل مترنماً بأغنيات تبثها إذاعة القاهرة.

مع الصباح الباكر تكون ثمة عينان تتربصان بي من خلف الشقوق الضيقة المنتشرة بالبرندة، فتطردان النوم من مخدعي لأنهض، وقبل أن أخرج لرؤيتها تكون قد اختفت.

- إنها هي.

أهتف لداخلي بهذا الهاجس فيتسع صدري انشراحاً وأغدو أكثر بهجة من أي وقت مضى.

في أوقات كثيرة أظل جالساً وعبوس الغربة يفترش وجهي ويملأ فمي بالتأفف والضيق، فلا أجد مناصاً من تبديده باستعادة أغنيات حملتها مخيلتي من حقول قريتنا البعيدة، وفي أحيان ترديد تلك الأغنيات الشجية التي يرددها طاهر، فأسمع خيرية تردد:

- أصبح بيتنا محفلاً لأغاني البكاء.

ذات ظهيرة جاءتني عواطف وفتحت نافذة كانت مغلقة عني:

- لماذا لا تكتب لأمك تخبرها عن حالك.

- كتابتي ضعيفة ولا أعرف أحداً أرسل معه رسالتي.

- الصدفة يكتب رسائل تبكي الحجر، إنه يكتب لمن يريد.. إذهب إليه، وسوف أتدبر أمر إرسالها.

- كلامه كثير فقد سألته عن خالتي ففتح لي أبواباً كثيرة.

- إذهب إليه وقل له أريد أن أكتب رسالة وستجده فرحاً بهذا.

- ماذا أقول له؟

- كل ما تود أن تخبر به أمك.

- ودفعتني للخارج برجاء حار.

⊛ ⊛ ⊛

كان يجلس كعادته تحت عمارة بخش. ترددت في الإقدام عليه. وعندما رآني أشار بيده لأن أتقدم:

- هل وجدت المرأة التي تبحث عنها؟

استقبلني بهذه الجملة فرددت ببرود:

- لا.

- مسير الحي يتلاقى.

كان يجلس جلسته المعتادة، رابطاً شاله على ظهره وعاقداً طرفه على ركبتيه، ويهتز وكأنه يتأرجح:

- لا تبتئس كثيراً.

- !!!!

- .... فأنا أمضيت سنوات طويلة أنتظر ولا زلت. لكن

الخوف أن من تبحث عنهم أسقطوك من حياتهم.. ساعتها سيكون انتظارك غباء لا فائدة منه.

- !!!!

- لماذا أنت صامت؟

- !!!!!

- عش وكأنك مع من تحب. ساعتها لن تشعر بالبعد.

- !!!!

- لماذا تقف هكذا صامتاً كبنت عذراء خطبها كهل.

غمغمت بكلمات غير مسموعة فتطلع لساعته الصليب وردد:

- لا زال الوقت مبكراً على موعد عملك، إلى أين ذاهب.

- جئت إليك.

- لتسأل عن تلك المرأة، أعرف أن أباك قاس في أحيان كثيرة. لكن لا عليك.. سأبحث معك حتى تجدها.

كنت أتطلع للسانه الذي لا يستقر في فمه بشيء من الجفاء، فقربني إليه بتودد:

- دعني أفطر ونخرج للبحث عنها.

تململت وتمتمت:

- جئتك من أجل أمر آخر.

- (تراني سداد) قل ما هو؟

- أريدك أن تكتب لي رسالة لأمي.

تسمر في جلسته وهو يتفحصني:

ـ أوَ لا تعرف الكتابة؟

ـ لا.

ـ صاح بانفعال:

ـ انتهى زمن العتالة فالزمن القادم زمن علم، وعليك أن تتعلم.

ـ الآن أريدك أن يكتب لي الرسالة وسأتعلم فيما بعد.

ـ والله لن يكتب الرسالة إلا أنت حتى ولو بعد سنة.

وجذبني من يدي ووقف أمام مدير مدرسة الفلاح لتزكيتي.

❀ ❀ ❀

وجدت نفسي منتظماً في مدرسة الفلاح، فقد خطفني الصدفة من يدي ووقف أمام مدير المدرسة لتزكيتي بلغة عربية تتقافز عجمتها:

ـ هذا ولد نجيب ولا بد أن يدرس.

ولم يترك للمدير فرصة لأن يقول شيئاً وقد تعهد بجلب أوراقي الرسمية خلال أيام.

تركني بداخل المدرسة أتلفت كالضائع أبحث عن ألفة جديدة بين مجموعة كبيرة من الطلاب. كان منظري بائساً وترددي واضحاً، دفع بي مدير المدرسة لأستاذ الدين لتحديد مكاني داخل الفصول. وقفت أمام الأستاذ عبد الجواد خير متلعثماً حين سألني عن بعض الفرائض، قال بصوت رصين تخالطه بحة خلقت معه، على ما يبدو:

ـ قبل أن أسألك في شيء عليك بحضور حلقات الدرس التي

تعقد بالمسجد لتقوية ضعفك.

هززت رأسي موافقاً، فأبدى استياء من صمتي وقبل أن يتركني سألني:

ـ أتحفظ شيئاً من القرآن؟

رددت على الفور: أحفظه كاملاً.

نظر إليّ غير مصدق: أوَ تحسبني سأترك مقولتك تذهب هكذا، أسمعني من قوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور﴾.

استعذت من الشيطان الرجيم وتلوت على قراءة عاصم:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم.....﴾.

استحسن صوتي وتجويدي، وأخذ يتنقل بي في سور القرآن وأنا أقرأ بقراءات مختلفة، عندها فقط التفت إليّ مباركاً ومهنئاً وشد على كتفي:

ـ ستكون من خيرة الطلاب.

وتعهدني بعنايته.

حين عاد طاهر من سفرته وعلم ما حدث ذهب للصدفة وتخاصما لبعض الوقت. كان طاهر يردد:

ـ يحيى جاء ليعمل لا ليقرأ ويكتب.

فبادله الصدفة الصياح:

ـ والله إنك رجل غريب تحرمه من أمه ومن نور العلم.

ـ قلت لك لا شأن لك.

ـ أشك في أنك أبوه، فليس من أب يحمل قسوتك.

ـ يا صدفة لا تتدخل فيما لا يعنيك، وهذا الصبي لا بد أن يعمل.

وجدت نفسي أتدخل بصوت ضعيف مرتعش:

ـ سأعمل بالليل.

خفتت حدة طاهر وتعالى صوت الصدفة:

ـ غداً عليك أن توصل أوراقه الرسمية للمدرسة.

ـ وأي أوراق رسمية!

ـ طلب بالالتحاق بالمدرسة وصورة من التابعية.

ـ لكن يحيى ليس مسجلاً بها.

ـ ألست تقول انه ابنك؟

ـ بلى.

ـ وإلى الآن لم تلحقه بالتابعية.. يا لغفلتك، اتقِ الله في هذه الأمانة.

كان طاهر ينظر إليه بحنق، بينما كان الصدفة يجذبه من يده:

ـ قم فأنا أمون على أبي فاطمة سيلحقه بتابعيتك وأنت واقف.

وقفت أنظر إليهما حتى غيبتهما الأزقة الملتوية، وبعدها بأيام قلائل أصبح اسمي الرسمي: يحيى طاهر محمد الوصابي، وإن كانت تنازعه ألقاب كثيرة حصلت عليها من خلال العمل في المقاهي، ولم أعد أعرف إلا باللقب البوري.

❀ ❀ ❀

وبدأت أتعلم، كنت أعمل ليلاً، وفي الصباح أقف في طابور المدرسة مغشياً عليّ من شدة النعاس.

حفظي للقرآن سهل مهمة أن أتعلم بسرعة متناهية، كان طاهر دائماً يبدي تذمره:

ـ وما فائدة أن يتعلم الإنسان؟.. على الرجل أن يتعلم كيف يجلب رزقه، أما أن تبقى طول اليوم تقرأ، فهذا الذي لا أحبه لك!!

وبعد عدة أشهر كنت أكتب بدون أخطاء، جئت لعواطف فرحاً، قلت لها:

ـ كتبت رسالة لأمي. لكن لا أعرف مع من أرسلها.

قفزت فرحة ورددت بحبور:

ـ أبي يعرف كل شيء، إسأله.

جاء من سفرته الأخيرة أكثر مكابدة ووجداً بمن يبحث عنها. كان ذابلاً كعروق نبتة أخرجت من أرضها وظلت لأيام ملقاة في العراء، وقفت أمامه:

ـ أريد أن أرسل هذه الرسالة لأمي.

طرفت عيناه بوميض مدهش، وتمتم:

ـ أرسلها.

ـ لا أعرف أحداً يوصلها.

حك شاربه، وتناول رسالتي، وأعادها إليَّ وتمتم:

ـ اقرأها عليَّ.

وما أن انتهيت من قراءتها حتى وقف معترضاً:

ـ هل هذه رسالة ابن غائب عن أمه ثلاث سنوات ونصف ويريد أن يفرحها بدل أن يغم قلبها.

ـ هذا الذي شعرت به.

ـ اجلس واكتب.

تناولت ورقة بيضاء ناصعة، وأخذت أكتب وهو يملي عليَّ:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمي الحنون مريم بنت خالد

سلمك الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أنا في أحسن حال، وقد منَّ الله عليَّ وسخر لي رجلاً كان لي الأب والأخ في هذه الغربة، فبعد موت جدتي قررت ألاّ أعود إلا وأنا أسوق أمامي قوافل الذهب، وأطمئنك أنني بخير وفي عافية، سؤالي الدائم عن صحتكم الغالية.

أفيدكم أنني أصبحت أعمل وأتعلم أيضاً، ولن تحتاجي لأحد

بعد اليوم. فأنا سوف أتكفل بإرسال كل شيء لك.

يصلك مع حامل هذا الخطاب خمسون ريالاً عربياً، وسوف أرسل لكم في الأيام القادمة مبلغاً آخر. سلامي للجميع وخاصة إخوتي، فاطمة وليلى وحسينة ويوسف.

ابنك البار

يحيى الغريب

حرر بتاريخ ٤ ـ ٥ ـ ١٣٧٩

وتناول الورقة وطواها ودسها بالظرف، وطالبني بوضع الخمسين ريالاً.

ـ كل نقودي بين يديك، إدفع لي مما أدخره عندك.

ـ لا تذكر تلك النقود أبداً فهي وديعة. لو ألفت الأخذ منها فلن تعود إلى أمك بما تحلم.

ـ ولكنني لا أحمل نقوداً. كلها معك.

ـ تصرف.

ـ ماذا أصنع؟

وأمام حيرتي ربت على كتفي متصنعاً الحزم:

ـ لا عليك سوف أقرضك المبلغ وعليك أن تسدده فيما بعد، وهذا يتطلب أن تبذل جهداً مضاعفاً للحصول على دخل مضاعف.

شعرت بالخجل منه ونهضت أقبل رأسه، فتركني وهو يردد:

ـ سوف تصل رسالتك خلال مدة وجيزة، أنا أعرف رجلاً

مسافراً لتلك النواحي وسأوصيه بإيصالها بنفسه، لا تهتم.

ولأول مرة أشعر بشيء من السعادة. كانت عواطف تكاد تطير وهي تراني على هذه الحالة، كانت في مواجهتي تقفز معي وفجأة ضمتني إليها فتخلصت من بين يديها بصورة منكرة وخجل عنيف يعترك بداخلي، وبدأت أتحاشى أن يجمعنا مكان واحد أو أن أبادلها النظرات. كنت أبحث عن عيني حياة في كل لحظة من اللحظات، لكنها كانت تذهب بهما بعيداً فأزداد شوقاً لرؤية حور عينيها، وزاد قلقي حينما لم تعد تلك العينان تتربصان بي من خلال شقوق البرندة.

❀ ❀ ❀

على غير عادة جاء طاهر فرحاً. كان وجهه يشع بفرح بكر، حضنني وكلماته تسابقه:

ـ تصور ماذا أحمل لك؟

لم يكن بذهني بارقة خير يمكن أن تأتي منه، فقد ألفت طبعه غير المبالي والمفرط في الأهمال، فرفعت كتفي ومطيت شفتي:

ـ لا أدري.

ـ فكر.

ـ عمل جديد.

ضحك بجفاف ودس يده لجيبه وأخرج مظروفاً مهلهلاً:

ـ أنظر.

أحسست بقلبي يخفق وأنفاسي تتسارع:

ـ ماذا؟. . جواب.

هز رأسه، ودفعه إليّ، فتحته على عجل، وقرأت:

بسم الله الرحمن الرحيم

الابن الحبيب يحيى الغريب

المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لا تتصور مقدار فرحتنا بجوابك، فقد سعدت به سعادة بالغة، ومررت على كل بيت بالقرية أخبرهم بخطابك، والذي أثلج صدري النقود التي بعثتها إلينا وأتمنى أن تعمل وتعمل من أجل إخوتك، وإياك أن تفكر بالعودة فنحن محتاجون لعملك لكي تبعث لنا بما نحتاج.

الابن يحيى:

يظهر أن طاهر الذي حدثتني عنه في كتابك هو رجل طيب، فسر معه واسمع كلامه وإياك أن تخالفه، بحق طاعتي عليك لا تخالف له رأياً، فالكبير كبير يا ابني.

يحيى:

أخبرك أن خالتك انتقلت إلى مدينة الرياض وهي مدينة تبعد كثيراً عن جدة ونصيحتي لك أن تبقى مع طاهر، فقد سألت عنه الرجل الذي أوصل جوابك وعلمت أنه رجل فاضل يحب عمل الخير، فامكث معه ولا تلق بنفسك في التهلكة بسفرك الطويل لخالتك. ولو فكرت بالسفر للرياض فلن تصلها بسهولة وكل الذي أخشاه عليك أن تبتلعك الصحراء أو أن تقاد إلى حظيرة الرقيق وتصبح عبداً ساعتها سأموت من الكمد، فعليك بملازمة طاهر كظله واسمع ما يقول دون معارضة.

ابني يحيى:

نريد منك مبلغاً من المال فنحن في أحوج حاجة إليه، نتمنى أن تبعثه مع الرجل الذي بعثت معه الخمسين ريالاً السابقة، فهو رجل

أمين، وكل شهر وهو بالقرية لأن له تجارة عندنا، لا تنس أن تبعث معه بالنقود.

الابن يحيى:

لا أوصيك.. اسمع كلام طاهر في كل شيء، وتقبل سلام اخوانك فاطمة وليلى وحسينة ويوسف.

أمك مريم التي تحبك

حرر بتاريخ ٧ ـ ٨ ـ ١٣٧٩

شعرت بالسعادة تغمرني، فأخذت أصفق وأقفز عالياً، وأقبل طاهر، وأصيح بزوجته:

ـ أنظري، جواب من عند أمي. إنها سعيدة جداً.

وقف طاهر في مواجهتي ومد إليّ بورقة:

ـ ما هذه؟

ـ أكتب أنني أقرضتك.

ـ متى؟

ـ أوَ تنسى بسرعة.. الخمسين ريالاً التي بعثت بها لأمك. لقد تأكدت من وصولها.

ـ أوه، نسيت.

وكتبت له، فطواها وخبأها في جيبه:

ـ الآن عليك أن تضاعف من عملك فأمك محتاجة للمال.

ـ نعم سوف أوفر لهم كل ما يطلبون.

ـ وقبل ذلك عليك أن تسدد دينك، وتدفع الخمسين التي في ذمتك.

ـ حسناً.

ـ هيا.

ـ الآن؟

ـ نعم الآن.

ـ خذ من مالي الذي عندك.

ـ ألم نتفق أن تلك وديعة لا تمس؟

ـ ومن أين أحضر لك بخمسين ريالاً.

ـ دبر أمرك، وتعلم أن لا تبات وفي ذمتك دين لأحد، وكي لا تكون هذه الورقة شفرة على عنقك، وأشار للورقة التي كتبت فيها تعهدي بدفع الدين الذي بعنقي، سمعته يردد:

ـ أنا أعلمك وعليك أن تحذر من كل شيء.

شعرت بخسته فجأة، وطوال الطريق إلى المقهى وأنا أفكر في تقلباته التي لا تخطر ببال، وتغيبت لساعات وعدت أحمل في يدي مائة ريال ودفعتها إليه:

ـ خمسون ريالاً، الدين الذي عليّ، والخمسون الأخرى أبعث بها لأمي، وسأكتب لك كتاباً.

ـ ها أنت تثبت رجولتك، ولكن من أين لك كل هذه النقود؟

ـ اقترضتها.

ـ وهل هناك من يقرض مثل هذا المبلغ؟

❁ ❁ ❁

وقفت أمام صاحب المقهى متوسلاً:

ـ أريدك أن تقرضني مبلغ مائة ريال.

تطلع لوجهي باحتقار:

ـ مائة ريال دفعة واحدة.

ـ نعم.

ـ وماذا تريد أن تصنع به؟ هل تريد أن تشتري السوق؟

ـ أبعث بها لأمي.

ضحك فاهتز كرشه عالياً:

ـ لو بعت هذه القهوة وصبيانها معها ما حصلت على مائة ريال.

كنت أرجوه بحرارة، فدفعني صائحاً:

ـ إذهب وانجز عملك، فالزبائن ينتظرون الطلبات.

ـ ولكن حاجتي ملحة.

ـ قلت لك لو عملت ثلاثة أشهر متوالية ما سددت هذا المبلغ.

وصرخ بقوة لأتحرك من أمامه منكسراً، تلقفني قدورة:

ـ لماذا يصرخ بك المعلم؟

وجدت نفسي أسكب على مسامعه نتفاً من مشكلتي، فمد يده إلى جيبه:

ـ هذه مائة ريال تصرف بها وغداً عليك بمغادرة هذه القهوة.

دس المبلغ بجيبي، وخرجت لأمنحه لطاهر كي يبعث بنصفه لأمي، وأصبحت أعمل ليل نهار لكي أوفي بالتزامي. وفي كل مرة أكتب خطاباً وأبعث لأمي بالنقود.

الفصل السابع

ديك شرس يخرج من بين الماء نافشاً ريشه وخامشاً الأرض ينقم حبيبات خضراء، يمشي بعجلة وعرفه الأحمر يتدلى على رأسه الصغير، عيناها الصافيتان لا تستقران على موضع.

دجاج وصوص يبتعدان عن خطواته، أعجبني منظره. صفقت له، التفت صوبي واقترب مني. نقم أظفاري فتقرحت وسال دود مسود له أرجل مشوكة ابتلعه بشراهة. ومضى ينقم أطرافي فأسقط بجواره نصف جثة. ألمح رأسي يتدحرج فيتبعني، يستقر رأسي بجوار حظيرة الدجاج وينغش الدود من فتحات رأسي، فيصيح الديك ليتجمع كل الدجاج والصوص على هامتي، فقأ إحدى عيني فقفزت من محجرها كحبة عنب خسئة، وحين هم بفقء عيني الأخرى صحت بعنف، فتجمع طاهر وزوجته وبنتاه، كانت خيرية تضع رأسي على صدرها وتقرأ المعوذات وصوت طاهر يصر:

ـ ماذا بك؟

ـ!!!!!!!

قالت عواطف بإشفاق: إستعذ بالله.

شعرت بالخجل حين وجدت نفسي مغروساً في صدر خيرية فسحبت نفسي مردداً:

ـ هذا الكابوس يعاودني من ليلتين.

فضحكت خيرية:

ـ لو أنك جلست لأقرأ لك طالعك لخففت عنك.

صاح طاهر بضيق:

ـ أنت تقتربين من الخرف قبل الأوان.

حدجته بنظرة خاطفة قصيرة، وعقبت:

ـ هناك أناس لا زالوا يمارسون أعمال الشباب بينما رأسهم ابيض وهمتهم بردت.

طفر الغضب من عيني طاهر:

ـ تنبهي لما تقولين، فنحن لسنا وحدنا.

وأمر ابنتيه بالمغادرة وأمسك شعر خيرية بعنف:

ـ لو أحرق شعري البياض فسأظل فحلاً. كل ما في الأمر أنني أعافك من زمن بعيد.

لم تكن خيرية مكترثة بشد شعرها أو حديثه عن فحولته، كانت تنظر إليّ في خجل مما يقول:

ـ استح يا رجل فضحتنا.

ـ الآن أستحي؟ أين كان حياؤك حين قلتِ ما قلتِ؟

فاندفعت من أمامه واضعة يدها على فمها، بينما تبعها وهو يلعنها في كل كتاب، وجلست في سريري متلهفاً لرؤية عيني حياة.

❀ ❀ ❀

زوجة طاهر فترت ودأبت على المكوث تحت ظل البرندة الكبيرة تقلب أوراق الكوتشينة وتتسلى بقراءة الغيب.

في البدء كانت تسلي نفسها، وحين أقبلت عليها جاراتها مستحسنات أخبار أوراقها المقلوبة انتعشت وأخذت تصدق كل كلمة تتفوه بها، وكلما جاءتها إحدى جاراتها أخذت تعدد لها ما سيحدث في الغد.

كانت تدعوني لقراءة بختي فانشغل عنها، وبعد أن كبر وهمها استوقفتني متسائلة:

ـ هل تظنني كاذبة؟

ـ . . . .

ـ . . . . والله إني أشعر أن أحداً يتفوه بما أقول، فتعال أخبرك بأخبار أمك.

بعد عدة دعوات جلست أمامها. كنت فقط أريد إشعارها بالحرائق التي بداخلي، قلت لها:

ـ أحب فتاة وأريد أن أعرف هل تبادلني الحب.

فتحت عينيها على اتساعهما وضحكت بعمق وهي تهش بيدها في اتجاهي:

ـ هل عرفت هذا الداء؟

فهززت رأسي. خبطتني على كتفي ونثرت أوراقها، وطالبتني بسحب ولد السبيت ـ وفعلت كما أمرت ـ وضعته بيدي وقربته من أنفاسي ووشوشت له برغباتي، فاختطفته من يدي وغرسته بين الأوراق و«فنطت» أوراقها، تطلعت لوجهي بتأمل مفتعل:

- ثلاث نساء يقتربن منك، اثنتان تحبانك والثالثة تنأى عنك وستحبك عندما تنأى عنها. وأنت تبتعد عنهن جميعاً، تحلم بالمال وتأخذ منه الكثير لكن لن يصل بك إلى مكان. وهناك طائر لن يعتقك أبداً، أنظر..

فجأة قلبت الورق وتمتمت:

- طالعك صعب ولن أستطيع أن أخبرك أكثر مما أخبرتك.

اعتراني الفضول ورجوتها أن تواصل قراءتها، فناولتني ورقة أخرى، وأعادت القول نفسه بإضافات طفيفة، فتركتها دون أن أعتذر منها فصاحت:

- صدقني يا يحيى طالعك وعر.

فضحكت ورددت عليها:

- عندما يصبح منبسطاً أخبريني.

وبعد زمن أحسست بمطاردة عيني لابنتها حياة فاقتربت مني هامسة:

- دع هذا الطريق، فطالعك صعب يا يحيى!

❀ ❀ ❀

شيء ما يحترق.

أحسست بتوتر أعضائي، ورغبة ملحة لأن أمسك بامرأة.

- يكفي.

هتفت به، وهو منهمك في وصف مغامرته الليلية والتي انتهت بنشوة احتلت كل مفاصله. لم يزدجر وواصل وصف تلك المغامرة الليلية.

- هل ترغب في أن تجرب.

شعرت بالارتباك، ولذت بالصمت، وإن كانت عيناي تشيان برغبة دفينة، قال بحزم:

- الليلة نذهب سوياً.

- إلى أين؟

- ستعرف فيما بعد، فقط عليك إحضار خمسة ريالات.

مع الغروب، وقف عمر النقمة أمامي وهتف محرضاً:

- هيا.

- والعمل.

- لن تتغيب كثيراً.

أحسست بأنني أسير وراءه مسلوب الإرادة، كنا نخترق الأزقة، ووصياه تتطاير:

- نطرق الباب ونمضي ثم نعود فنجده مفتوحاً.. لا تنسى.. إياك أن تتراجع.

بلغنا زقاقاً ضيقاً لا يكاد يسمح لاثنين بالسير، طرق الباب طرقاً منغماً سريعاً وواصلنا السير، وقبل أن نبلغ منتهى الزقاق عدنا فوجدنا الباب موارباً، دسسنا جسدينا للداخل بعجلة. كانت تقف كبقرة وحشية ضفائرها سرحت بنمنمة بديعة. جذبتنا وأدخلتنا لغرفة شبه مظلمة تطايرت أبخرتها الافريقية النفاذة، وبسطت بخسف جدل بإتقان وتدلت من على الجدران معلقات فاقعة الألوان، وثمة فراش بقي مهيئاً للمضاجعة غطي بلحاف ناصع البياض، لكزتني بكتفها بغنج:

ـ من منكم سيبدأ أولاً.

دفعني عمر:

ـ هذا.

ونغزها في خاصرتها التي طفحت بالشحم وتثنت بتعرجات بشعة:

ـ لا زال بكراً. عليك أن تعلميه كل شيء.

ضحكت فبان سن ذهبي تغلغل بداخل فمها وتحدثت بعجمة واضحة:

ـ هذه النوعية متعبة ولا بد أن يدفع عشرة ريالات.

ـ سيكون زبونك الدائم.

خرج عمر وبقيت بمفردي معها، كانت روائحها النفاذة تخنقني ورغبة مجنونة تدفعني إليها. حوطتني بذراعيها، أحسست بجسد رخو انغرس به كالقطن ودفعتني للفراش الممدود، وغبت في لهاث انتهى بصرخة مكتومة وطفح جرى بيننا. كنت مغروساً بها وهي تلزني لزاً، فدفعتها وخرجت مسرعاً بالرغم من صرخات عمر التي كانت تتبعني:

ـ انتظرني حتى أنتهي.

شيء ما يحترق.

ظللت لأيام ثلاثة أشعر أنني دنس، كنت أدخل للحمام وأصب الماء صباً، وأدعك جسدي بقطع صابون ذابت بين محاشمي، وفي كل مرة أحس بذلك الطفح يسيل بين فخذي ويغرقني في مساحة شاسعة من الدنس.

جاء عمر النقمة مصطحباً شاباً دقيق الملامح عيناه واسعتان

وسوداوان تغريان بالتأمل في حدقتيهما، وله ابتسامة عذبة فترت على فمه باسترخاء، صافحني عمر بحرارة، وعرفني على مرافقه:

ـ صالح مستعجل.

فضغط على يدي وبقيت ابتسامته متأرجحة بين شفتيه فيما واصل عمر حديثه:

ـ صالح راغب في التعرف عليك وهو يسعى لهذا.

ارتبك صالح فجأة وعقب:

ـ سمعت عنك.

وتلعثم مرة أخرى وهو يبحث عن كلمات هربت من لسانه:

ـ لم أسع، عفواً.. حدثني عنك عمر فأحببت التعرف عليك فأنا أثق بأصدقاء عمر.

تدخل عمر بالحديث:

ـ أين أنت بعد تلك الليلة. لقد أفزعت المرأة.

حاولت أن أثنيه عن مواصلة حديثه، لكنه واصل:

ـ ما دام صالح سيكون صديقنا المشترك فلا بد أن أخبره بحكايتك على أقل تقدير. ستكسر هذه الحكاية تحرجكما من بعض.

وتمادى في سرد تفاصيل تلك الليلة واصفاً لصالح كيف أنه سمع صراخ نشوتي وكيف انطلقت راكضاً لا ألوي على شيء. علق صالح بخبث:

ـ يبدو أنه أول مرة يصل.

ـ يا شيخ هذا غشيم، لقد روت لي أنه أتعبها.

ودس فمه في أذن صالح ليكمل له ما حدث، وانفرط الاثنان في ضحكة محمومة.

فأحسست أنني أهوي وأهوي إلى قرار سحيق من الدنس.

شيء ما يحترق.

لكي أوفي بطلبات أمي أصبحت أعمل ورديتين متتابعتين.

كل ليلة أعود مع قرابة الفجر، وآوي إلى هذا الركن القصي من الحوش، أقذف بجسدي وأنام، لم يعد هناك وقت. لن أفكر بغربتي.

في أحيان كثيرة نتأقلم مع أحزاننا ولوعتنا ويصبح الراهن حياة لا تريد أن تستبدلها، أو لا تريد أن تجدد جراحك القديمة. في أوقات كنت منسجماً مع نفسي، أقتات لوعتي القديمة وأبتلعها كما تبتلعني أيامي المتسارعة.

ـ عد بسرعة.

لم تعد هذه التوصية تبكيني، بل تشعرني بالغيظ وتتآمر مخيلتي مع هواجسي في إضرام حنقي:

ـ لو أنها تحبك ما أخرجتك وأنت لا تزال صغيراً، كما أن رسالتها كانت متلهفة للمال ولا شيء غير المال.

ظللت أياماً أبكي لهذه الوحدة، حتى سكنتني. فلم أعد أطيق فراقها. وسعيت لتطبيق جملتها بتلك الرسالة:

ـ إياك أن تعود يا يحيى فنحن بحاجة لعملك، اعمل وابعث لنا بالنقود.

أصبحت مكلفاً بالعمل. ليس لي من دور في هذه الدنيا سوى العمل.

شيء ما يحترق.

ـ هل أستطيع أن أحدثها؟

تجمح على الدوام، فأزداد تعلقاً بدلالها.

ـ لماذا نحنُّ للنساء إذا عصفت بنا الوحدة؟

كنت أضع هذا السؤال أمامي كلما وجدت نفسي وحيداً أقتات ذكريات قديمة، ولا أجد جواباً شافياً.

في برندة قذفت في حوش واسع، كنت أمضي أكثر الوقت، وثمة عينان تتربصان بي من بين تلك الشقوق فيعتريني الحبور وأهجس:

ـ إنها هي.

وافتعل كثيراً من الحركات التي توهم من يتطلب إليّ بامتلاكي لروح طيبة. كانت تشاركني هذه الصندقة قطة جلبتها من المقهى، وكلما لمحت تلك العينين تتربصان بي ألامس جلد قطتي وأبثها لواعجي، فأسمع تنهيدات تلك العينين، وأحس بقلبي يخفق وأدندن بالأغاني.

يومياً في الصباح، وقبل دخول الأصيل، ألمح تلك العينين تخترقان وحدتي وتجالساني. وعندما يخطر بالبال أنها هي تصبح قامتي عالية والمكان مساحة رحبة وأغدو طائراً يخفق بجناحيه الفضاء.

جاس بداخلي إحساس غريب، سرى بخدر ولوعة. رؤية عينيها تصيبني بارتباك ويتصبب عرقي، وأتلعثم كلما حدثتها. فأهرب من أمامها كلما جمعنا مكان، وأعود أبحث عنها.

عيناها واسعتان تلتهمان ما تصادفانه وتتركانه جنة خضراء. تخطت الثامنة عشرة للتو ففارت مفاتنها ونضجت بصدرها غيمتان

وتدلت من شفتيها جمرتان ملتهبتان تزمهما بغنج، وتترك يدها صاعدة هابطة للقبض على غرتها وتنسيقها على جبين استوى واتسق مع وجنتين ممتلئتين بالأنوثة.

ـ لو لم تكن بها هذه الأنفة!

في أحيان كثيرة ألوم نفسي لكلمة بدرت من داخلي، وأظل متخاصماً معها لوقت طويل، وكلما حاولت أن أكبح جماحها يفيق بداخلي ذلك الإحساس فتغلبني نفسي على أمري فأعاود الحماقات نفسها ويتكرر التقريع واللوم. لم تكن تأبه بتحديقي بعينيها، شيء مهمل ألقي في طريقها فتعبره يومياً بلا اكتراث.

كنت في زيارة لحامد ببيت سيده، استقبلني استقبالاً حافلاً، وظللت عنده لبعض الوقت. وقبل أن أخرج رأيت وردة بيضاء تختال على غصنها، وقفت بجوارها أتلمسها، ضحك حامد بخبث:

ـ أتحب الورد؟

ـ نعم أحبه.

خبطني على ظهري:

ـ لا أقصدك أنت.

ـ تقصد من؟

ـ تلك التي تحدثني عنها.

ـ لا أعرف ماذا تحب وماذا تكره.

امتدت يده لتلك الوردة وقطفها وهو يضحك:

ـ جرب واعطها.. فالنساء يحببن الهدايا.

أمسكت بالوردة وعدت فرحاً. كانت تجلس بجوار الشيش

تتطلع للشارع بلهفة، دخلت وناولتها الوردة، قذفت بها جانباً وتمتمت:

ـ ألا تذهب لعملك؟ أم أنك تتسور جدران الناس لقطف ورودهم.

أحسست بشيء حاد يخترق أحشائي وينمو كرهاً بغيضاً لنفسي. توقفت عن التطلع لعينيها. كنت أمني نفسي أن تتراجع عن كبريائها.

بعد هذا الموقف بليلتين كنت أجلس بالبرندة كعادتي وسمعت صراخها فانطلقت فزعاً لأراها، كان مسمار صدئ قد انغرس بقدمها فحاولت جذبه فطوحت بيدي:

ـ قلت لك ألف مرة لا أريدك أن تفعل شيئاً من أجلي.

تركتها وعدت إلى داخل البرندة، لتلحق بي عواطف وهي تعتذر:

ـ لا تغضب من حياة فهذه عادتها.

كان اعتذارها عن تصرفات أختها جافاً، ولم تكن كسابق عهدها. سألتها:

ـ وأنت ماذا بك؟

ـ لا شيء.

ألححت عليها فطفرت دموعها فجأة:

ـ كنت أنتظر أن تعطيني الوردة.

ومضت مسرعة تغالب دموعها المتساقطة. بدأت أحس بها، وتلوعني عينا حياة، تلك العينان اللتان تجتاحاني وتتركاني موجة مبعثرة تحاول جمع نفسها على شاطئ قريب.

الفصل الثامن

في المقهى تتطاير الكلمات، والقفشات وأدخنة الشيش، وشيء ما يفوح من هناك له طعم الحلم. حكايات مبتورة، وأغان ركيكة، ومزاح ثقيل. لعب، وسعال ونظرات، وعشق نام وعشق تيبس في الذاكرة.

أشكال وألوان مختلفة من البشر يتقاربون في مقاعدهم ويتعارفون ويشعلون الليل بكلام عابر، وضحكات عذاب.

ألفت كل شيء هنا، وغدوت جزءاً من المكان، ألفت خصام المعلم وطرده لي، وإعادتي للعمل بجاهات وتوصيات ممن يعرفه وممن له حظوة من زبائن المقهى. وتآلفت مع تلك الصيحات الغاضبة والمازحة والطالبة والسائلة. تآلفت مع كل شيء حتى تلك النبزة التي أطلقها عليَّ آدم التكروني والتي كنت أتذمر منها وأسعى جاهداً للتخلص منها، أصبحت تمثل شخصية أخرى أعيش بها ولها نمطها وعاداتها التي تآلف معها زبائن المقهى، كنت أسير بالمقهى صائحاً:

ـ وعندك واحد بوري(٢٢).

---

(٢٢) في أقصى الجنوب، وتحديداً في المناطق التهامية المحاذية للحدود اليمنية، يطلقون لفظة بوري عل الشيشة، أما في الحجاز فإن لفظة بوري تعني صوت بوق السيارة.

وأمط لفظة بوري بصوت صارخ، فتخلق لدى رواد المقهى شيئاً من السخرية أو تكون باعثاً للضحك، ونسي الناس نبزتي القديمة وأصبحوا ينادوني بـ (البوري).

اغتظت من هذه التسمية، وحاولت التخلص منها بتحذيرات واهية كنت أطلقها على مسامع من يناديني بالبوري، وكلما تماديت في غضبي تمادوا في تعليقها على مسامعي. وعندما لم أجد مناصاً من الإذعان لهذا المسمى الجديد أصبحت أعجب لمن لا يناديني بتلك النبزة.

كنت منسجماً مع عملي الذي يبدأ مع الغروب إلى ما بعد منتصف الليل بقليل، فيشع المكان بالبهجة وتنثال الضحكات صافية ريانة، بينما تجلس مجموعة من الشباب في ركن منعزل من المقهى يديرون أحاديثهم بصمت، وفي أحيان كثيرة يحتد جدلهم وينتهي بإسكات بعضهم بعضاً.

كان قدوري أكثرهم عذوبة، فعندما يحدثك تتمنى ألاّ يوقف حديثه، وكنت أقوم على طلباتهم بنفسي، فأسمع منه كلمات رقيقة مهذبة فانجذبت إليه وأصبح يربطنا ود كبير، وزاد حبه في قلبي حين نقدني مائة ريال لأفك ضيقتي.. ومضت الأيام دون أن يطالب باسترجاعها، سألني ذات مرة:

ـ هل تقرأ؟

ـ قليلاً.

ـ أشعر أنك لم تخلق لهذا العمل.

ـ!!!!

ـ... عليك أن تبحث لك عن فرصة أخرى.

ـ لا أعرف شيئاً.

ـ تعلم.

ـ أنا أدرس في الصباح.

ـ عظيم... عظيم، وعليك أن تقرأ كثيراً وتفهم ما يدور حولك.

ومنحني عدة كتب كنت ألتهمها وأعيدها له، مطالباً بالمزيد.

قال لأصدقائه ذات مرة حين وقفت لتلبية طلباتهم:

ـ هذا القهوجي أفضل من أناس كثيرين تدب في الأرض ولا تفهم ما يدور حولها.

شعرت بالزهو. لكن رفيقهم حسن لم يمكنني من مد قامتي طويلاً، فقد عقب على مقولة قدوري بإشارة مستخفة من يده:

ـ هذا؟

ـ نعم هذا.

لوى حسن فمه باستنكار:

ـ هذا الذي يمشي صائحاً بوري بوري يفهم؟ أشك في ذلك.

فهز قدوري رأسه وعيناه مثبتتان بوجه حسن الذي أكمل حديثه:

ـ.... أنت تسبغ عليه حلة أكبر من حجمه، هذا إذا فلح يمكن أن يصبح صاحب مقهى.

شعرت باحتقاره يجري في دمي، فتبادلنا نظرات عدائية، لأسمع أبو عزة يتدخل بجملة قصيرة:

ـ هناك كثيرون أفضل منا فلا تنقص الناس أقدارهم.

فضحك أسعد أبو الليل وضرب كفاً بكف:

ـ هذه هي الناصرية بواري وأبواق، ألم أقل أنكم تجمعون الأبواق فقط لتعزفوا بها.

عدت لتلبية الطلبات، بينما كنت أرمق قدوري يعنف حسن. وقبل أن يغادرا المقهى دس قدوري في يدي كتاباً وهو يوصيني:

ـ اقرأه ولا تدع أحداً يراه.

عدت إلى البيت، كان طاهر قد ابتنى لي برندة صغيرة في آخر الحوش، ملأتها بمستلزمات متواضعة. فراش وسرير وغطاء وصحارة. وأصبحت هذه البرندة هي المأوى الذي أستكين إليه، عدت ممسكاً بكتاب قدوري ومتلهفاً لقراءته ووصيته ترن بأذني:

ـ لا تدع أحداً يراه.

كان عنوان الكتاب عريضاً يمتد على ورقة جلدت من الخارج بدقيق وجمعت دفتي الكتاب بورق مقوى ذائب. قرأت العنوان بتمهل (القومية العربية). وبدأت أقرأ. . كانت كلمات كثيرة تتسرب من مخيلتي دون أن أعي ماهيتها، وظللت أقرأه لعدة أيام، ووجدت نفسي أردد بعض الكلمات مع أصدقاء وأبتهج بما يبتهجون.

قال قدوري لأصدقائه:

ـ لقد كسبنا قهوجياً قومياً.

وأسر لهم بقراءتي لعدة كتب أعارني إياها، فنهضوا لمصافحتي. وحين عرفوا بحماسي الشديد لكلماتهم التي كانوا يدسونها في آذان بعضهم زاد تقديري لديهم وإن ظل حسن متحفظاً معي.

كانت عين المعلم معنا، وبعد أن عدت كانت عيناه تعبثان

بمخيلتي. أهملته تماماً وتشاغلت بتجهيز الشيش، أشار لي بالاقتراب من مجلسه. تحركت صوبه بتخاذل:

ـ يبدو أنهم يحبونك.

ـ!!!!!

ـ لماذا لا ترد؟

ـ وأنا أحبهم.

ندت من فمه ابتسامة ساخرة وقال مستفسراً:

ـ دع الحب جانباً، لماذا يصافحونك؟

ـ يعرفون قدري.

كركر بعمق:

ـ قدرك، وما هو قدرك؟. . انتبه! هؤلاء الشباب من أسر غنية وتحميهم أسرهم مهما فعلوا، بينما أبوك لا يقدر على حماية نفسه.

وعندما وجدني صامتاً ردد:

ـ إقبالهم عليك يجعلني أشك بك.

ـ تشك في ماذا؟

ـ أنت تتساهل معهم في الحساب ولهذا هم يحبونك.

ـ قبل قليل قلت إنهم من أسر غنية، أي أنهم ليسوا في حاجة للقروش القليلة التي يقدمونها لك.

لمعت عيناه بمكر:

ـ نعم لا يمكن أن يجمعكم هذا السبب والأرجح أنك تعمل على إشباع رغباتهم.

ـ أنت كالبهيمة لا تفكر إلا بما تحت نواجذك أو ما بين فخذيك.

قذف بالي الملتصق بشفتيه وفز من جلسته وصفعني على صدغي:

ـ تذكر أنك صبي.

كان هجومي مفاجئاً، لم يتوقعه البتة. فقد انطلقت غارساً رأسي ببطنه بقوة فسقط على الأرض جاذباً معه الطاولة والشيشة فتناثر الجمر على جسده وظل يستغيث ببقية صبيانه ويلعن الساعة التي جعلته يقبل بي أجيراً عنده. تجمع حولنا نزلاء المقهى وأحاطت بي ثلة الشباب وفي مقدمهم قدوري، بينما ظل صبيان المقهى يسكبون الماء على المعلم لإطفاء تلك الجمرات التي استقرت على جسده، ولم يستطع المعلم أن يعود للشجار معي واكتفى بأن طالب جميع القهوجية بأن يهفوا على حروقه الملتهبة، وهو يصيح بحنق:

ـ والله لن أعيدك للعمل معي حتى لو قبلت قدمي. ولن أقبل فيك شفيعاً هذه المرة أبداً.

وعندما أحس أنه لم يشف غليله صاح:

ـ منذ أن رأيتك قلت انك لا تصلح إلا للمضاجعة.

وصاح بالقهوجية المتجمهرين على رقدته:

ـ صبوا الماء هنا.. لا بل هنا، صبوا الماء على كل جسمي.

وأخذ يتأوه ويهف بيديه على جروحه النابتة. وعندما وجد مرزوق القهوجي معلمه على تلك الحالة أبدى كثيراً من الامتعاض المفتعل، وظل لسانه يذرف الكلمات ويحاول الوصول إليَّ، بينما

وقف في وجهه وجدي وعمر. ولكي لا يفوت على نفسه فرصة إظهار محبته لمعلمه صاح بي:

ـ أمن أجل مجموعة فاسدة ليس لها إلا الكلام تفعل بمعلمك هذا الفعل؟

فصحت فيه:

ـ يابو زبيبة أذنك من فين[٢٣].

واشتدت ملاسنتنا وأخذنا نتفكك من الأيدي الممسكة بنا، وكل واحد منا يعد خصمه بسحق عظامه، فوقف قدوري أمام مرزوق وخاطبه بلين محاولاً تهدئته بالتربيت على كتفه فنظر إليه إسماعيل بعين باردة:

ـ أنت الوحيد الذي استخسرك في هذه المجموعة.

فرد وجدي بزهو:

ـ وأنت الوحيد الذي لا تفهم ما يدور حولك.

وتبادلا السباب لوقت قصير، لينهض المعلم من سقطته عاري الصدر بعد أن مزق ثوبه وفانلته وتبلل بالماء وفمه يقذف حمماً من الشتائم اختتمها بقسم غليظ:

ـ محرم عليكم دخول هذا المقهى.

---

(٢٣) أبو زبيبة إشارة للعبودية. وأبو زبيبة تطلق على العبيد ذوي البشرة الغامقة، فيقال فلان أبو زبيبة إشاره إلى أنه عبد، وإذا أراد شخص أن يضرب مثلاً على فساد عقلية العبد قال:
أذنك من فين، وهذا المثل دلالة على حكاية لا أعرف بالتحديد مصدرها تنص أن عبداً سئل: أين أذنك فلف يده حول عنقه وأمسك بالأذن البعيدة عن يده، ويدلّل بهذا المثل على فساد عقلية العبد.

وأمر صبيانه بإخراجنا بالقوة، تدافعونا أمامهم كالقطيع المنفلت وصياح المعلم يتعالى:

ـ سأعرف كيف أقتص لنفسي.

كنت حزيناً لهذا الموقف، فقد عرضتهم لما يكرهون. وعندما رآني وجدي واجماً علق يديه بكتفي مهوناً مصيبتي:

ـ لا تحزن، جهز نفسك في الغد لتعمل بدكان أبي بدلاً من هذه المهنة التي لا تليق بك.

في صبيحة اليوم التالي كنت أقف بدكان الأفندي، ونسيت طريق المدرسة، غرقت بين الأعشاب وخلطاتها وبدأت أتعلم سر مهنة العطارة، أظل طوال الوقت أستمع لشكوى الزبائن وتقديم الأعشاب المناسبة لكل علة بمساعدة رجل هندي يعمل منذ عشر سنوات في هذه المهنة وقد أوصاه وجدي أن يعلمني كل أسرار هذه المهنة.

في المساء أنضم للشباب بمقهى آخر استبدلناه عوضاً عن المقهى الذي كنت أعمل به، واجتذبت معي عمر النقمة وصالح مستعجل، وفيما بعد دعوت حامد لأن يكون معنا.

كان حامد يأتينا لبعض الوقت حين يكون سيده بمكة ويجلس للحظات مجاوراً خوفه وعجلته، وسرعان ما يغادر المقهى قبل أن يجف أول الكلام فأصبح محطة تندر لشباب (البشكة)، وأطلق عليه عزيز لقب (الحمامة). فلم يكن يأبه بتلك النبزة، وظل على تخوفه في كل مرة يأتي للمقهى وعندما علم عزيز بقصة حامد حضنه مخففاً عنه ومعتذراً عما سلف من الاستخفاف به وعلق:

ـ لن يخلصك من عبوديتك إلا شخص مثل أبراهام لنكولن.

كان ردي يفتقر للكياسة والتريث حين صحت بحماسة وبأسئلة حمقاء متلاحقة:

ـ أين هو لنكولن هذا؟.. تعرفونه؟.. دعوني أقابله لأرجوه أن يساعد حامد.

تضاحكوا بصوت صاخب، وتمادى حسن في إظهار اغتباطه بالاستلقاء على ظهره وقذف قدميه في الهواء وهو يحاول إسكات ضحكاته، وقبل أن تنضب قهقهاته ردد بكلمات مقطعة:

ـ هذا هو (الفلتة) الذي تعدنا به يا قدوري، فضحتنا مع ضيوفنا.

تبسم اثنان كان يجلسان بمحاذاة وجدي، وأطلق أحدهم ضحكة جافة:

ـ أنتم لا تبتعدون كثيراً عن صاحبكم. تخلطون كل شيء وتظنون أن لنكولن بائع خردوات في الحراج. شعرت بكل العيون تقتحمني واحتقارها يسيل من أهدابها، وتبرع قدوري لتخفيف فجيعتهم بما تفوهت به:

ـ البوري من الطبقة الكادحة ولا يفهم كثيراً من الأمور، ومصيره يفهم ويعي كيف تسير الأمور. أوقفه الرجل نفسه بإشارة من يده:

ـ انتبه بقولك هذا تستعير مصطلحات الشيوعيين، وأنت لا تعلم أو أنكم تجمعون من تجدونه في الطريق.

عاد حسن لصرامته وردد بانفعال:

ـ هذا ليس منا.

أحسست بالضآلة، فأنهضني قدوري لخارج المقهى عندما رأى عيني تموجان بدمعة كبيرة، ومضى يتحدث مخففاً عني ومحاولاً إخراجي من وجومي الطافح على سحنتي:

- الناس تسخر من كل شيء، تريد أيّ شيء لتسخر منه، ليس عيباً أن تخطئ لكن العيب أن تستمر على هذا الخطأ ولكي تتجنب الأخطاء لا بد أن تتعلم.

كنت أستمع له وأنا أمسك بحسرتي وهواني، وشيء مر يعبر حنجرتي ويصيب كلماتي بالتيبس بينما واصل حديثه بثقة:

- العظماء لا تغير طرقهم الألسن المعوجة.

كان يسكب كلمات كثيرة ويحثني على تخطي كل المعوقات التي من شأنها أن تؤخرني عن دوري القومي.

أول سؤال تبادر لذهني بينما كان حامد يسير معنا بصمت:

- من هو أبراهام لنكولن.

- (هذا زعيم أميركي ظهر في القرن الماضي علم نفسه طوال حياته ومارس المحاماة. اعتبر الرق ظلماً وشراً وقاوم اتساع نطاقه، ويعتبر محرر عبيد أميركا).

قفز حامد من الخلف:

- وهل سيحررنا؟

ظهر الغيظ على محيا قدوري، وأردف:

- أنتما لن تفهما بسرعة.

ومن أجل هذه الجملة قرأت كثيراً لأفهم، وبدأت أفهم شيئاً فشيئاً، وأسمع ترديد اسم جمال وأتابع خطبه وسياساته من خلال صوت العرب.

❀ ❀ ❀

كان جدالهم مرتفعاً وقد ارتج على بعضهم ما يحدث على الحدود. كنت أصغرهم ولم أستطع أن أسفه ما يقولون حتى وإن

أبديت رأياً فلم يكن يعتد به. كنا ثلاثة أشخاص نحضر هذا المجلس ويصفوننا بالناصريين الصغار (عمر النقمة، وصالح مستعجل، وأنا) ولم يكن لرأينا أي قيمة، فقد تركزت الآراء السديدة عن الناصرية عند قدوري ووجدي، فهما على حد زعمهما أكثر تشرباً بالناصرية لقربهما منها حين كانا متواجدين بالقاهرة لإنهاء دراستهما هناك. . فقدوري انضم لفئة الناصريين وتشبع بمبادئهم وأهدافهم، ووجدي كان يكتب في الجرائد المصرية باسم مستعار عن زعامة عبد الناصر وما يحمله للأمة العربية من وحدة قومية تجعل العرب يستعيدون أمجادهم الغابرة.

هما فقط صاحبا الرأي المثمن من قبل المجموعة ويعتبر قولهما المحطة الأخيرة لتلك الآراء التي تنسكب من تلك الأفواه المتروية في جلستها بمقهى اتسعت أطرافه.

فجأة طالب وجدي جميع المجموعة بالالتقاء في منزله بالشرفية. كان الجميع يعرف سبب تلك الدعوة باستثناء الناصريين الصغار. فقد جلسنا نسمع ونسكب دهشتنا مع كل رأي ينطلق في فضاء المكان. كنت حريصاً على الانتباه. فقد اكتشفت أنني أجيد الحفظ أكثر من الفهم، فركزت لأحفظ كل كلمة يتفوهون بها لكي أعود إلى البرندة وأستعيد مقولاتهم علني أصل إلى شيء يزحزح ظنونهم ويعزز قيمتي عندهم.

اجتمعنا ببيت وجدي بعد صلاة العشاء، كانت وجوه المجتمعين تشي بالقلق والتوتر وكانت كل الأفواه تمضغ الكلمات وتدمغها على أنها الحقيقة التي لا ريب فيها.

كان الاختلاف محتدماً. بينما تناثرت بعض قصاصات الجرائد المصرية على أرضية الغرفة التي نجلس بها.

هدأ وجدي تلك الكلمات المتضاربة ورحب بالمجموعة المتنوعة

والمتباينة ونوه بابتسامة صافية تخالطها غمزات سريعة وقصيرة:

ـ قد تجدون وجوهاً لأول مرة تشاركنا المجلس؛ فهؤلاء زملاء لنا نختلف معهم في التوجه وطريقة المعالجة ولكن لا بأس من تواجدهم معنا هذه الليلة لنقف على الرأي المعارض. ولكي نفهم بعضنا علينا أن نلتزم بالإصغاء لكل متحدث.

بدأ الحديث رجل بلحية كثة ووجه منبسط كابتسامته المسترخية بعد أن حرضه وجدي على الكلام:

ـ لنبدأ بسماع العجيلي فهو يمثل اليمين المعتدل.

اتسعت ابتسامة ذلك الرجل ومص شفتيه وتطلع في الوجوه مبتدئاً حديثه بذكر الله والثناء على رسوله وأخذ صوته يرتفع رويداً:

ـ لقد جاء الإسلام راسماً كل الخطوط التي يجب علينا كمسلمين اتباعها بينما صاحبكم يمد يده للسوفيات ويريدنا أن نؤمن بمقولاته، هذا أولاً. أما الأمر الآخر فإن دعوتكم تحمل طابعاً مناقضاً للدين حيث تجعلون القومية العربية مكان الإسلام وهذا الذي لن يحدث. فلربما تجد هذه الدعوة أرضاً خصبة عند المتحمسين لها والغافلين عن هذا الفصل لكنها لن تجد القبول عند الغالبية العظمى من الشعوب العربية. فمشروع القومية يفتقر إلى الديناميكية المحركة لها لكي تحقق وجودها. وأرى أن تحريكها لن يتم إلا بالاتكاء على الدين كمنطلق جوهري، والأمر الأكثر خطورة أن صاحبكم وضع يده بيد ملحدين وهذا يؤكد ابتعاده عن جوهر الإسلام.

قاطعه وجدي بلباقة معتذراً من الجميع للرد على العجيلي:

أولاً، القومية لم تطرح نفسها كبديل للإسلام وإنما هي دعوة لتوحيد الصف العربي في مواجهة قوى أخرى تسعى إلى تفتيت الصف العربي وجعله أصواتاً متفرقة، وهي بهذا تنادي بحق مشروع مثلها مثل

كثير من الدعوات التي ارتدت لجذورها، وارتدادنا لجذورنا العربية لا يعني بالضرورة النكوص عن العقيدة التي جاءت بلساننا، أما وضع يده بيد السوفيات فليس له دخل بالعقيدة فهذا عائد للتحالفات الدولية ضده، أو نسيتم العدوان الثلاثي بسرعة.

فتداخل معه خليل أبو الحدا:

ـ صاحبكم يفتقر للكياسة وصراخه وعجلته في إظهار أنه الزعيم الأوحد أديا إلى العدوان الثلاثي، فقد رغب في تحدي القوى العالمية ذات المصالح الجوهرية في المنطقة وجاء تحديه بشكل سافر حين تم تأميم قناة السويس، وهذا التصرف أضرَّ بمصالح دول عديدة. وما قامت به الدول الثلاث إنما يمثل رغبة الكبار في ضربه وتأديبه. كما أنه تناسى وقوف كثير من الدول العربية بجانبه ابان ذلك العدوان، حتى أن أميركا وقفت معه. . أنسيت إنذار أميركا؟ وموقف الدول العربية المشرف بالرغم من صراخه الذي كان يستهدفهم مباشرة؟ ونحن الذين أوقفنا تصدير النفط لفرنسا وبريطانيا من أجل خاطر عيونه؟ كل هذه الجمائل قابلها بالشتائم لا يقدم عليها رجل الشارع، فما بالك بسياسي يطرح نفسه رمزاً للوحدة.

رد عزيز بانفعال:

ـ يبدو أن أبا الحدا ينسى مسببات كل ما حدث ويعلق التحرش بأسباب واهية، إن الغرب ـ يا عزيزي ـ لا يريد رجلاً مثل جمال ولذلك حاول قص جناحيه قبل أن يحلق على هاماتهم وصوره في عيون القادة العرب على أنه الموت الذي جاء لينتزع أرواحهم من بروجها.

صاح أبو الحدا محتجاً:

ـ هذا الكلام المنمق لا يصلح في السياسة وأرى أن تكتب شعراً

خير لك من متابعة أخبار السياسة. السياسة ـ يا صاحبي ـ وقائع وتاريخ ولعبة توازن ومصالح. وقولك هذا قول مراهق يلعب بالكلمات.

تضرج وجه عزيز بألوان مختلطة وغدا فائراً:

ـ أنتم الذين تراهنون على الغد بالكلمات وتنسيقها، هل نسيت. . .

تدخل قدوري:

ـ لم نحضر إلى هنا للمماحكة. جئنا من أجل الوقوف على آخر الأخبار وما الذي يمكن أن يحدث بدون مزايدات أو الدخول في هتك بعضنا بهذه الصورة. نريد كلاماً موزوناً.

قال العجيلي: أحسنت. . فلتهدأوا قليلاً، وما دمتم ترون في صاحبكم موحداً عظيماً فلنعد لنماذج العالم ونطبق ما يفعله صاحبكم مع تجاربهم. هل أبدأ؟

ودون أن ينتظر من أحد الموافقة واصل حديثه:

ـ لنأخذ غاندي، هذا العظيم الذي يسعى لتوحيد قارته حافي القدمين ويجمع القلوب بالحب لا بالتهديدات ونسف الأرض، وبسمارك من قبله لم يكن محباً للدم كما هو صاحبكم، ولم يجوع شعبه من أجل هدف قصير المدى ولم. . .

قاطعه حسن:

ـ صلاح الدين حارب المسلمين والكفرة في الوقت نفسه من أجل وحدة الكيان.

قال العجيلي: لا تدخل صلاح الدين فيما نحن فيه، فصاحبكم

لن يصل إلى كعب صلاح الدين، وما قام به تدخل سافر في شؤون الغير.

فصاح حسن بوجدي:

ـ ما الذي جعلكم تسمحون لغير الناصريين بالحضور؟

رد قدوري بهدوء:

ـ يا حسن. . كلنا ننشد الصالح العام ومن نتوسم فيه الخير نسمع منه، ولا عليك من كلام الإخوة الأعداء فهم سيصبحون عما قريب في صفنا.

وضحك ضحكة قصيرة بادلها العجيلي بضحكة متسعة وهو يكركر:

ـ هذا بعدك.

كان سؤالي يلوب في مخيلتي ورغبة حادة لأن أقذفه على مسامعهم. فلم أكن أطيق البقاء ساكتاً بينما الكثيرون يتحدثون. كنت أريد أن أكسب وجوداً بصوتي. . انطلق سؤالي كسهم منكسر ندم على خروجه الناصريون العتاة:

ـ لماذا لا يعلن جمال الوحدة وينتهي كل شيء؟

كان سؤالاً ساذجاً تلقاه المستمعون ببرود، لكن أبا الحدا مسك السؤال ضاحكاً ومتهكماً:

ـ انظروا كيف تسطحون الأشياء، فقط يعلن الوحدة وينتهي كل شيء.

وضرب كفاً بكف:

- أي وحدة تتحدثون عنها ونحن لا نعرف بعضنا بعضاً ونحارب بعضنا بعضاً؟ أي وحدة وصاحبكم قد فشل مع سوريا! فهل تتصورون رجلاً ينادي بالوحدة العربية ويعجز عن تطبيقها بين دولته ودولة أخرى، حتى اليمن التي كانت طرفاً ثالثاً أقدمت على الدخول في هذه الوحدة الهشة حذراً من مقولات صاحبكم. وأتصور أن دخول الإمام أحمد في هذه المعاهدة إنما هو خوف من صراخ صاحبكم المنادي بضرورة التخلص من الحكومات الرجعية. ولأنه يبحث عن صوت يقف معه فقد استند على الجزائر عندما وجد أن سوريا انضمت للعراق في رفضها الاعتراف بزعامته لجناح اليسار العربي. ولأن الجزائر صوت واحد لا يحقق له نفث هيبته يلجأ الآن لليمن ليحقق أوهامه.. واختتم حديثه بتوصية حارة:

- دعوا الأحلام جانباً وتنبهوا! فصاحبكم سيحرقنا.

عقب وجدي بصوت أقرب للانفعال:

- الظرف لم يسمح بقيام الوحدة مع سوريا، وأي تجربة أو فكرة تخرج بأخطائها، كما أن الغرب يعمل بكل أدواته من أجل انهيار أي وحدة عربية وهذا مخطط له من اتفاقية سايكس - بيكو حين توزعوا العالم العربي، وتحمل الاتفاقية ضمنياً ألاّ تقوم وحدة عربية. وقولك أنه يتكئ على الجزائر أو اليمن فهذا حق من حقوقه، خاصة وأن حلف بغداد أنت تعلم من يقف خلفه.

- ماذا تعني؟

- أنسيت أن حلف بغداد ما هو إلا تنفيذ لرغبات الغرب وفي مقدمتهم بريطانيا وأميركا؟

قال محمد الوافي:

- دع التمحك بالغرب وتحويله إلى شماعة، فصاحبكم استند عليه في قيام ثورته لو أردت الحقيقة. فالملك فاروق عندما أصبح ورقة محروقة التفتوا فوجدوا في صاحبكم جنون السلطة ووضعوا نجيب في المقدمة فقط كتكتيك، لكن جنون السلطة قاده إلى مزالق كبيرة أهمها مناداته بالوحدة وهو غير قادر على تمثل الواقع. وأول الدروس الفاشلة التي ألقاها أنه لم يفلح مع دولة واحدة فكيف يريد أن يطبق الوحدة مع بقية العرب.

فر عزيز من صمته غاضباً:

- أمثالكم من لا يقدر شيئاً، كل ما يفعله الرجل تتحدث عنه بهذه البساطة.

رد أسعد أبو الليل:

- وأمثالكم يطبلون للهواء العابر ويعدونه مفخرة عظيمة.

وعقب العجيلي:

- بدل أن يرسل جنوده لليمن يرسلها لإسرائيل، وسيجد كل العرب معه بدون أن يحتاج لكل هذه الشعارات.

اغتاظ وجدي:

- هذا كلام ساذج وغياب عمّا يحاك في الخفاء.

وتدخل حسن بعشوائية صائحاً:

- وهل يحارب بمفرده، لا بد أن يوحد العالم العربي ثم يحارب.

قال أبو عيشة:

- لا أعرف من منكم قال إن صلاح الدين كان يحارب الكفرة

والمسلمين في الوقت نفسه، فلماذا لا يفعلها صاحبكم أم أنه يخاف على زعامته من السقوط.

رد وجدي:

ـ وهو ما يفعله الآن.

تنحنح النويري:

ـ لو سمحتم أريد أن أقول رأيي في صاحبكم.

صفق قدوري بحدة:

ـ الرجل الأحمر يريد أن يتحدث سيعيدنا لعصب الاقتصاد.

ضحك النويري وهو يتمتم:

ـ نعم فالاقتصاد سيد الأشياء ولا أتصور دولة فقيرة مهما كان زعيمها فذا قادراً على تحريك وتفعيل بقية العناصر لصالحه، ولا أخفيكم أن ظهوره كان مفرحاً لنا لكنه سرعان ما خيب الآمال. وأرى أن انحيازه للكتلة الشرقية ليس قناعة بمبادئها ولكن لظرفه السياسي، ودليل على تخبطه اندماجه بتكتل ثالث هو دول عدم الانحياز. وهذا دليل آخر أن الرجل يسعى لأهداف ليست منهجية وإنما قفزات خيال. والدليل الآن ما يحدث في اليمن، فقد سمعنا مساندته لثورة اليمن وتكبيد بلاده خسائر لا طاقة لها بتحملها.

وأمن العجيلي قائلاً:

ـ بالرغم من الاختلاف الحاد والجوهري مع المبادئ التي يعتنقها النويري لكنني أضم صوتي معه، فكيف لدولة مضعضعة أن تقف موقفاً عدائياً من جميع الدول سواء الغربية أو العربية وتستند على دولة فقيرة أيضاً.

قال حسن: أي دولة تقصد.

ـ هل تظن أن السوفيات دولة غنية، هي أفقر من حلفائها.

صاح النويري بالعجيلي: أختلف معك جذرياً فالسوفيات دولة عظمى.

ـ عظمى أو عظمة فهي لا تقدر على حماية مناصريها، ومن يحاول الخروج عليها تدق عنقه. ألم تسمع بموقفها مع حلفائها من دول أوروبا الشرقية.

اشتط النويري غضباً:

ـ أنتم تمثلون التخلف. تريدون القفز من تخلف إلى تخلف آخر بصورة يحاول إفهامكم أنها تمثل التقدمية.

وقبل أن يواصل رده رجاهم وجدي بلباقة للعودة للحديث الرئيسي:

ـ تذكروا أننا جئنا لتقييم الوضع الراهن وليس لفتح دفتر الحسابات. السؤال: هل من الممكن أن تقوم حرب على حدودنا؟

تبرع قدوري بالإجابة الأولى:

ـ لا.. هو أعقل من هذا.

فرد أبو عيشة:

ـ لا.. صاحبكم أهوج. ومن الممكن أن يفعلها وسنجد أنفسنا محترقين بمقولاته؟

وألقى العجيلي قنبلته:

ـ لو فعلها كيف سيكون موقفكم أنتم؟

فصمت الجميع، وتناسلوا بالخروج.

خرجنا أنا وقدوري وعزيز وحسن ونحنْ نتلفت خوفاً، وتفرقت بنا الطرق دون أن يودع أحدنا الآخر.

كانت أصواتهم تتعالى في مخيلتي وبقلبي حريق، ماذا لو قامت الحرب هناك؟ يا الله.. سيحطم كل أحلامي. فأنا على وشك أن أعود، أريد أن أرى قريتي كما تركتها، عليَّ أن أرحل، فلم أعد صغيراً. أستطيع أن أتدبر أمري، وأستطيع أيضاً أن أستثمر الأموال التي جمعتها. أوه.. هل أستطيع أن أغادر عيني حياة!

❁ ❁ ❁

كانت الأخبار التي تصلنا تنبئ بانفجار الحرب.

وقفت أمام قدوري أستشيره فأشار عليَّ بالعودة وحمل أسرتي لجدة وردد:

ـ التحليلات والواقع يفضيان بقيام الحرب عن قريب.

وقفت أمام طاهر:

ـ أريد نقودي.

ـ أي نقود؟

ـ التي أجمعتها عندك.

ـ وماذا تريد أن تصنع بها؟

ـ نويت العودة لأمي.

قال طاهر بثقة:

ـ لا يمكن أن تعود.

ـ لماذا؟

ـ ألا تسمع ما يحدث على الحدود.

ـ ما الذي يحدث؟

ـ لقد انفجرت الحرب.

❁ ❁ ❁

خاتلني طاهر وغادر جدة.

استدنت مبلغاً من الأصدقاء، واستأذنت الأفندي في الرحيل وعدت. كانت السيارة تهتز في سيرها المتكاسل ومحركها يئز برتابة وذاكرتي تسبقني بالالتقاء بالأحبة. وحسرة مرة تجري بالبال. كل شيء هناك ألمحه يقترب من أهدابي: قريتي وحقولها المتعبة ووجه أمي وشغب إخوتي وغنمتي الوحيدة، وفرحة الأعياد، وغناء الجمالة والمجلاب وسوق الحواتة. كل شيء ألمحه يدنو. لم أكن فرحاً بالعودة كما كنت أتوقع، فقد قتل تلك الفرحة خوف تمدد بين الضلوع، وحسرة أن أعود فارغ اليدين، والتياعي لعيني حياة وفزع الحرب التي تنامت على الحدود.

طوال الطريق كانت وصيتها القديمة تتقافز:

ـ ستعود وأنت تدفع أمامك قوافل الذهب.

الطريق طويل.. وأنا أجلس في مقعدي أهش أمامي سرباً من خوف شرس ينعق بالبال:

ـ لن تجد أحداً يستقبلك.

تنقلت الأجساد كنمل نشط بين العشش المتقاربة، وثمة حكاية جديدة تشغل مساءهم بالحديث والاستماع. قلة منهم كان يمتلك الحقيقة ويقدر ما حدث، أما البقية فقد تناقلوا الخبر كحكاية يبدأ بها

المساء جولته على تلك الأجساد المهلهلة. كان الكثير منهم لا يأبهون بما حدث ولا يعني لهم شيئاً سوى خلق جو جديد من الإثارة:

صوت ١: قامت ثورة في اليمن.

صوت ٢: وما هي الثورة؟

صوت ٣: سمعنا إن السلال قتل الإمام أحمد.

صوت ٤: الإمام أحمد مصوب من العام الفائت.

صوت ٣: يقولون قتله وهو مريض.

صوت ١: لا لا.. الإمام أحمد مات موتة ربه.

صوت ٣: لا والله يقولون قتله وهو على الفراش.

صوت ٥: يا غارة الله عليه ماذا فعل به؟

صوت ١: يريد جمهورية.

صوت ٦: وما هي الجمهورية؟

صوت ١: يعني تتجمهر.

صوت ٧: وماذا يعني تتجمهر؟

صوت ١: لا أدري.

صوت ٨: خلاص قتلوا الإمام أحمد وابنه.

صوت ١: يا جماعة الخير، الإمام أحمد مات موتة ربي، ونادوا بالبدر إماماً وسمعت خطبته في الراديو، سمعته يقول انه سيجعل اليمن سويسرا الشرق وانقلبوا عليه قبل ما يتم ثمانية أيام في حكمه، وسمعت من بعض الهاربين أن واحداً اسمه حسين السكري أطلق النار على البدر.

وقفز صوت ضئيل من آخر المجموعة:

ـ يقولون البدر مات وعاد عمه الحسن لليمن ليكون إماماً.

رد عليه من جاء بالخبر: لا لا، البدر هرب علينا فحسين السكري عندما أطلق النار على البدر تعطل زناد البندقية وتم القبض عليه، لكن العقيد عبد الله السلال اغتنم الفرصة ونادى بالجمهورية.

صوت ١٢: يقولون إن المدبر للثورة ضابط اسمه عبد الغني قتل أثناء المقاومة من رجال الإمامية.

صوت ١١: من قال لكم كل هذا الكلام.

صوت ١: راديو صوت العرب وبعض الهاربين من رجال الإمام.

صوت ٣: والبدر صحيح قتلوه.

صوت ١: أقول لك هرب علينا تقول قتلوه.

صوت ٤: ولد الإمام يهرب.

صوت ٣: مسكين، بعد الملك يصبح هارباً.

تأوه نفس الصوت بحرقة:

ـ ما دام مات أحمد وجناه[٢٤]، فلا بد أن شياطين الإنس قد تفلتوا.

صوت ١: ليتهم يتفلتون من كل مكان ويريحونا مما نحن فيه.

كان من يمتلك جهاز راديو يديره على إذاعة اليمن فتتصاعد

---

(٢٤) كان يطلق على الإمام أحمد حميد الدين إمام اليمن أيام المملكة المتوكلية لقب أحمد وَاجِنّاه إشارة لارتباطه بالجن وتسخيرهم لخدمته والدفاع عنه، خاصة بعد عدة محاولات لاغتياله دون أن تنجح تلك المحاولات. ويبدو أن ما قاله هذا الصوت هو اجترار لقصة سيدنا سليمان مع الجن.

الأناشيد الوطنية، وبين حين وآخر ترتفع خطابات حماسية تتناثر بها الكلمات فتصفق لها أكف نشوى لا تعرف سوى التصفيق، وتتمايل مع محمد مرشد ناجي وهو يتغنى:

يا طير يا رمادي   بكر غبش ينادي
أنا فدى السلال   وأنا فدى بلادي

فجأة تحولت قريتنا إلى مجموعات كبيرة من مناصري الإمام. كان تعاملنا معهم حذراً، فبعد أن أبدوا كثيراً من الامتعاض من عيوننا المبحلقة بهم بدهشة واستغراب، بدأنا نشعر أن الغد سيكون أكثر رهقاً. كان الجو مخيفاً وتناقل الناس أخباراً وحكايات مرعبة.

يقولون:

- ستقوم الحرب.

- حرب من مع من؟

- جمال أرسل جنوداً يحاربوننا.

- ويحاربوننا لماذا، هل نحن كفار؟

صوت آخر:

- أليس هو الذي يقول إنه سيحرر القدس؟

صوت ساخر:

- كنه يحسب القدس هنا.

- والله يقولون إنه أرسل جيوشاً ودبابات وطيارات لليمن ليحاربنا.

- الله.

- يا غارة الله عليه، ماذا عملنا له؟

- يقولون يريد البدر.

- وماذا يريد من البدر؟

- يريد تسليمه للسلال.

- وأين رجال صعدة، ألم يدافعوا عن إمامهم؟

- تفرقوا، نصف مع الجمهورية ونصف معه.

- صحيح في حرب.

- نسمع إنه في حرب.

- تقول ما ينقصنا إلا الحرب، فقد أكل الجوع كل شيء ولم يعد باقياً علينا إلا الحرب.

- دع هذا الكلام وتدبر أمرك.

اجتمعت كل القرية في فناء المسجد. كان الخطيب إسماعيل مرتبكاً وكأنه يقف لأول مرة على المنبر، وأوصى المجتمعين بالصبر والاحتساب. كانت الأسئلة متلاحقة وهو لا يعرف بماذا يجيب، وسرعان ما تحولت الاستفسارات إلى رعب وتواصت القرية بالهرب.

[جزء مما رواه عبد الله عمر ليحيى الغريب عند عودته]

❀ ❀ ❀

أعلنت الحرب

هكذا فجأة وجدنا أنفسنا في وضع جديد، وغادرت القرية أعشاشها بعد أن قدم حسن موسى من نجران. كانت حكاياته كفيلة بجعلنا جميعاً نفكر بالهرب.

فقد تناقل الناس حكاياته، وتعددت تلك الحكايات، وتقول أهل القرية كل واحد يروي ما عنده:

عبده إبراهيم:

فين تهرب، المصارية معهم مناظير يرونك وأنت داخل عشتك ولو كنت في ليل أحلك.

يحيى صمدي رداً على سؤال أطلقه أحد الفلاحين: ما هي الدبابات والقنابل؟

ـ الدبابات صفيح صلب لها أيادي تمسك بمن يهرب، والقنابل مثل الحبحب يرمونها من الطائرات تخرب البلد كلها.

ليلى عبدية تروي عن زوجها في مجلس ضم كثيراً من النساء:

ـ احضروا جنوداً كأنهم العماليق يسقطون من الطيارة على الأرض بواسطة شرشف دون أن يصاب أحد منهم بأذى.

وقال عمر أبو الكرايب: كانت الطائرات في نجران تحلق على ارتفاع منخفض وترمي كميات كبيرة من الحلوى، وعندما يخرج الناس لالتقاطها تمطرهم بقنابل تترك أجسادهم متناثرة..

وروت حفصة: البارحة جاء محمد ولدي يلوك حلاوى فأصابني الجنون. سألته من فين لك تالحلاوى. فقال لقيتها. وخفت تكون مسممة وجلست أنغره حتى طلع كل ما في بطنه، وكل لحظة أحس جسمه كنت خايفة يموت. أصل المصارية يرمون حلاوى من طائراتهم يقول جنودنا إنها... إنها حلاوى مسممة. وزاد من رعبنا تلك الحكايات التي رواها على مسامعنا حسن موسى العائد من نجران:

(في تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً عاودت الطائرات المصرية

الغارة الجديدة على نجران، وألقت قنابل مضيئة فوق البلد حتى أننا نرى الشوارع والبيوت والأشخاص كما لو كنا في منتصف النهار ثم أمطرت البلد وابلاً من القنابل والصواريخ، وكانت مهمة المقاومات الأرضية تتركز في إطفاء القنابل المضيئة وذلك عن طريق إطلاق القذائف عليها لتمزيقها وإسقاطها حتى لا تهتدي الطائرات المغيرة ليلاً على أهدافها، وفعلاً نجحت المقاومات الأرضية في القضاء عليها، وفي أثناء الغارة شعر الناس بهلع شديد وخاصة أنها الأولى من نوعها إذ لم يسبق أن جاءت غارة جوية في الليل ولأول مرة نعرف القنابل المضيئة.

وكان مدير الشرطة يجري في الشوارع ويحطم المصابيح والقناديل المعلقة في الشوارع والأسواق لكي لا تهتدي الطائرات إلى البلد عن طريق هذه المصابيح، وكان يحمل في جيبه مجموعة من عروق البصل ليسعف بها المصابين من الغازات السامة.

وقررت مجموعة منا أن تغادر البلد حيث لم يعد مكاناً آمناً ولا بد من الخروج إلى خارج البلد حيث تتوافر كهوف بمثابة ملاجئ فأخذنا أولادنا ومواد تموينية وقضينا ليلتنا بداخل تلك الكهوف.

وقد هجر معظم السكان البلد ولجأوا إلى سفوح الجبال بحثاً عن ملاجئ إذ كنا نتوقع مزيداً من الغارات، ومع إشراقة الصبح كانت عيوننا معلقة في السماء مترقبين غارة جوية[٢٥]. وفي هذا الجو عدت إلى قريتي لأحمل أولادي لمكان آخر أكثر أماناً.

---

(٢٥) في هذا الفصل استفدت من مذكرات شاهد عيان كان بنجران تم تحوير اسمه وإدخاله كأحد شخصية الرواية، وقد احتفظت بصفحتين من المذكرات، وعند كتابة هذا العمل لم أستطع تذكر المؤلف أو الكتاب.

- وأين عبد الله مبروك؟

- حاولت أن أصحبه معي لكنه تسلق مقبرة ونزل في أحد القبور، وقال لو جاءت منيتي فهذا قبري، ويبدو أنه من شدة الرعب مات في مكانه، ففي صباح الغارة عاد بعضنا لداخل المدينة فوجده ميتاً في مكانه، وقد تبقت يده خارج القبر بعد أن امتلأ القبر بالتراب، ويبدو أنه مات قبل أن يدفن نفسه.

ارتفع صوت زوجة عبد الله مبروك عالياً، فنهرها الإمام إسماعيل صائحاً:

- وفري صراخك يبدو أن الموتى سيكونون كثراً.

والتفت إلى حسن موسى متسائلاً:

- إلى أين ستتجه؟

- إلى جيزان فهي أكثر أماناً، ونحن هنا قريبون منهم.

وانطلقت مقولته بين أهالي القرية فحمل كل منهم أبناءه وانطلقوا هاربين باتجاه جيزان.

[جزء مما رواه عليّ بن أحمد ليحيى الغريب عند عودته]

حالة الحرب التي اجتاحت القرية كانت كفيلة بجعل الناس يسيرون وعيونهم زائغة وقلوبهم واجفة لا يستقرون على أمر، يتحركون وألسنتهم تهذي بكلمات لا يعرفونها وإن بقي سؤال مذعور غارق بينهم يتبادلونه بقلق:

- ماذا نصنع؟

حالة جديدة وفريدة أقلقت مرقدهم فهرب النوم من الأهداب

وركض الخوف في الأفئدة. وأطل شبح الموت من خلف الوادي، ووقف الجيش على الحدود.

مجموعة كبيرة من الناس تجمعت من كل حدب وصوب يرتدون الملابس الزيتية المبرطقة ويحتزمون بأسلحتهم، بينما ظلت عيونهم مبحلقة في الفراغ.

كنت أخرج في الصباح وأدور بينهم أسألهم عن أهل الحجاز، وقفت أمام الكثيرين ووقف معي سؤال واحد:

- هل رأيتم يحيى؟

فيتساءلون معي:

- من يحيى؟

- يحيى ابني.

- ماذا به؟

- خرج منذ سنوات ولم يعد هل رأيتموه؟

فتتنزه ضحكاتهم على وجوههم، وتتبعني سخريتهم، وكلما رأوني أقف بسؤالي بينهم تصايحوا:

- ابني يحيى.

ظنوا بي الجنون، يتركونني أهذي على مسامعهم طويلاً، ويتبرع بعضهم بحبك الحكايات عن يحيى. كنت ألمح غمزاتهم المستخفة وهم يروون حكاياتهم الوهمية، أظن أنني كنت وسيلة تسلية جيدة لهؤلاء العسكر.

عسكري طويل وله شارب كث:

ـ رأيت يحيى في مدينة الطائف وقال لي سلم لي على أمي.

عسكري مربوع ابيضّ شعره قبل الأوان:

ـ يحيى صديقي وقد تزوج وأنجب طفلين سمى أحدهما على اسمي.

عسكري قمحي اللون استقر شج غائر بوجنته:

ـ يحيى يسكن بجواري وقد أوصاني أن أسلم عليك.

عسكري تخاصمت عيناه وظل فمه يوزن احولالهما بابتسامة ثابتة:

ـ يحيى أصبح بائعاً للغنم ويوصيك أن ترسلي له كل الغنم الموجود بالقرية.

حكايات كثيرة نثروها على مسامعي، وفي كل حكاية أعيش للحظات وأكتشف أن ألسنتهم ابتعدت عن باب الحقيقة، فأعود لسؤالي:

ـ هل رأيتم ابني يحيى؟

بعضهم يصفه. وعندما أستنكر أوصافه يعيد وصفه كما وصفه لساني. بعضهم يقول إنه رآه ويطالبني بالبشارة.. حكايات كثيرة كنت أسمعها وأسعد بها وقبل أن أتم فرحتي أكتشف أن من أخبرني كان يكذب.

فتر لساني من ترديد اسمه بين العسكر ولم أيأس في أن أجده على أحد الألسن.

في إحدى المرات خرجت أسأل عنه بصحبة حسينة. وقفنا أمام

رجل «شرقي»[٢٦] تجاوز الأربعين أو وقف عليها، كان يزم عينيه ويتفحص وجه حسينة باشتهاء:

ـ هذه ابنتك؟

ـ نعم.

أحسست بعينيه الدوديتين تنخران جسد حسينة الغض، وقد ظهر كتفها الأيسر من خلال كرتة فاطمة الحمراء:

ـ أنا أستطيع أن أوصلك لابنك فأنا أعرف مكانه.

لم أصدقه. لكنه كان بارعاً في حبك حكاية جعلتني أتعلق بكلماته ووعوده ويبدو أنه حبك حكاياته من تلك الحكايات التي كنت أهذي بها للجنود. أصبحت أسيرة كذبته. يومياً آتيه وأقدم له الهدايا كي يكمل سيرة يحيى التي يعرفها، فكان يماطل كثيراً، واشترط أن يتزوج بحسينة لكي يوصلنا ليحيى. منحته «وجهي»[٢٧] أن أزوجه بحسينة إن أوصلني لابني، لكنه طلب الدخول بها قبل أن يوصلني للغالي فتركته وعدت للبيت ونار حامية تجري في عروقي.

وعندما علم جبريل بخروجي ووقوفي بين العسكر اشتط غضباً وأقسم أن يقطع قدمي لو خرجت مرة أخرى.

والتزمت بيتي، وإن كنت أتوق لكذبة أخرى أسمعها عن يحيى.

❀ ❀ ❀

---

(٢٦) في منطقة جيزان يقال لمن يأتي من نجد شرقي.

(٢٧) لك وجهي جملة قسم دون الإتيان بقسم صريح، فالقائل يكتفي بقوله: لك وجهي ويمرر سبابته من مفرق الرأس إلى الذقن بخط مستقيم، وعلى ما أظن أن لها جذراً أسطورياً كبقية مثل كثير من باقي الأفعال التي تمارس بالمنطقة.

أيام قلائل وارتبك كل شيء، فأخبار الحرب لم تعد أخباراً وتحولت قريتنا إلى موجات من الذعر كان خلالها الكل يسأل:

ـ ماذا نصنع؟

لم تكن هناك إجابة شافية، كلمات إسماعيل إمام المسجد كانت مبعثرة، وفي أحيان كثيرة حائرة، لم يحرص على تجويدها كما كان يفعل في خطب الجمعة والأعياد، وعندما أعياه ترديد جمل الصبر نفرت من بين شفتيه جملة حارقة:

ـ عليكم بالهرب.

فضج المسجد باللغط، وصمت صمتاً ثقيلاً ظننا أنه يهم بالهرب من حينه، ولكي لا يحدث ما توسوس به نفسه ثبت قدميه في الأرض غارزاً عصاه الطويلة التي يتوكأ عليها بين حرائج المنبر وأطلق صوته المتردد لإسكات المجتمعين بتذكيرهم بالابتلاء، وقبل أن يتمادى في خطبته يعود إليه ارتباكه وتشتته كلما سمع ذلك السؤال الغامض:

ـ ماذا نصنع؟

تركه المجتمعون معلقاً بعصاه واتجهوا صوب شيخ القرية، وزاد قلقهم حين علموا بسفره لجيزان. وقف ابنه الكبير مرحباً بهم فانبرى له عليّ بن أحمد:

ـ لم نأت لتضيفنا. أين أبوك؟

ارتبك ابن الشيخ وأجاب بعسر:

ـ تم استدعاؤه إلى هناك.

ـ استدعاؤه. . . أم هرب وتركنا للموت.

ـ يا عم عليّ نحن جميعاً هنا، فعيب عليك هذا القول.

قفز عبد الله عمر من أول الصفوف المجتمعة منفعلاً:

ـ ذهب ليجهز لكم المأوى.

وصاح بالمتجمهرين:

ـ صدق إسماعيل اهربوا لجيزان قبل أن يأكلكم الرصاص.

❀ ❀ ❀

ـ رأيت ابن عمك حمد.

فززت كالملدوغة ولم أصدق أذنيَّ وفاطمة تروي لي تلك الواقعة:

من الجهة الضيقة التي تقود إلى جبال الظوافرة حمير محملة ومن خلفها كان حمد يمتطي بغلة متعافية ويسوق أمامه تلك الحمير. كان يلف على رأسه شالاً ناصع البياض، ولم يكن مستقراً على دابته فالتفاتاته مستريبة، انحرف بحميره شرقاً صوب حقول العريني، وحين رأيته صحت به فرحة:

ـ حمد.

فأحكم شاله على وجهه ونهرني بصوت حاول تغييره:

ـ مَن حمد؟

ـ ماذا بك ألم تعرفني أنا فاطمة ابنة الغريب؟

ـ وماذا يعني لي اسمك حتى تذكرينه؟

ـ ألم تعرفني؟

ـ ومن تكونين؟

ـ قلت لك أنا فاطمة ابنة الغريب.

ـ أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

ـ حمد كف عن مزاحك.

ـ تأدبي يا بنت أنا لست من تقصدين.

ودفع حميره أمامه بعجل. كانت الحمير تسير بتثاقل تحت أكياس نفرت منها رؤوس مدببة كأنها خناجر مسنونة.

صحت بها:

ـ هل أنت متأكدة مما تقولين؟

ـ والله كما أقول لك وقد تركت حطبي بتلك الناحية وجئت لأخبرك.

لم أنتظر، خرجت صوب الناحية التي أخبرتني بها فاطمة، وسرت طويلاً ويقين غائر في ذاكرتي أنني سأجد عنده خبراً عن يحيى.

كان العسكر يتجمهرون حول حمير خرطت أكياسها وفتحت عن بنادق متعددة الأحجام بينما وقف بينهم حمد مكتوف اليدين، وعندما حاولت الاقتراب عن كثب نهرني بعض العسكر فتراجعت على كره، وصحت:

ـ حمد.. أين يحيى؟

كان صوتي واهناً، وظللت أنظر لما يحدث بعجب، وعلى عجل تحرك صوبي ذلك الرجل الشرقي الذي خطب حسينة وجذبني من يدي مبتعداً بي عن المكان:

ـ ما الذي جاء بك؟

ـ جئت لرؤية حمد.

ـ من حمد؟

ـ هذا الذي بينكم.

ـ عليك بمغادرة هذا المكان في الحال فليس ليحيى مكان هنا.

ـ ولكن!

ـ قلت لك ابتعدي من هنا قبل أن تصابي بأذى.

ـ ما الذي يحدث؟

قال بعجل:

ـ تم القبض على مهرب سلاح وإياك أن تدعي معرفتك به.

وعاد حثيثاً لمكانه وهو يوصيني بالابتعاد.

❀ ❀ ❀

ـ الحرب قادمة ولا بد من الرحيل.

قال جبريل جملته تلك وجلس شارداً.

ـ جميعنا.

ـ نعم.

ـ وأرضنا وبيوتنا نتركها لمن؟

ـ وهل تحتاج الجثث لبيوت تظللها؟

كان وجهه ضامراً منطفئاً، وعيناه شاردتين وأسنانه تقضم شفتيه الرقيقتين، وشيء ما يجري في دمائه بخبث، قلت جملتي بارتعاش ورعب من المجهول:

ـ إلى أين يمكن أن نمضي، ولماذا؟

ـ ليس لنا خيار سوى الرحيل.

ـ ولو عاد يحيى.

شعرت بضيقه الطافح من خلال عينيه وفمه الذي كان يدفع الكلمات دفعاً:

ـ الآن لم يعد هناك أي تفكير. يجب أن نخرج.

ـ ويحيى؟

حتى لو فكر يحيى بالعودة فلن يعود في مثل هذه الأيام وكل الخير أن نستعجل بالخروج.

ـ تلقي بنا في مدينة كبيرة لا نعرف بها أحداً. لنبقَ هنا ونحتكم بأمر الله.

ـ هنا بأمر الله وهناك بأمر الله لكن هناك أكثر أماناً.

ـ هنا نحن في بيوتنا وهناك أين سنبقى؟

ـ سننزل عند غيلان أخي زوجتي.

ـ غيلان. . أعرف زوجته لها نفس مرة وهي لا تقبل بزوجها وأولادها معها فكيف تستقبلنا ونحن بهذه الكثرة؟

ـ لا أظنها كما تصفين، وعلى أية حال سمعت أن هناك مضيفة كبيرة في صبيا وجيزان لمن لا يجد مكاناً.

ـ لكن!

ـ كفي مجادلة ألا ترين القرية خاوية؟ أم تودين البقاء بجوار الأشجار الواقفة؟

وكمن أنهى مهمة عصيبة وقف على باب العشة موصياً:

ـ لا تأخذي أي شيء معك.

ـ يا غارة الله يا جبريل أخرج بطولي.

مضى وهو يردد:

ـ بعد قليل سنرحل فتهيئي.

طريق طويل، ومجموعة من الدواب تخب بالفلاة. شيء ما كان يركض معنا، تكتشفه من عيون الهاربين. فالعيون تدلت من المحاجر وتخطف الطرقات خطفاً وإذا استرخت علقت ضوءها بالفضاء. والأعناق تدور في الاتجاهات، والقلوب تخفق برعبها والألسن تلهج بالدعوات أن يسلمنا الله من كل مكروه.

وفي منتصف الطريق وجدنا أنفسنا في حوض إحدى سيارات الجيش التي أقلتنا وخففت عنا عناء ترحال شاق ومتعب.

من بعيد ظهرت مدينة جيزان. كانت مدينة متحفزة لم تظن أنها ستصبح على صوت الطائرات وهي تقصف هدوءها وتشعل الخوف في قلوب أهلها ليخرجوا للدنيا بحثاً عن مأمن آخر.

❀ ❀ ❀

مشهد أول:

المكان: المنعرجات والسهول المؤدية لمدينة جيزان.

انصب الناس من كل الجهات، من القرى والبرور والجزر القريبة والأودية السحيقة وقصدوا جيزان، ليتبضعوا ويخزنوا مؤناً احتياطية لأيام قادمة لا يدرون إلى متى تمتد، يلتقون كمجموعات النمل في المنحدرات أو السهول وفي الطرقات يلتقون بسرعة متناهية ويتبادلون سؤالاً واحداً:

ـ متى تقوم الحرب؟

ولا ينتظرون الإجابة. يتشعبون في طرقاتهم، عائدون من جيزان أو ذاهبون إليها ويتواصون:

ـ أيام الحرب ستكون طويلة وعليك بتخزين كل ما تستطيع من مؤن.

مشهد ثانٍ:

المكان: مدينة جيزان.

الوقت ضحى رطب من يوم الجمعة.

في الميدان تناثر الباعة حول بضائعهم وتزاحم المشترون حول تلك البضائع. أكياس حبوب ودقيق وفول وتنكات ملئت بزيت السمسم والسمن والقاز. وكثر اللغط عن أجواء الحرب وهم يتزاحمون على تلك البضائع القليلة.

صوت ١: أريد كيساً من الدقيق.

صوت ٢: سوف أشتري كل ما لديك من حبوب.

بائع الحبوب الثاني: أعرف نيتك ولن أبيعك.

صوت ٣: أريد دقيقاً وسمناً وقازاً وكبريتاً.

صوت ٤: يا ناس خافوا الله ابقوا شيئاً للمساكين.

صوت ٢: كلنا مساكين.

بائع الحبوب الثالث:

ـ لم يعد سعر الحبوب كما كان. فمن يريد الشراء بالسعر الجديد فليتقدم.

صوت ٥: ألا يكفي الخوف الذي نحن فيه حتى تأتي أنت لتضيق علينا؟

بائع الحبوب الأول: من أراد الشراء بهذا السعر فليتقدم.

صوت ٦: وما هو السعر الجديد؟

بائع الحبوب الأول: الكيلة بعشرة ريالات.

صوت ٤: دقيقك مليء بالسوس وتنشرط.

بائع الحبوب الأول: غداً ستبحث عن هذا السوس.

صوت ٧: أوَ لم تسمع بقول الله ﴿ويل للمطففين...﴾.

بائع الحبوب الأول: أوَ لم تسمع أنت بنذير الحرب؟

صوت ٨: في هذه الحالة سنأخذ ما نحتاج إليه بالقوة.

صوت جماعي: نعم نأخذ بالقوة.

صوت الباعة: تراصوا وسيأخذ كل منكم نصيبه.

هرج ومرج وتزاحم وتدافع ودهس وصياح ونتف من البضائع تتخطفها الأيدي وشتائم تنتهي قبل أن تصل لتلك الأقدام المتراكضة بما تحمل.

مشهد ثالث:

المكان نفسه.

بعد الضحى.

تكوم المتبضعون حول الباعة وهم يتصارخون طلباً لحاجياتهم، وقد ذهبت معظم البضائع للقادرين وتبقى الكثيرون يبحثون عن شيء

من تلك البضائع التي تقاسمها القلة وابتلعتهم الدروب المتفرعة. من أول الميدان يظهر عبده حسن حاملاً بندقيته القديمة وعابراً السوق بخيلاء بينما كانت الألسن تتابعه بالأسئلة:

ـ هه! ما هي الأخبار؟

استأنس بالحفاوة التي حظي بها، فانطلق لسانه يذرف الكلمات بدون هدى:

ـ اطمئنوا.

صوت ١: كيف نطمئن والجيوش على الحدود.

عبده حسن: وهل تحملهم على ظهرك!

صوت ١: هذا يعني أن الحرب قادمة.

عبده حسن (باستعلاء): ستظل الحال كما هي عليه.

صوت ٢: يقولون المصارية عندهم قنابل.

أصوات مجتمعة تصيح بفزع: قنابل.

صوت ٣: لو رمونا أين نهرب، فالقنابل تصل لآخر الدنيا.

ينزل عبده حسن بندقيته من على عاتقه ويغرز كعبها بجوار قدميه ذات الحذائين المهترئين:

ـ تقول الإذاعات إنه لن يقدر على شيء.

رفع غيلان صوته في أثره:

ـ تسألون هذا الأهبل، وما يدريه؟

نظر إليه عبده حسن شزراً واندفع نحوه غاضباً:

ـ سأعلمك كيف تحترم أسيادك.

وهوى بكعب بندقيته على صدر غيلان الذي سقط يئن ليتجمهر

حولهما المشترون حاجزين عبده حسن عن مواصلة دق عظام غريمه.

كان صوت غيلان يرتفع متوجعاً والشتائم تتقافز من بين شدقيه:

ـ وهل أخبرتك زوجتك أو أمك بأنه لن يقدر!

فاشتط منه واستغل قرب قدميه الممددتين على الأرض وهرسهما بحذائه المهترئ.

⊛ ⊛ ⊛

بيت غيلان يضج بالأطفال.

كان نزولنا عليه مدعاة للتعب لنا وله، فقد حشرنا بداخل عشة واحدة، وظللنا نتبادل هواء رثاً ونتقاسم الأرغفة كما تتقاسمها الطيور الجوارح ونتبادل النظرات الصامتة بارتياب، نظرات سريعة مبتسرة تغض الطرف وتعود لأعماقها توسوس بتذمرها، وفي أحيان كثيرة بانكسارها، بينما ظلت أنفاس آمنة الضيقة تحرقنا. فقد أبدت تضجرها علانية. بادلت زوجها السباب ووصمته بالمغفل. كان يحاول إسكاتها وفحيحها يتعالى:

ـ في زمن يتبرأ المرء من أخيه تبتلينا بهذه الكومة من الأجساد.

ـ يا مرا خافي الله.

ـ من أين نجلب لهم ما يسد بطونهم.

ـ الله كريم.

ـ من يسمعك يظن بأنك مضياف. أنسيْت...

ـ يا مرا لا تخزيني مع ضيوفي.

ـ لا أخزيك ولا تخزيني. أنا لا أريد أحداً في بيتي.

ـ والله، والله لو لم تخرجهم لأذهبن لأهلي وأترك لك الجمل بما حمل.

ـ خافي الله يا مرا.

ـ لقد أخبرتك.

حاول كتم غيظه، وهو يقفز من الحوش لداخل العشة متمنياً ألاّ نسمع ما يدور بينهما. لكن أصواتهما المتطايرة وصلت لآذاننا فتكومنا على بعضنا ننظر لجبريل الذي أطرق صامتاً يخالس زوجته النظر، ويتأفف بضيق.

انتهى خصامهما بحملها لبيت أهلها، وظل غيلان يحاول استرضاءنا بابتسامته الشاردة، فقد اكتشف أن زوجته كانت تحمل عنه تعب أولئك الصبية الذين يتناوبون على البكاء فيحيلون المكان إلى صرير ينخر الرأس. ظلّت يداه تدوران على رؤوسهم بصفعات سريعة وصوته يذود ضيقاً طافحاً جرى على سحنته فأيبس تلك الابتسامة المعلقة. همست لزوجة جبريل:

ـ عليك أن تقنعي غيلان بإرجاع زوجته فنحن السبب في خروجها من بيتها.

وافقتني، واقتربت من أخيها راجية صفحه عن آمنة فوافق على الفور وردد:

ـ لن تقبل بالعودة. أنا أعرفها فهي تريد «رضوة»[(٢٨)] وأنا لا أملك شيئاً.

(٢٨) إذا غضبت الزوجة وغادرت لبيت أهلها فإن إرجاعها لبيت زوجها يتطلب من الزوج أن يقدم لها رضوة، والرضوة عبارة عن كسوة وذهب، وتختلف وفق إمكانية الزوج.

قلت له:

ـ دعنا نذهب أنا وأختك ونستسمحها.

ـ أتمنى أن تعود معكما.

قال جملته وانسحب لإسكات تلك الأفواه المفتوحة بالبكاء.

خرجت مع صالحة زوجة جبريل بصحبة عائشة ابنة غيلان الكبرى لإعادة أمها.

كانت الشوارع معبأة بالتوجس والخوف، وثمة عسكر انتشروا بالمدينة كالنحل، والناس يسيرون حاملين خوفهم بين أهدابهم ويمضغون الأخبار بلا مبالاة ويدفعون ضحكات جافة عبر هواء رطب. كنت أسير وعيناي تلتهمان تلك المدينة الصغيرة بشيء من الدهشة والغربة، وشعور بأن قدميّ يحيى عبرتا هذه الأماكن، فتزداد حرقتي ولوعتي، ولسان عائشة يوصلنا بالأماكن (هنا القلعة، هنا جبل الملح، هنا المسطاح، هنا الميدان، وهناك المطلع، وهنا....)، آه الميدان، هذا المكان الذي تاه منه الغالي. تسمرت أبحث عن رائحته عن وجهه بين تلك الوجوه الشابة التي تتقافز بمرحها وصخبها وتجري الحياة في أوردتها كمياه صافية غير عابئة بكدر أخبار الحرب.

جذبتني صالحة:

ـ لماذا توقفت؟

ـ هذا هو الميدان الذي ضاع فيه يحيى.

ـ ربنا يجبر خاطرك، دعنا نمضي قبل أن يساء الظن بوقوفك.

ـ رجلاي لا تطاوعاني.

كانت عائشة تنظر إليّ دون أن تفهم تفسيراً لهذا التخشب، يتقدمنا وتتراجع:

ـ بيت جدي في الساحل وليس هنا.

وتسحبنا وهي تنظر بدهشة:

ـ هل أعجبك الميدان؟

وعندما لا تجد إجابة تعاود جذبنا وهي تردد:

ـ بيت جدي في الساحل وليس هنا.

الميدان مزدحم، وأصوات الباعة تتعالى.. كنت أتمنى أن أوقف كل شخص هناك وأسأله عن يحيى، استجبت لجذب صالحة مكرهة. كنت أسير معهما وعنقي ملتوية صوب الميدان.

فجأة نفرت من بينهما وأخذت أركض بصعوبة صوب صبي لا يتجاوز عمره السبع سنوات امتطى ظهر حمار لا أنكره. نعم حمار أمي. ذلك الحمار الذي امتطته وهي مغادرة لمكة، لا يمكن أن يكون سواه. هو نفس الحمار، فرجله الأمامية المسلوخة وكأنها عضد رجل احترق، كنت أركض وأنادي على الصبي الذي توقف مستغرباً من امرأة تعدو خلفه وقد تخلت عن غطائها.

جذب الصبي لجام حماره وتطلع إليّ بدهشة يخالطها تردد بالمضي، أمسكت باللجام مع وصول صالحة وعائشة وهما تلهثان وتصيحان:

ـ ماذا جرى لك؟

أهملت لهاثهما وصيحاتهما وأمسكت بالصبي:

ـ لمن هذا الحمار؟

كان مستريباً، وعندما أعدت عليه السؤال أجاب مرتبكاً:

ـ حمارنا.

ـ من أين اشتريتموه؟

ـ لا أعرف.

ـ أنت ابن من؟

ـ!!!!!

ـ لا تخف قل ما اسمك؟

ـ اسمي طاهر.

ـ طاهر من؟

ـ طاهر صالح الحنوني.

ـ وأين تسكن؟

ـ في حي المسطاح.

ونغز حماره مبتعداً، وظللت أردد (صالح الحنوني) كي لا أنسى هذا الاسم، واستجبت لدفعات صالحة والذهاب لاسترضاء آمنة زوجة غيلان.

بينما كانت عائشة تروي كيف حرم صالح الحنوني من الذرية لسنوات طويلة حتى رزقه الله بهذا الغلام الذي أصبح أغلى من عينيه.

❁ ❁ ❁

صالح الحنوني.

هذا هو الخيط الذي سيوصلني لإبني. عدت للبيت أهذي بهذا الاسم ولم أكترث كثيراً بالمقابلة السيئة التي استقبلتنا بها آمنة ورفضها العودة لبيتها قبل أن تذل غيلان.

تخضعنا لها كثيراً، وبعد مجادلة وتقبيل رأسها مراراً رضيت أن تعود بعد أن أخبرتها صالحة أننا لن نمكث أكثر من يوم واحد، فعادت معنا ولسانها يحوك الشتائم المبطنة.

فكرت بالذهاب لبيت الحنوني مباشرة، لكن صالحة حدت من اندفاعي وهي تلومني بلطف:

ـ ليس من اللائق أن نذهب في مثل هذا الوقت خاصة وأننا لا نعرف الناس، فماذا سيقولون عنا. بصعوبة انجذبت لدفعاتها، وعدت للبيت منتظرة بزوغ الشمس، وكلما غفت عيناي أيقظتهما بتذكر ملامح يحيى، وخاطبتها:

ـ الغالي يقف على مقربة منك وأنت تغلقين أهدابك قبل أن تريه.

ظلتا تستجيبان لإغراءاتي، وفي آخر الليل هربتني معها في إغفاءة أكثر إغراء، أرتني يحيى وهو يقف أمامي مبتسماً بملابس نظيفة وشباب غض ماداً يديه ومحوطاً عليّ بذراعيه ويسكب لهفة حارقة:

ـ أخيراً رأيتك.

نهضت لأضمه لصدري فوقف بيننا جدار، وسمعت هديراً وأزيزاً عاليين ولمحت السماء تومض بأضواء لامعة وأشياء تتقصف بدوي وفرقعات وغبار يتعالى في سماء المدينة وحمم من نار تنسكب بين الشوارع.

⊛ ⊛ ⊛

مشهد سادس:

المكان: مدينة جيزان ـ حي المسطاح.

الوقت قبل صياح الديكة بقليل من فجر السبت.

طائرات تحلق فوق المدينة بمستوى منخفض في استدارة نصف قوس. أهل المدينة غارقون في نوم متقلب، أزيز الطائرات يقترب

وتلقي بقنابلها فيثور الدمار ويتطاير الغبار وأوصال من لحم آدمي تناثرت في كل الاتجاهات، وفزع أحرق المدينة، فخرج الناس يركضون في هيئات مختلفة لا يعرفون إلى أي الاتجاهات يمضون، فقط بقيت أصواتهم معلقة:

صوت ١: فعلها جمال.

صوت ٦: الجبان يهجم على مدينة نائمة.

صوت ٧٦: والله لقد رأيت الطائرات وكأنها تهم بالهبوط.

صوت ٤٥: هذا فعل الروس.

صوت ٥٨: الروس ما لنا وما لهم.

صوت ٧٤: لم يعد لنا مقام.

صوت ٨٧: اهربوا إلى صبيا.

صوت ٦٥: لا لا فرسان آمن.

صوت ٨٢: البر آمن.

تناثر الناس في كل الاتجاهات وذهب كثير منهم يجمع أوصال تلك الجثث من بين الأزقة والبيوت ليعيدوا لكل جثة أوصالها المتناثرة.

ووقف المتبقون في المدينة يتقبلون العزاء بدموع غزيرة وشتائم متدفقة لجمال وجيشه.

⊛ ⊛ ⊛

صباح ليس ككل الصباحات، أفاقت المدينة على أصوات القنابل. كنت أركض مع الراكضين، ولم تعد الحياة مستحبة. كنت أريد الوصول إلى بيت صالح الحنوني قبل أن تقبرني قنبلة أو شظية... الأيدي تشير صوب تلك البيوت التي أصابتها القنابل وحشد كبير

يتراكض صوب تلك الناحية. عندما وصلت إلى بيت صالح الحنوني كان الناس يبحثون عن يده ورجل ابنه المفقودتين.

ولم أستطع أن أسأل زوجته في تلك الحالة من أين جلبوا ذلك الحمار فأرجأت سؤالي إلى حين.

خرجت لأجد جبريل تلقفني صائحاً:

- أين أنت لقد أشيع أنك مت.
- وأنا ميتة منذ زمن.
- دعي هذا الكلام وتجهزي للهرب. سأكون أنا وغيلان عندكم بعد قليل.
- إلى أين الهرب.
- إلى فرسان.

واجتمعنا على الميناء، وركبنا قارباً حشر حشراً واتجهنا إلى جزيرة فرسان.

مشهد تاسع

مدينة جيزان.

أناس يركضون في اتجاهات مختلفة والهلع عالق بألسنتهم وأصوات تصيح:

- أغيثونا.

ومجموعات من البشر نازحة للمدن الشمالية على طريق الساحل.

مشهد ثالث وعشرون

المكان: وسط البحر باتجاه فرسان.

الوقت قبل منتصف الليل.

كان الميناء الصغير يستلقي بهدوء في عتمة الليل، وثمة قوارب تحرك سكونه بقلق وأصوات البحارة تتعالى في محاولة لتهدئة الركاب الذين ارتموا بوسط القارب يسألون الله النجاة بعد أن رأوا في السماء أضواء تومض من بعيد، وقد صرخ بهم الناخوذة مراراً آمراً إياهم بالتزام الصمت وترك اللجاج، وانقلب على بحارته لاعناً وشاتماً حين لمحهم يرفعون الأشرعة:

- بغبائكم ستصيبنا قنبلة لا محالة.

وقفز لمقدمة المركب صائحاً بهم:

- أنزلوا الأشرعة وجذفوا بكل قواكم.

فازداد ارتباك الركاب وتصايحت النسوة وأخذ بعضهن يتحسرن لمغادرتهن قراهن ومدنهن، فنهرهن الناخوذة وأقسم على قذف من يرتفع صوتها طعماً للبحر، فسكتن بينما ظل الرجال يعلقون أبصارهم في تلك السماء العمياء. وخاطب غيلان الناخوذة بتهكم:

- بأي نجم ستهتدي في هذه الظلمة؟
- بنجم أمك.

شعر غيلان بالإهانة تخترق عظامه وهم بالاقتصاص لكرامته لكنه تراجع حينما سمع هدير طائرة تحلق على ارتفاع منخفض، فانبطح الجميع على وجوههم وهم يتلون القرآن ويدعون الله متضرعين أن ينجيهم من قذيفة تزهق أرواحهم.

وعلى بعد.. جلست مدينة جيزان تحتضن خوفها وتأوي للصمت، وثمة فوانيس من على الساحل تتراقص بضوئها المتخاذل وتتربص بالسماء الخالية خوفاً من ضربة أخرى.

في صبيحة هذا اليوم نفر الناس من جيزان ولم يعد هناك إلا قلة قليلة، وتعددت سبل الهاربين، فمنهم من قصد جزيرة فرسان ومنهم من قصد صبيا، والسواد الأعظم انطلقوا إلى البرور بحثاً عن مأمن يقيهم من طائرات الميغ وقنابل النيبل [النابالم] التي صبت على رؤوسهم فجر اليوم.

كان صباحاً دامياً لم يكن في الحسبان...

مشهد خامس وأربعون:

المكان: مدينة جدة.

الشباب (وجدي، قدوري، عزيز، وبقية من الناصريين المنفعلين) يتحدثون عن الحرب ويظهرون وجهات النظر المختلفة، ويقرأون قصاصات جرائد ويرددون أخبار الإذاعات ويتساءلون بإلحاح:

ـ هل فعلاً قصف جمال مدننا؟!

مشهد خامس عشر:

المكان: مدينة جدة.

انتظمت صفوف الشباب وخرجت في مسيرتها التي بدأت من

مدرسة الفلاح عابرة القشلة باتجاه السبعة القصور.

مشهد حادي وعشرون:

المكان: شاطئ مدينة جيزان.

قوارب متعددة وقد قلبت فظهرت من بعيد كالبيوت البيضاء المتلاصقة، وبالقرب منها وقف الهاربون ينتظرون قارباً يقلهم للجزر البعيدة.

هدير عال وطائرات تعبر خاطفة وتلقي قنابلها تاركة قوارب كالقضيض وأجساداً نخرها الموت، ومن بعيد تعالت أصوات مفجوعة تعدد موتاها.

الفصل التاسع

ليتني لم أغادر جدة.

هذه الأمنية لازمتني عندما أطللت على قريتي.

لم تعد تلك القرية كما تركتها، تييس الخوف بين دروبها، واستيقظ الحرص وجال بين أطرافها بهمة. ظلت سنابلها تستقبل الريح باهتزاز كسول، وطفحت سيقانها باخضرار شاحب، واستحالت رمالها الفضية الناعمة للون مصفر باهت وفاح عطن بين دوابها القليلة المتناثرة في الحظائر. وفرغت خزائن الحبوب، وجفت الطرقات من المارة. كانت تقف وحيدة تستقبل الغبار وتودع الهاربين وداع الجنائز الذاهبة للثرى.

ثمة قامات قليلة تخب في المنحنيات بسرعة وتختبئ ولا يثبت أمام بصرك سوى قامات لعسكر يقفون بأهدابهم الذابلة على وجهك برببة قبل أن تخطف الطرقات أقدامهم صوب الجنوب.

ثمة شيء يموت هنا.

وقف بيتنا فارغاً من كل شيء. ليس به سوى صحون معلقة بداخل العشة تصدر أصواتاً مع دفعات الريح القوية، وصدى مهول يستفز الرعب لأن يلتهمك، فتتقوض، تنهار، تغدو حطباً تجهز ذاتك للإحتراق، تتلمس أطرافك تتأكد أنها لا زالت ترافقك، تضمها خشية

أن تفترقا في أي لحظة، وتتركها مدلاة من جذعك وتهتف (هذه الأطراف هي أول من يحترق) وتقف وحيداً، تقلب بصرك.. مكان موحش، وحكايات قديمة وأنت الحاضر في زمن الهرب، مقبرة دخلتها لأستعيد من داخلها الماضي الذي عشته ذات يوم...، مكان موحش وحكايات قديمة تنثال من الذاكرة.

وفار الماضي بصوره الوديعة التي التصقت بالمكان. هنا طلب أبي شربة الماء قبل أن يحجب وتخرج به أمي أوصالاً تودعها التراب. هنا جلست لأتحنى قبل السفر. هنا كنت أجلس لأقرأ القرآن على مسامع أمي. هنا ينام إخوتي. هنا كانت تحضنني أمي وأنا عليل أمسك بجروح ختاني ودلالي عليها. هنا قالت جدتي:

ـ لا بد أن يتغرب يحيى.

هنا كنا ندس ملابسنا التي تبعث بها خالتي. هنا نجلس حين ينهمر علينا المطر. هنا وهنا وهنا... يا الله.. أين تلك الحياة الصاخبة.. أين أمي وإخوتي.. أين الطرقات التي تمتلئ بالناس وتتمايل لضحكاتهم وتعلق لأحزانهم فرحة قادمة، وتعدهم الحقول بعام ضاحك.

ظلت أشياء قليلة باقية كما تركتها: نخلة المسجد العتيقة، والكداديف المنتشرة على جنبات الشوارع، وأشجار الحنون والنبق، وبيوت لاصقت بيتنا منذ زمن، والعصافير العابرة لقريتنا التي تأتينا مع كل موسم وتعبرنا مفسحة لنوع آخر من الطيور بالقدوم، والمصلى الكبير، وحصن نسيه الزمن في قريتنا فظل متماسكاً بحجارته الصلدة الغليظة المحكمة البناء.

أهل قريتي هربوا بجوعهم وأمراضهم المستعصية، ولم يتبق إلا

القلة يحتمون بخنادق لا تكفي لتغطية أجسادهم الهزيلة (هل تكفي هذه الجمل لتعرفوا مقدار الفجيعة التي استقبلتني بها قريتي بعد عدة أعوام من الغربة، هل تكفي؟.. لا لا لا تكفي. أشعر بداخلي يمور ويقذف حمماً من البكاء والحسرة والغصة الجافة التي تقف في سقف الحنجرة لا تبرحها، سأبكي قليلاً وأكمل لكم هذا إذا كان لديكم الرغبة في مواصلة هذه الرواية التي ابتسرتها وأنا أروي تفاصيل حياة ميتة).

آه آه آه ااااا ه ه ه ه ه ه اااااااااا

ـ تعرفت على بكائي لوحدي، ولا أحد يجاور هذا البكاء.

قذفت بشنطتي التي رافقتني العودة، تلك الشنطة التي لا تعرف قريتي، فهي جديدة على كل ما حولها وتتباهى بجدتها عما حولها من أنقاض لأشياء بالية مهتكة، ثمة فساتين بداخلها تتراقص ستهمد حين لا تجد أجساداً تسترخي على مفاصلها، وأقراط ذهبية لن تجد تلك الآذان لتتعلق بها و.. و.. و.... كنت حريصاً أن أعود بقليل من الهدايا فاقترضت مبلغاً يفي لأن أعود بقليل من الفرح لتلك العيون التي كانت تظللني في غربتي.

جلست في مكاني الذي دأبت على الاحتماء به حين تثور عليَّ أمي، ركن متزوٍ بين القعايد يرتفع عن الأرض ما يكفي لأن يبعد اليد الضاربة بعشوائية من الوصول إليك، كانت الأرض قريبة بما يكفي لأن تثب بقدميك فتقف دون أن يلتوي كاحلك، في أحد انزواءاتي القديمة قفزت هارباً من يدها التي امتدت لجسدي الصغير فوقعت أتلوى من كاحلي الذي أصيب بالتواء وبقيت لأيام أسير بعرجة مبالغ فيها.

عيناها اللتان تنظران إليّ كما تنظران لشيء رث مقزز داهمتاني فجأة، خصلات شعرها الناعمة، تورد وجنتيها، استرخاء شفتيها، وعودها الريان الممتلئ، تقف أمامي تماماً تزيد حرقتي.. أوه يا حياة ليتك معي الآن.

شعرت برغبة ملحة في معاودة البكاء فاستعصى دمعي. بقيت زمناً طويلاً أنتظر أن يتقدم أحد، أن يصيح عابر سبيل:

ـ يا أهل البيت.

في مدخل القرية كنت متشاغلاً بتلمس الأشياء التي تركتها وعندما دخلت صادفتني وجوه العسكر وقلة ممن أتذكر وجوههم، كنت أتطلع إليهم فلا يعيرونني انتباهاً، قوافل من البشر تسير باتجاهات مختلفة، كنت مستعجلاً للوصول لأمي وحين وقفت في بيتنا وجدته يحيي مقدمي بطرقعات صحونه المعلقة والمهتزة بدفعات الريح.. لا شيء سوى طرقعات صحون وريح تعبر المكان بلا اكتراث.

خرجت متلمساً خبراً عن أهلي.

كان وقوفي أمام عبد الله عمر مثيراً للشفقة، بعد أن عرفته على نفسي حضنني وصاح:

ـ لو تقدمت ليلة واحدة كنت التقيت بإخوتك وأمك، لقد هربوا مع الهاربين.

ـ إلى أين؟

ـ لا أحد يسأل الهارب إلى أين تمضي.

ـ ألم تسمع إلى أين اتجهوا؟

ـ سمعت جبريل يقول إنه متجه إلى جيزان.

وصمت قليلاً ونظر إليّ بافتخار:

ـ لقد أصبحت رجلاً يا يحيى، كان قلبها يحس بك، لم ترض مغادرة القرية.. كانت دائماً تردد بأنك سوف تأتي ولكنك تأخرت كثيراً.

مصمص شفته السفلى، وشد مرفقي بقوة وجلافة:

ـ أصابها التعب كانت لا تمل من ترديد اسمك، وفي أوقات كثيرة تخرج في الليالي تنوح عليك وقميصك يلتف على عنقها تتشممه وتنوح نواحاً يقطع نياط القلب، وفي النهار تدلف للأسواق تسأل التجار عنك وتقبل ركبهم وهي ترجوهم بدموع نضبت من محاجرها:

ـ قولوا أي شيء عن يحيى، اكذبوا عليّ!!

وفي صبيحة كل سبت تستقبل الموعدين لسوق السبت وإذا نهرها أحد تباكت:

ـ ربما يأتي يحيى أو يأتي خبر عنه.

سنوات وهي تخرج للسوق وفي كل عام تنذر بنذور وتضاعفت نذورها حتى بلغ نذرها أن تسفك دم خمسين ناقة وتحرر ثلاثين رقبة. كانت لوعتها عليك كبيرة وقد رغب بها عبده إبراهيم وفاتحها برغبته ونذرت أن تهبه نفسها لو عاد بك، وخرج ولم يعد حتى غدونا نضرب به المثل فنقول (خرجة عبده إبراهيم).

أحسست بنار تشب في أعماقي حين ذكر أن رجلاً رغب فيها، لكنه لم يكترث بانتفاضتي وهز رأسه بندم:

ـ ليتك تقدمت يوماً واحداً، يوماً واحداً فقط، أوه لو تعلم كم قاست من بعدك.

وصمت كمن يوزن كلمته التي يود أن يطلقها:

ـ كنت ابناً عاقاً، لم تتذكرها حتى ولو بكتاب.

اتسعت مساحات حرائقي وتوزع دمي بتدفق لتتوتر أطرافي بتشنج:

ـ كيف وأنا بين فترة وأخرى أرسل خطاباً ونقوداً.

اهتز كرشه بضحكة قصيرة:

ـ ترسل مع من؟

ـ عن طريق أحد تجار القرية.

ـ من هو؟

ـ لا أعرف لكنني كنت أرسل لها بصورة منتظمة.

ـ لا داعي لكل هذه المراوغة. لم يصلها شيء منك، كانت المسكينة تريد كتاباً، خبراً أي شيء يطفئ لهفتها عليك.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ كل التأكيد، ولولا أن خالك جبريل أغراها برؤيتك في جيزان لما هربت، لقد وقفت كل القرية على رأسها وهي تبكي يومياً على فراقك. ولو أرسلت رسالة لسمعنا بها جميعاً، كانت فقط رسائل خالتك التي تصل بانتظام.

ـ كيف هذا؟ أقول لك كنت أرسل لها الرسائل وتأتي ردود عليها.

ـ قلت لك بواسطة من؟

ـ رجل كنت معه.

ـ يكذب عليك... أيكون الرجل الجبلي؟

ـ وما أدراك؟

ـ سمعنا به من الحجاج الذين رافقوك إلى الحج بأن جبلياً اصطحبك معه.

وبنظرة مزدرية كرر:

ـ لقد دمرت أمك وهي لا تزال مرغوبة.

أحرقني كلامه، أحرقني أن ثمة رجلاً كان يشتهيها، تمنيت لو أستطيع أن أجز لسانه. كنت أنظر إليه بكره وهو يروي لي هيام رجال آخرين بأمي، فقد استطاب هذه النقطة وأسهب في تعداد الرجال الذين طلبوا أمي من خالي جبريل، حاولت أن أوقفه بسؤال حازم:

ـ كف عن هذرك وقل لي ما هي أخبارها وأخبار إخوتي؟

ـ كلهم بخير قبل هذه الحرب أما الآن فلا أدري، يقولون إن أناساً كثيرين ماتوا في هربتهم.. صمت وعاود حديثه:

ـ ألم تسمع بالخسيس؟

ظننت أنه سيتحدث عن أحد خطاب أمي فلم أرد فعاود سؤاله:

ـ أقول لك ألم تسمع بالخسيس الذي سود سمعة قريتنا؟

وبتثاقل رددت:

ـ من؟

ـ حمد.

ـ حمد!!

ـ نعم حمد ولد عم أمك.

تذكرت خسته حين تركنا أنا وجدتي نواجه الغربة بمفردنا وعقبت بفتور:

ـ كان نذلاً. لقد تركنا ونحن في طريقنا إلى مكة ولم أسمع به منذ ذلك الزمن.

ـ لقد عاد وليته لم يعد.

وصمت للحظات وعاود حديثه بتأفف:

ـ أغرته نفسه فعمل مهرباً للسلاح.

ـ سلاح.

ـ نعم، ويقولون إن حسين منجلي شريك له. لكن المنجلي لم يضبط معه شيء، فقد تم القبض على حمد متسللاً بذخيرة كبيرة وأظن أن نهايته ستكون وخيمة. كانت أمك تنتظرك وتنتظره وعندما عاد ألبس قريتنا العار، ألم يكن معك في الحجاز؟

ـ أقول لك لقد تركنا في نصف الطريق ولا أعرف أين مضى.

ـ هذه خواتم النفس الرذيلة.

وسحبني لبيته وأخذ يسرد على مسامعي حكايات وحكايات، وكلما اقترب من سيرة الخطاب الذين ودوا الاقتران بأمي تمنيت لو أنني أستطيع جز لسانه.

❀ ❀ ❀

غيلان.

هذا هو الاسم الذي التقطته من فم عليّ بن أحمد حين قال:

ـ أخو زوجة خالك اسمه غيلان فإذا ذهبوا إلى جيزان فستجدهم عنده.

وارتحلت لجيزان، ووقفت عليها. كانت مدينة نصفها ميت والنصف الآخر هرب وساحت بشوارعها بواق من قامات هزيلة جلست تصفف أحزانها وتقلب سيرة جثثها التي عبثت بأجسادها القنابل.

كانت سيرة تلك اليد المخضبة بالعفص أكثر لوعة، تلك اليد

التي كانت تتهيأ لأن تمد أناملها لزوجها غادرت جسد صاحبتها في ليلة الحناء حين كانت تتهيأ لأن تزف لخطيبها في الليلة التالية، وبعد أن زينت بياضها بنمنمات الخضاب واسترخت على قعادتها تروي مخيلتها بأحلامها القادمة جاءت شظية لتتغلغل في قلبها وتبعد يدها التي طالما رفعت بها خصلتها المتهدلة على جبينها.

يقولون لم يعثروا على يدها إلا في اليوم الثالث بعد أن دفن جسد صاحبتها قبل أن ترفع غرتها التي ارتجت لوقع تلك الشظية. ظلت يدها لبعض الوقت في يد الطفل، عثر عليها بين أنياب كلب كان ينهش بنصرها الطري.

حكايات موحشة وغارقة في الهلع.

طفل انتظره أبوه سنوات طوال وعندما جاء ونما كغصن يشي بالاخضرار التصقت بجسده شظية قبل أن يكمل قبلته على وجنتي أبيه فالتصقا ببعضهما وتركا أجزاء من أطرافهما تتطاير في الفضاء.

أصبت بالحسرة لهذه الواقعة حين سمعت اسمه يتردد على أفواه الرواة (طاهر صالح الحنوني) ووقفت تلك الليلة بالذاكرة حين كان النذر يزهر على لسان صالح الحنوني وهو يحدث طاهر الوصابي:

ـ لو تقبل الله منك سأسميه طاهر وإن كانت بنتاً سميتها طاهرة.

تذكرت زوجته الجميلة التي حضنتني ورغبت في أن أكون ابناً لها، فتركتها تمسح خيبة أملها من ردي البارد بعد أن دست بجيبي ريالاً مجيدياً.

تحركت للساحل.. كنت أتمنى لو أنني أستطيع مقابلة زوجة صالح وأن أرتمي في حضنها وأجهش بالبكاء، وأروي لها عذاباتي وأستدفئ بجسدها وحنانها. الطريق لبيت صالح الحنوني لم يتغير،

وكأنني أسلكه للتو بصحبة طاهر الوصابي أقفز من على ظهر حماري وأجاور طاهر في مشيته، كنت أحس به يجاورني فعلاً، فنبتت رائحة أول خطوات الغربة. كنت أسير في تلك الأزقة الذابلة وأرى أمواج البحر المتكاسلة تمد ألسنتها للشاطئ دون أن تلامس أجساداً طفت على سطح بحرها كأشجار الرين الباهتة، لا زال الطريق كما تركته وأرى أقدامي تقع على أثرها القديم، وقفت بالقبل الواسع وقد أطلت شجرة النبق من على الجدار وشاخت رديمة الفل فتيبست أطرافها واحتفظت بقليل من اخضرارها في أغصانها السفلية، صحت:

ـ يا أهل البيت.

صوت متهالك، وصدى بارد، وجو مشحون بالصمت، تردد صوتي بتكاسل وانطفاء، أشعلته بصعوبة فارتفع قليلاً:

ـ يا أهل البيت.

لا أحد يجيب (هل رحلت بعد أن مات زوجها وابنها، ألم تنتظر لتتقبل العزاء فيهما، أم أنها هربت قبل أن تداهمها شظية طائشة؟) لتكن آخر محاولة.. جاهدت أن أرفع صوتي عالياً:

ـ يا أهل البيت.

خرج رجل مسن يتهادى بتثاقل، تطلع إليّ بدهشة فقطعت تطلعه بعبارة تلعثمت في نطقها:

ـ عظم الله أجركم.

ـ جزاك الله خيراً.

ـ كنت أعرف صالح رحمه الله منذ مدة وسمعت بما حدث فجئت للعزاء.

لقد انتقل المرحوم من هذا البيت للمسطاح منذ سنتين.

ـ عذراً.

ـ لا تعتذر كل المدينة تتقبل العزاء، تفضل.

ـ لا، عليَّ أن أذهب.

وجهتني الألسن التي واجهتها في الطرقات حتى أوصلتني إلى بيت صالح الحنوني. وقفت أمام بوابة البيت، كان الحزن مدلى على الأسجف وهنهنة متعالية تنبعث من الداخل، وكأن الموت لم يجف بعد. خطوت لداخل الفناء، رأيت حماري مربوطاً في المطرح يلوك عجوراً يابساً، وكأنه البقية الباقية من أهلي. ركضت باتجاهه ووضعت رأسي برأسه فنخر وأشاح برقبته بعيداً وأعطاني مؤخرته هاشاً بذيله ذباباً تجمع على بقايا روثه الملتصق بوركيه. أمسكت برقبته وحضنته أحسست برعدة تجري في بدني ورغبة جامحة للنشيج. سالت دموعي المتيبسة وشاركت تلك الهنهنات المتعالية حسرتها ولوعتها، كنت أبكي وكأنني في حضن أمي. بكيت وبكيت حتى تراخت مفاصلي، وقبلته وتحركت باتجاه إحدى العشش وناديت:

ـ عظم الله أجركم يا أهل البيت.

كررت عزائي مرتين فبزغت من عمق الدار تلك الخادمة بأنفها المنبطح وضفائرها العنكبوتية وابتسامتها التي لا تزال كما تركتها قبل سبع سنوات أو ثمان. كانت عيناها تومضان وميضاً منكسراً وهي تتحقق من هيأتي:

ـ من أنت؟

ـ كيف حالك؟

ـ الحمد لله. . من أنت؟

ـ نسيتني؟

أخذت تتفحصني فلم أمنحها وقتاً إضافياً:

ـ لقد جئت مع طاهر الوصابي من سنوات وعندما سمعت بالخبر جئت للتعزية.

اتسعت ابتسامتها وعادت لخفرها كمن يجاهد في ضبط مشاعر مفاجئة هزته:

ـ تذكرتك، أهلاً وسهلاً.

ومدت يدها للسلام عليَّ:

ـ ألم تغادر جيزان منذ ذلك الزمن؟

ـ أنا قادم من جدة.

ـ ستفرح بك سيدتي.

وقادتني إلى عشة كبيرة اجتمع بها بعض المعزين، كنت أجلس بينهم على قلق وحكايات تتناثر عن فواجع الحرب.

كنت أشعر بالضيق، فأنا لا أعرف بالتحديد ما العمل الذي يجب عليَّ القيام به، فكلما هممت بالاستئذان تخشب لساني بحلقي، ووقف سؤال كبير: إلى أين تمضي؟

حاولت جاهداً أن أجد لنفسي العذر لمغادرة بيت الحنوني، فلم يعد متبقياً سوى أهل البيت من إخوانه وأولاد عمومته. أحسست بثقل بقائي من خلال تلك العيون التي تتفحصني من أسفل طرفها، تململت بجلستي، وحدثت من يقاربني في المجلس:

ـ أنا قادم من جدة وأبحث عن رجل يدعى غيلان هل تدلني على بيته؟

ـ غيلان. . رحمه الله، لقد مات.

ـ مات!!

ـ هرب من بيته خوفاً من الموت فمات على الشاطىء، مات هو وأسرته وضيوفه الذين نزلوا عليه.

شعرت بدوار، وشيء عاصف يجتاحني، كنت أسمع أصواتاً متعددة تروي موته وموت من معه، وأصواتاً تسأل:

ـ هل تعرفه؟

ـ مسكين كان يؤمل في النجاة فمات وهو يوشك على الهرب.

ـ مات هو ومن معه.

ـ موته مع من معه خير له. فلو مات بمفرده لحزن عليه أهله ولو مات أهله لتجنن لفقدهم.

ـ يقولون التصقوا بالأرض وكانوا يقشعون جلودهم من الأرض قشعاً.

ـ رأيتهم يحملونهم بسكينة الدركتر.

ـ يا جبروتك. . واتتك نفسك على مشاهدة هذا المنظر!

ـ ايه والله لقد شاهدت ذلك بنفسي.

ـ سمعت أنهم دفنوهم جميعاً في حفرة واحدة.

ـ ليس وحدهم. . مجموعة كبيرة معهم.

ـ يقولون إن ضيوفه هم الذين تفتّت لحومهم بالأرض، فكوموا عليهم التراب لتتكفل الشمس بإذابة جلودهم المتبقية.

❀ ❀ ❀

مضت ثلاثة أيام وأنا أنام بمضيفة بيت الحنوني لا أعرف ما

الذي يحدث. كانت تطببني جمعة، أفقت في اليوم الثالث وهي تنزع رأسي نزعاً من فوق المخدة وتسقيني لبناً ساخناً، وعندما رأت عيني ترمشان استبشرت وفتحت شفتيها عن ابتسامتها البيضاء وقذفت برأسي وهي تصيح:

ـ قام الغريب يا ستي.

وعادت تحمل طبقاً مليئاً بشوربة دجاج. جلست أمامي ورفعت غطاء الحساء فتطاير دخان هزيل، وغمغمت بلكنة متداعية إلا أنها أفضل مما سمعتها أول مرة عندما كنت مرافقاً لطاهر:

ـ سيدتي تبلغك عزاءها فقد عرفت أن أهلك ماتوا مع غيلان وتشكرك على تعزيتك.

اكتفت بتلك الجملة التي يبدو أنها بذلت مجهوداً جباراً كي تقولها كما حفظتها، وأعادت رأسي لراحة يدها اليسرى وأمسكت بالإناء بيدها اليمنى وأخذت ترشفني ذلك الحساء، ولم تغادرني حتى سكبته بجوفي، وفي كل مرة تحرضني بود على احتسائه، نظرت إليها بامتنان:

ـ شكراً

لم تجب، وانشغلت بإصلاح الفرش، كنت أشعر بخدر وكلما حاولت النهوض خذلتني أطرافي، فتمد يدها لصدري وترجعني لرقدتي:

ـ لا تحاول الحركة فلا زلت متعباً.

ـ عاجز عن شكرك يا.. عفواً فأنا لا أعرف اسمك إلى الآن.

غزا محياها وجوم مفاجىء وعكر صفاء ابتسامتها، وردت باقتضاب:

ـ لا أحد يهتم لتذكّر أسماء الخدم والعبيد.

شعرت بفداحة سؤالي فحاولت الاعتذار فقاطعتني بجفاء:

ـ لا تجاهد في الاعتذار.

وقطعت حديثها برد باتر:

ـ اسمي جمعة.

وكأنها لم تسترح للرد فعقبت:

ـ خادمتك جمعة.

ـ شكراً يا جمعة.

نكست رأسها وأخذت تلعب بمصرها بتوتر، فظهر شعرها العنكبوتي مضفراً بنمنمات دقيقة، فهمست بها:

ـ أنت جميلة بابتسامتك يا جمعة فلا تخبئيها.

طفحت ابتسامتها الصافية، وانطلقت لداخل البيت تغالب خجلها.

في اليوم الرابع وقفت في الفناء متهيئاً للرحيل، جذبتني جمعة من يدي وعيناها تموجان بدمع تزاحم بين مقلتيها وهم بالخروج:

ـ تقول سيدتي ابق معنا ولولا العدة لخرجت إليك.

ـ بلغيها تحياتي ودعواتي لها أن يصبرها الله ويعوضها خيراً.

ـ ابق معنا.

قالت جملتها بضعف وانكسار وساحت دموعها على وجنتيها المتلثتين، فامتدت يداها لأنفها وتمخطت بصوت مرتفع، ومسحت

يدها في كرتها المتسخة وكررت بصوت متحشرج:

ـ ابق معنا.

ـ جمعة، لم يعد لي مكان هنا.

وسحبت يدي من يديها ومشيت. سمعت صوتاً أنيساً يصر من داخل البيت:

ـ يحيى.

توقفت والتفت صوب الصوت. كانت تقف من بعيد وهي تغطي كل جسدها بملاءة سوداء وصوتها ينداح حارقاً:

ـ مات طاهر الذي انتظرته كل هذا العمر وأنا الآن أعيد على مسامعك نفس الأمنية القديمة: ألا تود أن تكون ولداً لي؟

تحجرت الكلمات في فمي بينما ظل صوتها يلح:

ـ سأكون لك كل شيء.. فقط ابق معنا.

ـ لا أستطيع يا خالة، لكنني ابنك أينما كنت وإذا احتجت لي ستجديني قريباً منك.

خطوت فشعرت بأقدامي ثقيلة وصوتها يسيل في أثري بحنان ولوعة:

ـ صحبتك السلامة ولا تنس أن لك أماً في هذه المدينة التي أصبحت خرابة.

❀ ❀ ❀

لم يعد أي شيء يربطني بهذه المدينة.

سرت في شوارعها، أتصفح الأماكن المتهدلة والشوارع الملتفة

بعضها ببعض، ووجدت نفسي أقف أمام بيت غيلان، اشتقت لأن أسمع عن ضيوفه الذين خسفت القنابل بأجسادهم. كان بيتاً لا يختلف عن كثير من بيوت المدينة، فناؤه واسع مفروش بالرمل الناعم. به رديمة واحدة أزهرت بفل مزموم مخضر انتهى ببياض فقر وتويجته بدعة وتمهل، وعشة وحيدة استقرت في وسط الفناء وقد مالت قرعينتها. وقفت عليها حداءة فاردة جنحيها وهامة بالتحليق بعيداً.

وقفت طويلاً قبل أن يقف أمامي رجل عرف نفسه بعبده حسن. كان جندياً يحمل بندقية قديمة وقد تقافز من وجهه شرود طاغ وأسهب في حديثه بدون مقدمات:

ـ عظم الله أجرك.

ـ!!!!!

ـ كل الذي يحزنني أن غيلان مات وبقلبه غل عليَّ، فقد دققت عظامه بكعب بندقيتي هذه.

وأنزل البندقية من على عاتقه وتلمسها بتثاقل وغمغم:

ـ ليتني مت قبل هذا، لم أكن أظن للحظة أن تدك مدينتي بهذه الصورة.. كان غيلان صادقاً حين سخر من ثقتي بنفسي وأنا أردد على المتجمهرين: كل الإذاعات تقول أنه لن يقدر، كنت أهبل كما وصفني المرحوم.

تنبه بعد أن فرط في كثير من حكاياته على تجمهر بعض المارة والجيران حولنا، فصمت وعاد لتبختره:

ـ هيا انصرفوا، لماذا تتجمعون كالدواب الضالة.

لم يأبه به أحد، وظلت العيون تحوم حولي، وجدت أن من

الضروري أن أتحدث، أن أقول أي شيء يبعد ذلك الفضول البازغ من الأهداب، أي كلمة توقف نموه وتفتح لي صدورهم. تنحنحت:

ـ قدمت من جدة وعلمت أن أمي نزلت في بيت غيلان أريد أن أعرف كيف مات ضيو. . . .

مجموعة من الأصوات ترحمت عليهم، واستثارت كلماتي إحدى العجائز الواقفات بين المتجمهرين:

ـ أنت ابن مريم، سمعتها تقول إن لها إبناً هنا.

هززت رأسي، فتأوهت بأسى:

ـ رحمها الله كانت طيبة. المسكينة والله إني حبيتها من أول ما رأيتها.

سكتت وكمن نسي شيئاً أعادت حديثها:

ـ . . . بل رحم الله الجميع فقد ماتوا جميعهم في الهربة، ماتوا على الميناء قبل أن يجدوا قارباً يحملهم بعيداً عن قنابل جمال (الله يخزيه فين ما هو).

ـ أين قبرهم أريد أن أسلم عليهم.

تبرع عبده حسن باصطحابي فسمعنا رجلاً ممتلئاً يسخر منا:

ـ قبر مين. . . فقد تركوا في العراء لتجفف الشمس جلودهم.

صاح به عبده حسن:

ـ قبحك الله من آدمي. هذا رد تقوله؟

ـ قبحك الله لوحدك من يشوفك يقول (يا هنا يا ما هنا).

انفعل عبده حسن وصاح به:

ـ والله لو لم تذهب لشأنك لأدقن عظامك بهذه البندقية.

وأنزل بندقيته من على عاتقه مرة أخرى متحفزاً فتلقى رداً عاصفاً:

ـ أعرفك يا عبده أنت كالطبل تنقر وفق النقرة التي تنقرك. والله لو طال لسانك لأبث بطنك بالرصاص الذي تحتزم به.

اغتاظ عبده حسن واندفع نحوه ببندقيته غارزاً كعبها بصدره، فتلقاه بيده ليتدخل المتواجدون (يفرعون) بينهما. وقبل أن ينتهي شجارهما تفرق عنهما الجميع على صوت كان يصيح من بعيد:

ـ البدر في طريقه إلى مقر إقامته.

فتناثروا جميعهم بغية رؤية البدر، وركضت خلفهم تاركين بندقية عبده حسن بيد غريمه وهو يشدها بعنف.

❀ ❀ ❀

مرق بسيارته الشفروليه. كان يجلس في المقصورة الخلفية بمعاكسة السائق، جلسته لم تمنع من التخمين بقامته المديدة، كان وجهه لامعاً وبشرته البيضاء المحمرة تفيض بالعافية، شاربه وذقنه هذبا بصورة لائقة فأبدت صفاء وجهه وأنفه الطويل ذي العكفة البسيطة المطلة على جبهته المستوية. كان بارزاً يضاهي ببريق عينيه الموزع في الطرقات وقد استقرت على رأسه عمامة وضعت بإحكام وبان طرفها المدلى من الخلف. كان وجهه منبسطاً دون ابتسام.

كان على سائق سيارته أن يمرق بسرعة عابراً تلك الأجساد المهللة التي مدت أعناقها بفضول لرؤية البدر، لكن حماراً سائباً

اعترض طريقه فتمهل لتتمكن مجموعة من الواقفين مباشرة في تلك النقطة من رؤيته بوضوح والتدقيق في ملامحه.

لمحة سريعة ومباغتة سرقت بها أوصافه، وحين عبرتني سيارته انكفأت وخمشت تراباً وسفيته خلفه، جذبني أحد المتجمهرين وهمس بفزع:

ـ هل جننت؟

ودون أن أجيب تحركت للموقفة وركبت سيارة متجهة لجدة، وشيء مر ينز بأعماقي ورائحة نتن تفوح من فمي، ورغبة جارفة لرؤية عيني حياة.

۞ ۞ ۞

في الطريق إلى جدة انتابني تأنيب مرير:

ـ ألم يكن من الواجب الوقوف على قبر أمك وإخوتك؟

وتضخم هذا السؤال، تضخم وأخذ يتسع ويتضخم حتى شعرت برأسي ينتفخ كبالونة ويرتفع، يرتفع بعيداً، فأستعيده بالضرب على جبهتي، أمسك به بقوة وأردد بمرارة لإيقاف هذا الخاطر:

ـ كنت سأقف على جلد التصق بالتراب

ـ كان من الواجب أن تقف

أن تقف

أن تقف

تقف تقف تقف تقف

قف قف قف قف قف قف قف قف

قي قي قي قي قي ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي يو يو

دوار وخليط من الصور تدور بمخيلتي، تقترب وتبتعد، تتموج كدوائر، وجوه تتساقط فيَّ كالنيازك فتعمق فجوات الروح وعبثاً أستظل من تساقطها، تنهمر بقسوة ليزداد الدوار، تنهمر: وجه يوسف، أمي، حياة، أمي، حياة، حسينة، فاطمة، ليلى، يوسف، حياة، أمي، ليلى، قريتي، طاهر الوصابي، قدوري، حامد، جمعة، عواطف، خيرية، أمي، حليمة، صالح الحنوني، جدتي، حياة حياة حياة، جمعة، عواطف، طاهر، أمي، حياة حياة.

دوار عنيف، ووجوه تهطل كالمطر، شعرت بالموت يقف في حنجرتي، تمنيت أن يضغط فقط يضغط سأساعده على إتمام مهمته. انبعث غثيان من أسفل معدتي، وأصبحت تلك الصور المتداخلة تشعرني برغبة في التقيؤ، كنت أقاوم بكل ما أستطيع، وفي لحظة صحت بالسائق:

ـ توقف.

كان جهاز الراديو ينبعث من إذاعة الرياض بأغنية لهيام يونس (تعلق قلبي طفلة عربية).

ـ قف.

قبلتها تسعاً وتسعين قبلة

ـ قف.

وواحدة أخرى

ـ قف.

وكنت على عجل.

انبثت أمعائي وهعت بكل قوة فتراشق طراشي في وجوه من يجاورني في مؤخرة السيارة.

كنت أسمع صيحات الاستنكار، وقد برزت تلك الصور من مخيلتي مشمئزة، وعينا حياة تعرضان عني بعيداً وقد زمت شفتيها بضيق.

❁ ❁ ❁

لم أطق البقاء في فرسان.

وصلنا إلى ميناء خلة ضحى. كان القارب الشراعي الذي أقلنا تتقاذفه الرياح في ليل بهيم، وكلما حاول الناخوذة السيطرة على دفته انحرف في اتجاه آخر، في الليل ظهرت أضواء تتراقص من بعيد فصاح أحد البحارة:

ـ نحن بداخل اليمن. . انظروا تلك أضواء جزيرة بكلان.

فتصايحنا جزعاً، وكنا نسمع أصوات الرجال فائرة وهي توبخ الناخوذة:

ـ جئنا هاربين فإذا بك تسلمنا للموت بكل هذه السهولة.

حركتنا الجماعية جعلت القارب يتمايل ويموج بحركة مضطربة، كان صوت الناخوذة ضائعاً بين تلك الأصوات المتداخلة، وتتعالى شتائمه بين الحين والآخر:

ـ أنتم كالحمير تردون على النهيق بأحسن منه.

ـ نحذرك فتشتمنا.

ـ الشتم هو الشيء الوحيد القادر عليه الآن، فهذا الذي صاح

إنها جزيرة بكلان ما أدراه بذلك.

جاء صوت من بين الركاب واثقاً:

ـ أعرفها من أنوارها المتفرقة.

ـ أي أنوار؟ ألا ترى الدنيا مظلمة؟ والله لولا ما نحن فيه من كرب لعلمتك درساً لا تنساه أبداً.

ـ وتلك الفوانيس التي تتراءى لنا؟

زفر الناخوذة:

ـ تلك مراكب واقفة.

صاح راكب آخر فزاد خوفنا:

ـ هي مراكب الجيش اليمني.

فصاح غيلان مقتصاً لنفسه من شتيمة تلقاها من الناخوذة في بداية الهرب:

ـ يبدو أن نجم أمك نائم هذه الليلة فحملتنا إلى هنا.

ـ سأعرف كيف أجعلك لا تخرج لسانك من بين فكيك، ولكن ليس الآن.

وصاح ببحارته:

ـ أرخوا الأشرعة وانحرفوا بمقدمة المركب.

وأطلق شتيمة بذيئة عابه عليها بعض الرجال:

ـ انتبه معنا حريم وأطفال.

فرد بضيق:

- ومن أين خرجوا، هم يعرفونه أكثر منا.

وأعاد نفس الشتيمة ومعها أمر بإطفاء نور الأتريك الذي كان ينير من مؤخرة المركب.

قال أحد الركاب بفزع:

- هل حقاً نحن باليمن؟

وعندما لم يجد جواباً قذف بنفسه للبحر فسمعنا ارتطامه بالماء وصرخة فزعة قبل أن يغوص بداخل المياه كسمكة حنت للقاع.

ساد صمت ثقيل للحظات، ومخر القارب في اتجاه معاكس يشق الماء بتثاقل وسواعد البحارة تجذف بهمة. كان الخوف لا يزال ينخر صدورنا، فتهطل الوساوس بكثافة وتتشكل في صور متعددة لنهاية هذا الهرب، جذبت جبريل من حوكه:

- لو بقينا في قريتنا لما احتجنا لكل هذا التعب.

زفر بضيق:

- كف عن نعيقك ليس وقتك الآن.

تكوم بناتي في حضني وظل يوسف يهوع بكل ما في أمعائه، فانبعثت بيننا «صنة» اختلطت برائحة البحر وحرضت بقية الركاب على سفح ما بدواخلهم.

رائحة نتنة لازمتنا طوال الوقت كانت خليطاً من تقيؤ وبقايا سمك تحلل فامتزجا وفاحا مخلفين رائحة نتنة أخذت تجوب المكان بتلكؤ، ولم يفلح هواء البحر المنعش من جذبها بعيداً عن أنوفنا.

كنت أشعر بلزوجة التصقت بثيابي بينما واصل يوسف التقيؤ

وقد شاركته ليلى، ولم أجد بداً من أن أجعلهما يفترشان ثوبي ويلصقان به كل ما تقذف به أعماقهما.

مع الفجر ظهرت من بعيد جزر متناثرة وهب هواء لطيف أنعش الكثيرين منا، وصاحب مركبنا سمك أبو سلامة الذي كان يقفز عالياً وينزلق لداخل المياه بانسياب.

انتعش الناخوذة ولف ورقة تبغ وتناول كأس شاي مسود وارتشفه بمهل، وأخذ يدندن غير ملتفت لغمزات الركاب المتبادلة وهمسهم الساخر.

أجساد منهكة ووجوه سمراء استقبلتنا على الميناء، كان نزولنا عجلاً، قذفوا بالأطفال من المركب قذفاً لتستقبلهم أذرع رخوة فتساقط عدد من الأطفال من بين أيديهم، لينتشلوهم مرة أخرى من الماء - كما ينتشل سمك انزلق من بين أياديهم المدربة في اصطياد السمك الطافي - مبدين ندماً مفتعلاً.

كنا مجموعة كبيرة، توجه نصفنا أو يزيد صوب أناس تربطهم بهم علاقة ود قديمة، أو علاقة مصاهرة أو رحم، وظل البقية ينتظرون على الميناء بحثاً عمن يؤويهم، وعندما طال الانتظار تحرك بعض الرجال ونصبوا أخشاباً غطوها بأشجار متعددة اقتطعوها من تلك الأشجار المحيطة بشاطىء البحر.

أيام طويلة ومملة ونحن نفترش هذه الناحية ونتلقط أخبار الحرب من خلال راديو قديم يوشوش طول الوقت، أو من أفواه بعض الهاربين من جيزان.

قدم أحد البحارة يزف البشارة بصوت مرتفع:

- اتفقوا على إيقاف الحرب.

شعرت أن الدنيا تتسع وأن عليّ مغادرة هذه الجزيرة النائمة قبل أن تستيقظ وتلقي عليّ بشباكها فأظل كسمكة لا تقدر على الفكاك، قلت لجبريل:

ـ لم أعد أطيق البقاء هنا.

ـ انتظري حتى نتأكد من خبر انقطاع الحرب.

ـ لن أبقى يوماً واحداً.

وافقتني آمنة زوجة غيلان، وشاغلت زوجها فعدنا مع أول مركب متجه لجيزان.

❀ ❀ ❀

استقبلنا في جيزان استقبال العائدين من الموت.

أخذ الجيران يتمسحون بنا ويرددون بتعجب:

ـ سبحان محيي العظام وهي رميم.

ـ قيل أنكم قتلتم بجوار الميناء.

ـ هل حقاً نجوتم؟!

كانت الدهشة تعقد ألسنتنا أمام ذلك الاستقبال الحار، والزغاريد الملتهبة وفرقعات (الشحات)(٢٩) واختلاط الرجال بالنساء وهم يهنئوننا بسلامة الوصول.

وكان غضب غيلان فائراً يشتم كل من أشاع أنه قتل ويتهمهم

(٢٩) الشحات نوع من المفرقعات يستخدم في المناسبات السعيدة ويبدو أنها بديل من استخدام الطلقات النارية، فقد كان إطلاق الأعيرة النارية هو التعبير عن الفرح، وفي الحجاز يقال له طراطيع.

بأنهم يتمنون له الموت، ولم يكف عن شتائمه إلا بعد أن نهرته آمنة بصوت غليظ:

ـ وهل تملك شيئاً حتى يتمنوا لك الموت، يبدو أنك وصلت للخرف مبكراً.

وعندما أراد أن يقف في وجهها صاحت به:

ـ أخرج واستقبل الرجال قبل أن أترك لك البيت.

فأذعن كطفل صغير وتحرك مرحباً بتلك الأصوات التي كانت تناديه من خارج البيت.

❀ ❀ ❀

كان عليّ أن أتوجه مباشرة لبيت صالح الحنوني إلا أن الاحتفالات المبالغ بها في استقبالنا أخرتني كثيراً، وكلما حاولت الخروج عابت عليّ آمنة هذا التصرف:

ـ ماذا يقول الناس جئنا نبارك لهم بسلامة الوصول فتركونا وخرجوا.

فأظل محتفظة بنقمتي على هؤلاء النسوة الجالسات والممسكات بأماكنهن وكأنهن في الجنة.

مضت ليلة بطولها وأرجل النساء وتحياتهن لا تنقطع. كنت لاهية عما يتحدثن فيه، وقد حاولت إحدى المسنات فتح حديث معي لكنني في كل مرة كنت أصدها بافتعال أو الاشتغال عنها، وفي كل مرة تريد أن تتحدث أسكتها ويبدو أنها اغتاظت فأمسكت بكتفي وهزتني:

ـ هل عرفت بمقدم. . .

وكمن يريد أن يبعد آفة عن طريقه رددت عليها قبل أن تكمل جملتها:

ـ نعم عرفت

سمعتها تقول: الحمد لله

وخرجت وهي تغمزني بابتسامة كبيرة.

في صبيحة اليوم التالي قررت الخروج لبيت صالح الحنوني وليتقول من يشاء. خرجت بعد أن تركت آمنة تغلي في غضبها وتتهمني بقلة «الناموس»[٣٠] مع الناس. سحبت ابنتها عائشة معي وخرجنا صوب بيت صالح الحنوني بعد أن أوصيت فاطمة بالانتباه ليوسف.

في فناء بيت الحنوني كان حمار أمي مربوطاً بوتد قصير وهو يلوك عجوراً يابساً، توجهت للمطرح وأمسكت بعنقه وأحسست بحاجة لأن أحدثه وخشيت أن تتهمني عائشة بالجنون فاكتفيت بسؤال حار تدفق لداخلي:

ـ أين تركت يحيى؟

وانسحبت لداخل البيت قبل أن ينبت شيء ما في مخيلة عائشة.

كانت النساء لا زلن محتفظات بدموعهن الندية، وامرأة صالح كانت تجلس في «امربع»[٣١] دامعة وقد أكلها الحزن وارتدت محرمة

(٣٠) قليل الناموس تعني قلة الأدب واللياقة.

(٣١) امربع هو مكان مترو من العشة يجلس فيه أصحاب العزاء لتقبل الواجب، وعادة ما تقتعده المرأة التي تفتقد زوجها ويغالى في احتجابها لدرجة أنها لا تنهض من هذا المكان لأيام طويلة وتصل فترة العدة كحزن إلى الستين.

سوداء ومن حولها حف بها نساء كثيرات.

سمعت أن ابنها دفن دون أن يعثروا على يده، وزوجها رتقت رجله رتقاً بدائياً ودفن مع ابنه في قبر واحد.

كنت أنتهز الفرصة للاقتراب منها وسؤالها عن الحمار، كانت خادمتها تتفرس في ملامحي، وعندما قدمت لي فنجان القهوة، اقتربت مني سائلة:

ـ هل أنت غريبة؟

هززت رأسي بالإيجاب وقبل أن تهم بالانسحاب خاطبتها على عجل:

ـ أريد أن أكلم سيدتك على انفراد.

ـ لا تستطيع أن تترك «امربع» الآن، انتظري حتى يتخفف الناس.

وتحركت لسيدتها وغرزت فمها بأذنها فنظرت صوبي وهزت رأسها لخادمتها لتنسحب بعيداً عنها.

ظللت في مكاني، وبعض النسوة يتبادلن النظر وعيونهن تتساءل: من أكون؟

وبقيت عين تلك الخادمة معلقة بي أكثر من سواها، بعد صلاة الظهر تخفف كثير من النسوة وبقيت زوجة صالح في مكانها ومن حولها سيدتان عرفت ممن تجاورني أن إحداهما أختها والأخرى سلفتها.

اقتربت منها وعزيتها بكلمات مقتضبة سريعة ووقفت الكلمات في فمي فهمست:

ـ قالت جمعة أنك تريديني. خيراً إن شاء الله.

ـ أعرف أن الوقت غير مناسب لسؤالي، ولكن إجابته تعني لي أشياء كثيرة.

ـ اسألي.

ـ حماركم المربوط بالخارج من أين جئتم به؟

ـ!!!!!

ـ هذا هو سؤالي لكنك لو تعرفين القصة التي خلفه ستجيبينني في الحال.

ـ هذا حمار أهداه رجل لزوجي قبل زمن طويل.

ـ من هو هذا الرجل؟

ـ رجل يسكن بمدينة جدة يدعى طاهر. لكن ما هي قصتك؟

ـ هذا الحمار حجت عليه أمي قبل ثماني سنوات ومعها ابني وقد تاه منذ ذلك الزمن.

ـ أنت أم يحيى؟

شعرت بقلبي يسقط ودموعي تفيق وصوتي ينتحب:

ـ نعم أنا أمه هل تعرفين طريقه.. أنا ميتة من فراقه، بالله عليك أخبريني.

وارتفع نحيبي حتى ظن بعض الحاضرات أنني أبكي الميتين فتجاوبن بصراخ حاد وتعداد لمحاسن الموتى (٣٢)، جذبتني زوجة صالح

(٣٢) جرت العادة أن التي تأتي للعزاء تصيح من خارج البيت بصوت مرتفع وهي تعدد محاسن الميت وعندما يسمعها أهل الميت والحاضرات في العزاء يجبنها بصوت مماثل وتعداد محاسن الميت ويتعالى الصراخ والبكاء.

حضنها وأخذنا نتبادل القبلات والبكاء، كنت أنتفض في حضنها وهي تتنهنه وتحاول إسكاتي:

ـ يحيى بخير فلا تجزعي.

ـ بالله عليك دليني على طريقه.

ـ سمعنا أن ضربة القوارب أصابتكم ولم تبق أحداً منكم.

ـ حين هربنا لفرسان لم نهرب عن طريق الميناء وقد سمعنا بالضربة التي ضربت قوارب الصيادين، ويبدو أن من أشاع مقتلنا كان يظننا نقف على الميناء أثناء الضرب.

ضمتني لصدرها وهي تتناشج ورددت بفتور:

ـ يا خسارة

ـ.......

ـ لو تعلمين أن يحيى...

نفرت من بين يديها:

ـ ما به يحيى؟

ببطء وحذر قالت:

ـ يحيى كان هنا

ـ ماذا؟... متى... بربك أين هو؟

صمتت وأخذت تتبادل النظر مع خادمتها بينما أحاط بنا أولئك النسوة القليلات، وإن كانت سلفتها أكثر جزعاً عليّ وهي تربت على ركتفي:

ـ ابنك بخير فلا تخافي.

قبلت ركبة حليمة زوجة صالح وأنا أستحثها بتلهف:

ـ أين هو؟

شدتني حليمة من كتفي وهي تقول:

ـ أستغفر الله يا أم يحيى لا تفعلي بنفسك هكذا، ابنك بخير وكل ما في الأمر أنه سافر.

ـ سافر!

ـ إهدئي وسأخبرك بكل الحكاية.

أخذت أكفكف دموعي وأستحلفها بالله ألاّ تخبىء شيئاً عني، رأيت خادمتها تقف على رأسي بطاسة ملئت بالماء فتناولتها حليمة وغسلت وجهي وهي تردد:

ـ إرفقي بنفسك.

كانت عائشة بنت غيلان تنظر إلينا ببلادة. وبين لحظة وأخرى تظهر مللها بمطالبتي بالعودة، فأمسكت بها أخت حليمة وقالت لها:

ـ عودي وأخبري أمك أن مريم ستكون ضيفتنا.

فتحركت عائشة وهي تخلط الكلمات خلطاً متبرمة من العودة بمفردها في تلك الحمأة الملتهبة، كنت أجلس وعيناي معلقتان بلسان حليمة وفي كل مرة أردد بجزع:

ـ هل حدث مكروه ليحيى؟

ـ قلت لك لم يحدث شيء فاهدئي.

ـ أحس بك تماطلين في حديثك.

ـ يحيى كان هنا، وسمع أن ضربة القوارب قصفتكم، وأنكم متم جميعاً وقد رحل من هنا قبل أسبوع.

ـ إلى أين؟

ـ لا أعرف بالتحديد ولكن في الغالب عاد إلى جدة.

ـ وما أدراك؟

ـ ربما لا يزال مع طاهر الوصابي صديق المرحوم وهو الذي أهدى زوجي الحمار الذي جئت تسألين عنه.

ـ وأين هذا الطاهر؟

ـ في جدة.

ـ هل أنت متأكدة؟

ـ لا عليك. سوف نتأكد من هذا وسوف أبعث له خبراً بموت صديقه وأطلب منه أن يأتي ويخبر يحيى أنك هنا فقري عيناً.

ـ وكيف حال يحيى؟

وقبل أن تجيب قفزت خادمتها باستبشار:

ـ عندما رأيتك أحسست بأنك أمه فهو يشبهك كثيراً في ملامح وجهه وإن كان فارع الطول وبشرته أكثر صفاء منك.

وقضيت يومي بطوله في بيت الحنوني وقد جذبت يد جمعة وجلست أسألها عن يحيى.

مع الغروب جاءت آمنة زوجة غيلان تلومني وتلوم حليمة على

إمساك ضيفتها عنها دون أن تستأذن منها، فكانت حليمة تعتذر بلطف حيال عشوائية سيل كلمات آمنة.

⊛ ⊛ ⊛

ظللت بجيزان أنتظر رد طاهر الوصابي على رسالة بعثت بها حليمة. كانت الأيام تسير بطيئة متثاقلة، وقد عادت آمنة لتبرمها من بقائنا، وكنت أشعر بثقلنا عليها فبناتي لا يستطعن النوم بارتياح حيث حشرنا جميعاً في تلك العشة الوحيدة، وفي الليل تنتشر القعائد بفناء البيت وننام عليها بدون فرش فتمضغ الحبال جلودنا، لنستيقظ ـ هذا إذا نمنا ـ وأجسادنا مخضبة بآثار تلك الحبال التي لم (توضن) وضناً متقناً.

وقفت تلك العجوز أمامي تغمرني بابتسامتها ولاكت كلماتها بعجل:

ـ هه! التقيت بيحيى؟

كنت لا أزال أشعر بنفور اتجاهها فحاولت الانشغال عنها، كما فعلت سابقاً. لكن جملتها القصيرة جعلتني ألتف حولها التفافاً:

ـ إنه يشبهك تماماً.

ـ وكيف عرفت؟

ـ لقد جاء إلى هنا.

وسردت لي مجيئه ووقوفه ببيت غيلان، وحزنه الذي كان يسيل من بين أهدابه وتقبله العزاء فينا.

وختمت حديثها برغبتها بأن ننتقل إلى بيتها:

ـ أنا امرأة وحيدة. تعال أنت وبناتك وسأجلسكم في عيني.

قبلتها وشعرت بالندم لجفوتي في معاملتها.

كنت كلما ذهبت إلى حليمة أسألها:

ـ هل رد طاهر على جوابك؟

تكون إجابتها نافية وتحاول تبسيط الأمر.

لم نعد قادرين على تحمل تعنت آمنة وخصامها المتواصل وتبرمها المعلن، وكنت أشعر بالغبن دون أن أجرؤ على التفوه بكلمة. فقد كان أبناؤها يضربون يوسف ضرباً مبرحاً لأي تصرف يصدر منه، فأضم ابني لحجري وألوك كل الشتائم التي يمكن لها أن تخفف عني.

قالت صالحة زوجة جبريل:

ـ لم أعد قادرة على البقاء يجب أن نعود لقريتنا.

شعرت بسكين حاد يخترق أحشائي، فلاطفتها بود:

ـ يا غارة الله عليك يا صالحة، كيف نعود وأنا لم أسمع خبراً عن يحيى؟

ـ ابق أنت. أما أنا فسأعود لبيتي، ألا ترين هذه الحرباء ماذا تفعل بنا؟

حاولت أن أثنيها عما عزمت عليه بالتخفيف عنها وإرجاع فورة غضب آمنة لطبعها، لكن صالحة كانت قد بلغت حداً لا تفيد معه كل الكلمات، والتقت رغبتها برغبة زوجها وقررا العودة.

⊛ ⊛ ⊛

وصلنا إلى قريتنا وكانت مفاجأة لم أتوقعها تنتظرني.

كانت معظم البيوت مهجورة وحين أطللنا على القرية من الجهة الشمالية تلقفتنا أيد قليلة فرحة بعودتنا، كان صياحهم عالياً وهم يتساءلون:

- هل التقيت بيحيى؟

- يحيى كان هنا.

- ذهب لجيزان لرؤيتك.

كنت أبادلهم الصياح وألطم خدودي بانفعال:

- هل حقاً كان يحيى هنا؟

بكيت كثيراً ولمت جبريل على تلك الهربة التي لم تزدنا إلا رهقاً، كنت أسأل عبدالله عمر عن كل كلمة تفوه بها يحيى، وأمسك بشباب القرية أعرضهم أمام بصري وأصيح:

- هل أصبح في طول هذا.. في جمال هذا.. في فتوة هذا.

حدثني كثيراً عنه وكلما تفوه بكلمة عن رسائل يحيى التي يرسلها أردد:

- ابني لا يكذب.. لعنة الله على طاهر هذا، خسيس، فسل.

وحزنت لخروجي من القرية، وزاد حزني ليقين يحيى بأننا متنا.

خف قلقي كثيراً لمعرفتي أن يحيى لا يزال حياً يرزق وأن الحياة لا زالت تركض في أوردته، فركضت لسجادتي وركعت طويلاً واختتمت ركعتي بدعاء حار أن يجمع الله شملنا.

❁ ❁ ❁

في الليل تتعالى أصوات الكلاب نابحة باشتهاء ويتمدد نباحها

مختلطاً بصنصنة الجنادب وحشمشة أوراق السنابل المصفرة، ومن بوابة العشة ألمح السماء متلألئة بنجومها المهولة فارتقي السماء بدعوات حارة أرويها بدموعي وأسرح في خيالات شتى.

تنازعني نفسي في البكاء فأبكي حتى تستطيب وأعود أمشط السماء بأمنيات مستعجلة.

أتقلّب في رقدتي وألمح بناتي نائمات كالموتى ويوسف يحلق عليّ بيديه ويغط في نوم هادئ. أشعر برغبة لتقبيله. كان ضوء الفانوس كفيلاً بكشف وجهه وعينيه الواسعتين المسبلتين، لثمته عدة مرات فارتسمت على محياه ابتسامة صافية وانغمس في نوم هادىء.

- آه.. أين أنت الآن يا يحيى؟

في غيبتي وصلت رسالة من خديج حركت في داخلي الفرح، كنت أقبض عليها منتظرة انبلاج الصبح لأقف على سماع أخبارها.

إسماعيل إمام المسجد لم يعد للقرية، يقولون إنه فضل البقاء في صبيا وهجر قريتنا وسكن بجوار صهره، كنت أقلب في رأسي سؤالاً حائراً:

- من سيقرأ لي هذه الرسالة؟

وأتفحص مظروفها على ضوء الفانوس المتهالك أقبلها وأتشممها وأضمها لصدري:

- لو تعلمين يا خديج أن يحيى جاء إلى هنا ولم أره.

كنت على وشك البكاء لكنني تراجعت وحمدت الله على أنه لا يزال يسعى في الأرض ممتلئاً بالحياة، وانشرح خاطري، وكلما أغمضت عيني نأى عني النوم ودفعت الليل بخواطري مستعجلة بزوغ

الفجر، وأخذت أفكر فيمن سوف يقرأ لي هذه الرسالة.

طوال اليوم كنت أبحث عن شخص يقرأها فلم أجد، وكنت ضنينة على مدها لأحد من رجال الجيش الذين كانوا يتزودون ببعض المؤن البسيطة من داخل القرية. خطر بالبال عمر يحيى، ذلك الرجل الذي أرهقني بإظهار رغبته بالاقتران بي، وقف في مخيلتي ورنا بعينيه فاعتراني الضعف وحاولت إبعاده باستحضار صورة يحيى. كانت ملامح يحيى غائمة تقف للحظات وتتلاشى وتعود ملامح عمر يحيى تستحل مخيلتي يقف بقامته المديدة وعينيه الواسعتين السوداوين ورجولته التي تفوح برائحة كرائحة شجرة الطلح، ألمحه يقترب ويحوطني بذراعيه، يعصرني ويعصرني ويتدفق كسيل جارف يطوح بي بين مياهه كشجيرة ليس أمامها سوى الاستجابة لذاك التدفق والركض معه لمنتهاه، شعرت بالارتواء واسترخت كل مفاصلي وتسللت لنوم هانىء.

مع صياح الديكة أفقت، تشاغلت بالكنس والخبز وملاحقة الدجاج الذي لم يعد متبقياً لنا سواه، كان الضحى يقترب رويداً رويداً، لم أطق البقاء فخرجت أحمل رسالة خديج ولا يزال عمر يحيى يقف بالبال. وازيت بيته تماماً وهممت بأن أصرخ به، تخشّب لساني وأحسست بعيون أبنائي منكسرة وهي تقف على فعلتي المشينة، وصوت يحيى يعنفني باحتقار. حاولت دفع نفسي دفعاً لكي تستجيب لهذه الرغبة الطارئة فأبت، تراجعت وابتعدت عن بيته بسرعة متناهية وسرت بمحاذاة الحقول اليمانية، قاطعني في نصف الطريق، كان سعيداً برؤيتي:

ـ مرحباً أم يحيى متى عدتم؟

ـ قبل البارحة.

كان ممسكاً ببندقيته وينظر إليّ بإجلال، شد ذقنه وتمتم:

ـ ما هي أخبار يحيى؟

ـ بخير.

ـ هل سمعت عنه خبراً؟

هززت رأسي هزاً هيناً، وتحركت لمفارقته، استوقفني بلطف وغمغم:

ـ لا زلت راغباً في ابنتك حسينة.

شعرت بنار تغلي في داخلي، وأردت أن أوقف رغبته بصوت صارم:

ـ حسينة لا تزال صغيرة ونحن لا نعرفك ولا يمكن أن أفارق ابنتي.

ـ يمكن أن أتزوجها وأتركها عندك وسأدفع أي مهر تطلبينه فأنا من أسرة ميسورة الحال.

ـ ولو دفعت مال الدنيا.

ـ فكري جيداً، فحالكم سيختلف كثيراً.

ـ أنت جئت للحرب أم للزواج!؟

واكتفيت بجملتي تلك ومضيت مسرعة ومبتعدة عن عينيه الدوديتين.

طفت حول القرية علني أجد من يقرأ رسالة خديج إلا أن أولئك الذين يقرأون غادروا القرية ولم يعودوا بعد. لا أدري لماذا شعرت بغصة حين علمت أن عمر يحيى هرب مع الهاربين ولم يعد،

فذوى في مخيلتي وقامته المديدة تراخت وبقيت رائحته - التي تشبه رائحة شجر الطلح - عالقة بأنفي.

❀ ❀ ❀

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخت الغالية مريم خالدية

المحترمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لم أكن في يوم من الأيام بشوق لرؤيتك كما هو الآن، الله يا مريم تغير الحال ونزلت بنا المصائب كأنها مطر، وكل ما نزل بنا مكروه أتذكر حلم أمي - الله يرحمها -، ها نحن كحبات الرمان يلتقمنا الديك الذي رأته في حلمها.

سمعنا بأخبار الحرب وخفت خوفاً عظيماً عليك وعلى أبنائك خاصة وأن الحرب قريبة منكم، وتمنيت أن أخرج لك أو أرسل لك أن تأتي إلينا فقريتنا لم تعد تصلح للحياة، ولكن حدث حادث كدر صفوي وقلب كياني.

أخبرك أن حسن دخل السجن ولا أعرف مصيره، وكأنه تكلم كلمتين فسحبوه للسجن، وأنا كنت أخاف عليه من الشباب الذين يمشي معهم فكلهم من أغنياء البلد، وكنت أقول له:

- احنا ناس على قد حالنا وما لك ومال الخط المعلق.

فكان يضحك من كلامي، ولا يريحني، وهو ذلحين مرمي في السجن ولا أعرف ماذا أفعل، فادعي الله أن يجنبنا كل مكروه ويفك سجنه.

مريم: حالتي كرب، والله يعلم أني أمشي وأنا في هم لا أعرف ماذا أصنع، وقد وسطت ناساً كثيرين من أجله لكن بلا فايدة، وكل ما قلت لإبراهيم أسأل عن (أخوك) رد: هو اللي جاب هذا لنفسه. كنت حزينة على فراق يحيى وكنت أحاول أن أخفف عنك وعندما جربت فراق حسن أحسست بحرقتك ولهفتك الله يرد علينا الغائبين ويجبر خواطرنا.

آوه. . . يا مريم. أنا كتبت لك هذا الكتاب من أجل أطمنك فإذا بي أكدر عليك بأخبارنا.

الأخت مريم:

أسألك بالله أول ما يصل جوابنا تبعثي بأخبارك وتطمنينا. أرسلت لك مبلغ مائة ريال واعذريني فهذه الأيام أنا لا أعمل، فطوال الوقت أقف على أبواب الناس من أجل أن يتوسطوا لإخراج حسن من السجن.

وفي الختام سلامي على نفسك وعلى أبنائك وعلى جبريل وأبنائه وعلى كل من يسأل عنا.

أختك خديج خالدية

حرر بتاريخ ٢٣ - ٤ - ١٣٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخت خديج خالدية

حفظك الله آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أحوالنا لا تسر عدو ولا حبيب، فقد جاءت هذه الحرب

وقلبت حالنا، لقد هربنا إلى جيزان ومن هناك إلى فرسان وتعبنا تعباً شديداً، والذي يحزنني أن يحيى جاء إلى هنا، تصوري يا خديج يحيى جاء إلى قريتنا وسأل عني فقيل له في جيزان وذهب إلى جيزان فقيل له أننا متنا وعاد مرة أخرى إلى جدة، يحيى في جدة يا خديج مع رجل اسمه طاهر ربنا يجمع شملنا عن قريب إنه سميع مجيب.

أسفنا لما حدث للابن حسن فرج الله كربته وأخرجه من سجنه، ولم أفهم من رسالتك لماذا سجن، تقولي قال كلمتين، فهل يسجنون الناس لأنهم يتكلمون؟

ما في يدي إلا الدعاء أن يجمع الله شملنا إنه على كل شيء قدير.

أخبرك يا خديج أن رسالتك استلمتها بعد عودتي من جيزان والذي سلمني لم يعطني فلساً معها.

وعندما أخبرته أن مع الرسالة مائة ريال وصية نكر وحلف حلفان تهتز له الجبال وقال إنه استلمها بدون فلوس ويبدو أن الحرب غيرت النفوس كل واحد يريد أن يأكل أخاه، الله يعوضنا من فضله ويرزقك من حيث لا تعلمين.

في الختام أدعو الله من كل قلبي أن يجمع شملنا بالغالين ونذراً عليّ أن أحمل يحيى وحسن وأزور بهما قبر المصطفى.

سلامي على نفسك وعلى الابن إبراهيم وقولي له تقول لك خالتك مريم الإخوة في الدنيا أما الآخرة بخت تلقاني، فعيب عليك يا إبراهيم تترك أخاك في السجن ولا تسأل عنه.

وفي الختام سلامي على نفسك وعلى حسن وإبراهيم وربنا يفرج كربة حسن.

ملاحظة: هذه السنة لم أقدر على الحج، أتمنى أن أحج السنة القادمة بصحبة يحيى، قولي آمين.

أختك مريم خالدية

حرر بتاريخ ١٢ ـ ١١ ـ ١٣٨٣

لم يأت خبر عن يحيى.

كنت أراسل خديجة وحليمة وكل منهما لا ترد على خطاباتي.

❀ ❀ ❀

وصل خطاب من خديج بعد عدة أشهر تسأل:

ـ من هو طاهر؟

ذكرت اسم طاهر في خطابك دون أن تذكري لقبه، وجدة ليست كالقرية فهنا أناس كثيرون، ننتظر رسالة تخبرينا فيها من هو طاهر واقترح عليك الرحيل إلى جدة ليجتمع شملنا. فما دام يحيى هنا فسنجده، ولو فكرت بالمجيء فعنواني حارة العمارية بالقرب من الفرن الكبير إذا وصلت إسألي عن ناجية وسيدلك أي شخص. أتمنى أن تحضري.

ولم ينغص عليّ إلا تلك الجملة القصيرة المبتورة التي ختمت بها رسالتها:

ـ حسن لا زال في السجن وعذراً لا أستطيع أن أرسل لك شيئاً هذه الأيام فالحال لا يسر.

❀ ❀ ❀

ووصلت رسالة مقتضبة من حليمة تخبرني فيها بما يلي:

ـ عادت الرسالة التي بعثت بها لطاهر، فقد أخبرني من أرسلت معه أنه لم يعثر على طاهر فهو مسافر ولم يعد من شهور.

❁ ❁ ❁

ـ لا بد من الرحيل قبل أن يضيع يحيى مرة أخرى.

نظر إليّ جبريل بغضب وخرجت كلماته من بين أسنانه:

ـ ومن سيصحبك في سفرك الطويل؟

ـ إذا لم تقدر أنت فسأخرج مع قافلة الحجيج لهذا العام.

ـ سبقتك أختك فيما تفكرين به الآن وكأنكما ليس لكما رجل تستشيرانه.

ـ وهذه أليست استشارة؟

ـ ولو قلت لك لا.

ـ استسمح منك وأسافر.

ـ إذاً قد بيت النية ولا يهم أن أوافق أو لا أوافق.

ـ ابني سيضيع مني يا جبريل.

ـ ابنك رجل وسيعرف بأنك تنتظرينه، فابق في مكانك.

ـ يحيى يظنني ميتة.

ـ سيعرف ذات يوم الحقيقة ويأتي.

ـ أعذرني يا جبريل، سأخرج.

ـ وأبناؤك لمن تتركينهم.

ـ سأحملهم معي.

ـ إذا وجدتِ شيئاً زائداً في يدك اخرجي.

ونفض مؤخرته وخرج غاضباً.

❁ ❁ ❁

أيام الحج تقترب وليس معي ما يحملني للرحيل، كنت أمضي الليل أفكر في وسيلة لجلب مال يقلني لجدة.

فكرت في خديج كثيراً وقررت أن أرسل لها طلباً لنقود تساعدني بها للسفر، هذا القرار تبخر حين تذكرت تعذرها في رسالتها الأخيرة، وأنها توقفت عن العمل واستندت على ما يحصل عليه إبراهيم من عمله كمجاود، وظلت تبكي حسن حتى وإن استطاعت أن تبعث بشيء فإن هذا يتطلب وقتاً من الزمن ستكون قوافل الحجيج خلاله قد رحلت.

ـ آه كيف يمكن أن أحصل على النقود؟

لم يعد هناك أي شيء صالح للبيع، وليس بالقرية من يقرض ماعونة، فكيف إذا طلبت مالاً.

أصبحت لا أفكر في شيء. فقط كنت أفكر كيف يمكن أن أحصل على مال يبلغني الغالي.

❁ ❁ ❁

طفرت تجارته فجأة. ويقول أهل القرية عنه أقوالاً معكرة ولم يجرؤ أحد على معاداته علانية، كانت تجارته تنمو كما تنمو أزهار الخبوت عقب موسم ماطر، يقولون إن حمد ترك عنده ثروة ضخمة ثمناً لتلك الأسلحة التي اشتركا سوياً في تهريبها، همست في أذني حفصة بنت مبارك:

ـ اذهبي إليه عله يقرضك، ذكريه بقرابتك من حمد.

وقفت على دكان حسين منجلي متمنية عليه أن يقرضني، وأول ما سمع طلبي كشر عن أنيابه المتساوية، محاولاً التحدث بصوت هادىء:

- يا مريم لا زالت أشباح الحرب تقف على هامتنا وأنت تطلبين قرضاً.

- لك وجهي أن أعيده إليك أول ما أصل جدة.

- وجهك عندك وأنا لا أستطيع أن أقرض أحداً.

- أنت تعلم أن حمد ابن عمي، فمن أجله مد لي يد العون.

- قبحه الله، إنه رجل فاسد الطوية، ألم تجدي من تتشفعين به سوى هذا المعطوب؟

ودخل إلى دكانه وتركني واقفة أنتظر، وعندما أحس بوجودي صاح من الداخل:

- على الله يا مريم[٣٣].

اهتززت وأحسست أنني أنهار دفعة واحدة فصحت به:

- وهل جئت أتطلب منك حتى تقول لي: على الله.

- قلت لك على الله وافهميها كما تشائين.

قلبت ميزانه صائحة:

- أستحق ما يأتيني من أمثالك، فأنت كالكلب إن شبع نبح وإن جاع نيب[٣٤].

---

(٣٣) لفظة على الله تقال للمتسولين. وفي المنطقة الجنوبية بالمملكة يقال للمتسول: طالب وفعلها يتطلب.

(٣٤) نيب: مأخوذة من الأنياب ومعناها: العض الشديد للكلاب المسعورة.

خرج كالثور الهائج، وأمسك بيدي وزبد شدقيه يتطاير:

- والله لو لم تكوني حرمة لقطعت لسانك.

فوقف بيننا خلق كثيرون ينظرون إلينا بتعجب واستغل تواجدهم وأخذ يشتكي إليهم مني:

- اشهدوا على هذه الحرمة جاءت تطلب قرضاً وعندما امتنعت شتمتني.

كان كل من حولنا صامتين يقلبون أبصارهم بيننا ولا يحيرون جواباً، وأنهى حديثه بنفس تلك الجملة الحارقة:

- قلت لك على الله.

اشتعل بداخلي الغضب. كنت أبحث عن شتيمة أقتص بها منه وأطفىء غلّي فتطايرت كلماتي. أذكر أنني قلت له:

- لولا الخيانة لكنت الآن لا تزال تبيع الدوم.

اتسعت حدقتا عينيه وأقبل عليّ يود صفعي، فحال بينه وبيني بعض الرجال وهو يرعد:

- قلت لك على الله والخائن والد عمك حمد.

- أنت وهو خونة.

- لو ذكرت الخيانة مرة أخرى فسأقبرك مكانك.

- خائن بن خائن.

تفلت من أيدي الرجال الممسكين به وأقبل عليّ كالثور الهائج، فاحتميت برجلين يجاوراني، فمنعاه عني ودفعاني للعودة، كنت أسير وصوته يتبعني:

ـ ليس لك رجال يمكن أن أتفاهم معهم، والله ثم والله لو رأيتك تقفين على دكاني لكسرت رجلك.

عدت كسيفة إلى البيت، وقبل أن أستقر كان جبريل يقف على رأسي والغضب يتطاير من عينيه:

ـ خيرة الله عليك يا مريم.

ـ خير يا جبريل.

ـ من أين يأتي الخير وأنت لك في كل يوم حكاية وكل يوم وأنت (موطية) رأسي، ألم تجدي سوى المنجلي لتطلبي منه قرضاً ألا تعرفين أنه رجل مشبوه.. رجل ليس له ذمة ولا دين؟

كان صوته يتشقق وأطرافه ترتفع صوب وجهي بتوتر، وكلما حاولت تهدئته نفرت عروقه وزاد هياجه وقسمه يئز في أذني كطلقة رصاصة من فوهة بندق قديم عبرت رأسي:

ـ حرام وطلاق من زوجتي إن خرجت وسألت أحداً لأكسرن رجلك وليكن ما يكون.. ومنحني ظهره على عجل دون أن يسمع مني كلمة واحدة.

❀ ❀ ❀

في ذهابي وإيابي بحثاً عمن يقرضني، ألتقي به، فأعبره وعيناه الدوديتان تتسعان وتسيل من فمه كل كلمات الترحيب، في آخر مرة تجرأ وفاتحني هاشاً:

ـ مرحباً أم يحيى.

ـ ....

ـ ألم يأتك خبر عن يحيى؟

ـ وهل تركت جنديتك لتحرسنا.

ـ لماذا تعاملينني هذه المعاملة؟

ـ انتظر حتى أقبل رأسك.

صمت، فتركته ومضيت في طريقي ليلحق بي متودداً:

ـ أكرر رغبتي: أريد حسينة زوجة لي.

ـ هكذا.

ـ سأدفع لك ما تشائين من مهر.

تركته يتبعني بتوسلاته، وخاطر لعين يتقافز من مخيلتي.

❀ ❀ ❀

اسمه عبدالله المحماس، هكذا علمت من جبريل ونصحني بالموافقة على تزويجه بحسينة.

ـ وهل يرضيك أن أبيعها؟

ـ وهل أصبح الزواج بيعاً يا مريم؟

ـ يريد أن يدفع بها ما نطلبه من مهر وكأنها غنمة جلبت للبيع.

ـ هو طالب فاشترطي عليه ما تريدين.

ـ ولكن ابنتي لا تزال صغيرة.

ـ أمثالها حبالى نفساء.

ـ لا لا. أخبره برفضي.

ـ فكري جيداً، فهو عارض خدمة أنت تنتظرينها من زمن.

- وأي خدمة يمكن أن يقدمها هذا الدعي؟

- ولماذا تصفينه هذا الوصف؟

- أنسيت كذبه وادعاءه بمعرفة يحيى؟

- كان الرجل يريد أن يتقرب منك بما تحبين.

- ولو. في النهاية هو رجل كاذب.

- هل عرفت ماذا سيقدم لك؟

- ....

- سيحملك إلى جدة، ويتعهد بأن يوصلك لابنك مهما كلفه ذلك من مشقة.

- ....

⊛ ⊛ ⊛

حفصة بنت العولق: سمعت يقولون مريم خالدية ستزوج ابنتها حسينة من الرجل الشرقي.

ليلى طالبية: مريم تبيع ابنتها لكي تحصل على نقود ولولا ذلك فما الذي يجبرها على تزويج زينة بناتها لرجل لا نعرف عنه شيئاً إلا أنه جندي جاء للحرب.

آمنة بنت عبدالله حسين: يا ناس خافوا الله هذا نصيبها.

ليلى طالبية: نحن نخاف الله، لكن مريم أصبحت تبيع كل شيء حتى بناتها لتصل إلى ولدها، ألم تسمعي بشجارها مع المنجلي.

- هذا رجل أفاك.

- ومريم أعماها الفراق ويمكن أن تصاحب الشيطان.

عبدلية مساوي: مسكينة حسينة سوف تدفن شبابها مع رجل يكبرها بثلاثين سنة.

شوعية يحياية: كل هذا ليس مهماً، الكارثة أنه سيرحل بها إلى نجد.

- يرحل بها؟

- نعم يرحل بها.

ميمونة بكرية: الرجال كالغربان يأتون ليسرقوا أفراح بناتنا.

عائشة جريبان: عكروا حياتنا بهذه الحرب، من كان يصدق أن بناتنا تُزف لخارج القرية، الله المستعان.

فاطمة يوسفية: يقولون إن جبريل وراء هذا الزواج.

ليلى عبدية: سمعت ويقولون إن الرجل الشرقي أعطاه مالاً كثيراً ليسعى له عند أخته.

فاطمة موساية: سمعت أن حسينة رافضة هذا الزواج، ويقولون إنها عاشقة ابن المحرقي.

صالحة إبراهيمية: تعشق من تعشق فنهايتها أصبحت معروفة.

زينب يوسفية: مسكين عليّ محرقي سيصيبه الكمد وهو لا يزال شاباً.

- مسكينة حسينة.

- مسكين ابن المحرقي.

[من أقوال نساء القرية حين سمعن بعقد نكاح حسينة على الرجل الشرقي]

❀ ❀ ❀

جلست أتأمل دجاجتنا وهي تنقم الأرض بهمة وتنفش جناحيها وتمسح منقارها بمخالبها التي استطالت، وتقفز من مكان لآخر ناقمة الأرض فيعلق بمنقارها دود تلتهمه بسرعة وتنبش أماكن أخرى بحثاً عن دود إضافي.

وقفت فاطمة في وجهي وهي تشير للدجاجة:

ـ الله يسخر لكل دابة رزقها.

ـ سبحانه.

ـ هل تؤمنين بهذا؟

تطلعت إليها بغضب وصحت:

ـ وهل تشكين في ذلك؟

ـ أفعالك تجعلني أشك.

ـ وماذا فعلت؟

ـ كل هذا وتسألين؟ يحيى خرج ليزودنا بالمال فضاع منا وانقلبت حياتنا بحثاً وسؤالاً عنه، والآن تدفعين بحسينة للضياع.

ـ هذا نصيبها.

ـ لا . . ليس نصيبها.

ـ هل يغضبك أن تتزوج قبلك وأنت الكبرى؟

ـ يغضبني أنك تبيعينها من أجل نفسك.

ـ أنت قليلة حياء، ولم أعرف كيف أربيك.

ـ قولي ما تشائين لكن ما يحدث لحسينة ليس نصيباً بل صفقة أنت الوحيدة المستفيدة منها.

ـ أنت لا تفهمين شيئاً؟

ـ أفهم كل شيء، أنت تظنين أن هذا الشرقي هو المبعوث لنجدتنا، ولكي لا تسرقك أمنياتك أقول لك هذا الرجل يريد أن يستأنس بشباب حسينة ثم يقذفها لك أرملة، وربما يحملها معه إلى نجد فلا نجدها، ونظل نبحث عن يحيى وعنها.

ـ قولي أريد أن أتزوج ويحق لك أن تصرخي: لماذا تقدمين حسينة عليّ وأنا الكبرى، هذا كل ما تريدين أن تقوليه.

ـ أنت تغالطين نفسك ولا تريدين أحداً أن يوقظك مما أنت فيه.

ـ قلت لك تأدبي يا فاطمة.

ـ كل القرية تتحدث عن هذا الزواج ويقولون إنك بعت حسينة.

ـ ليقولوا ما يقولون هذا نصيبها.

ـ ليس نصيبها بل رغبتك في الخروج لجدة بمهرها.

ـ اسكتي.

ـ لن أسكت.

ـ قلت لك اسكتي.

وفي فورة غضبي تناولت حجراً غليظاً وصوبته على صدرها فارتطم بكتفها الأيسر، لتسقط تتأوه، وأخذت أبكي بحرقة.

❁ ❁ ❁

نضب زيت المصباح، فاحترقت عروقه وغفا في ظلمة غامقة، كنت أتململ في رقدتي، ودموعي تنساب على خدودي بغزارة كلما سمعت تأوهات فاطمة الراقدة على القعادة الخلفية لمرقدي، كانت تحاول جاهدة أن تكتم أنينها.

تورم كتفها ولم يجد الغمز انتفاخ مفصل كتفها فوضعت لها لبخة من حمر وملح ودقيق وعلقت يدها برقبتها بقطعة قماش بالية وأخذت أدعو الله أن ينجيها مما أفكر فيه، وكلما سمعت تأوهاتها أحسست بنار تشتعل في أعماقي.

الليل يبتلع آهاتنا ويتغلغل في المكان كإبرة دست في فراش لين، ويهدأ كل شيء حتى تأوهات فاطمة خمدت ونهضت أنفاسها تتردد برتابة وانتظام، وغرقنا في الظلمة والصمت، كنت أفكر بحسينة:

(لماذا لم تعترض وهي التي يبرأ منها لسانها، لماذا لم تقل كلمة واحدة، وظلت صامتة طوال الوقت وانسحبت لداخلها بهدوء وسكينة، وظلت عيناها تراقبان تجهيز عرسها وكأنه يقام لفتاة سواها...).

خيل لي أن صوت حجر ارتطم بعرصتنا.

كنت أهم بالنهوض لكنني تراجعت وعدت أقتات وساوسي الكثيرة.

وقع حجر يرتطم بالأرض.

ذبلت حسينة لم تعد ريانة، ولم تعد ضحكتها تجلجل بين أختيها، وخمدت تعليقاتها ونغزاتها، وتوارى رفضها لما لا يعجبه خلف أهدابها الطويلة الناعسة.

وقع حجر يرتطم بعشتنا.

لم أكن واهمة هذه المرة، هل ثمة لصوص يحاولون سرقة هذا البيت الخرب، وهل اللص يخبر عن مقدمه، ماذا يمكن أن يكون؟

شيء ما يتحرك من داخل عشتنا بحذر، استكنت في مرقدي، كنت ألمح شبحاً ينهض من بين بناتي يتلصص بمراقدنا ويسير بحذر وارتباك. عبر الشبح بوابة العشة للخارج فتطاير شعر مسترسل لا يكون إلا لحسينة.

(حسينة! ما الذي دعاها للنهوض في مثل هذا الوقت؟.. أخرجت لقضاء حاجتها؟.. لماذا تسير بهذه الريبة؟.. أخرجت لتفقد مصدر ذلك الحجر الذي ارتطم بعشتنا؟..).

نهضت في إثرها. كانت تسير صوب السجف المحاذي للمطبخ وثمة شبح آخر انزوى بين أعواد القصب اليابسة، وحين رآها وقف ماداً يده إليها فأسلمتهما إليه بلهفة وهي تهمس:

ـ ألم أقل لك لا تأت؟

ـ سأجن يا حسينة!

ـ وأنا مثلك، ولكن انتهى كل شيء.

ـ لا يمكن.

ـ في أوقات كثيرة غير الممكن يصبح ممكناً.

ـ هذا بيع.

ـ نعم بيع فهل تقدر على الشراء؟

ذوى صوته وبعد حين ارتفع متحسراً:

ـ تغيرت يا حسينة.

ـ قل ما تشاء. فقط أريدك أن تعرف... لا زلت أحبك.

ـ تحبينني وتزفين لرجل غريب.

ـ الغريب لديه المال، هذا المال الذي سيعيد أخي ليحمي بقيتنا من البيع.

ـ سأقتله قبل أن يصل إليك.

ـ وهل تريد أن ترملني وتبعد أمي وأخوتي من الوصول ليحيى؟

صمت، فنهض صوتها حارقاً:

ـ اوعدني أن لا تفعل شيئاً.

ـ..........

ـ أوعدني.

ـ إذا لم أقدر على شيء سأقتل نفسي.

ـ وتتركني في هذه الدنيا وحيدة.

ـ أنت التي تتركينني.

ـ يكفي أن أحس بأنك بها حتى أقوى على تحمل ما سوف يأتي، هيا لنتوادع.

ـ لا أقوى على ذلك.

ـ ستتعذب قليلاً، هيا لنتوادع.

تركتهما ممسكين بأيدي بعضهما وانسللت لمخدعي، أحاول جاهدة أن أكتم بركاناً هَمَّ بالانفجار، كان شبحها قد تسلل وعادت إلى مخدعها وأطلقت نحيبها بصوت مكتوم، فلم أقدر على إخماد بركاني من الانفجار.

⊛ ⊛ ⊛

ليلة مضت كنت أظن أنه سيمسنا منها فرح.

كانت الزغاريد تخرج من حناجر النساء يابسة متخاذلة وترتطم بوجوه بناتي اللاتي كن يحطن بحسينة.

كانت تجلس كشكلى وقد يبست الحياة في جسدها الريان، وتندت عيناها بالدمع وقد أحاطت بها فاطمة وليلى وبعض صويحباتها.

لم أسمع أياً منهن يبارك لها، فجميعهن يحطن بها ويطوحن بأحاديثهن بعيداً عن تلك الزغاريد المتخشبة.

كنت أتقبل التهاني، والغمزات وغرس الأحاديث المدببة في مسامعي، فأتشاغل عنها بالصياح لبعض الصبايا اللائي كن يحملن المباخر وحثهن بالدوران بها بين الحاضرات، وفي أوقات كثيرة أطلق كلمات لا معنى لها.

كنت حزينة على حسينة وزاد حزني تلك القرارات التي حملها عبدالله المحماس حين رفض أن تضاء الأتاريك، أو تطلق الأعيرة النارية، وقفت في وجهه غاضبة:

ـ هذا زواج وليس موتاً.

(سمعت إحدى جاراتي تردد من خلفي: بل الموت نفسه).

ففتح فمه عن ابتسامة عريضة وحاول أن يوسع عينيه الدوديتين:

- يا أم يحيى نحن لا زلنا في أيام حرب، وقد تحدث مظاهر الفرح شيئاً نكرهه جميعاً.

- وهل تزف ابنتي وكأنها جنازة وليست عروساً؟

- أعدك أن أقيم لها عرساً كبيراً في بلدتي.

- ألم نتفق أنها ستظل معنا؟

صمت، واحتواني بين ذراعيه وهو يردد:

- هيا يا أم العروس زفي عروستنا.

وخطفها من يدي وغاب بها في عشتنا الوحيدة، وجلست أنا وأبنائي بفناء البيت نستمع لصراخها الذي خمد على استغاثة بائسة.

❀ ❀ ❀

وقفت القرية لوداعنا.

كانت عينا حسينة معلقتين هناك حيث وقف ابن المحرقي، استوينا في مقاعدنا، والأيادي تلوح والدموع تتناثر من المحاجر. وقبل أن نستوي كان صوت عبدالله المحماس يأمر السائق بالانطلاق، فتطاير خلفنا غبار كثيف انقشع فأبصرنا عليّ بن المحرقي يركض خلفنا بكل ما يستطيع من قوة.

الفصل العاشر

وصلت الموقفة.

كانت الوجوه شائحة تدب بالأرض، ولغط الباعة والمسافرين والعائدين والسائقين يتداخل فيولد أصواتاً متزاحمة على صوان الأذن، وقد وقفت السيارات صفوفاً متوازية، وبعضها أفرغ أجساداً منهكة، وبعضها يستعد لسفر طويل، ومعظمها وقف انتظاراً لمسافرين جدد تقلهم إلى ميادين غربة جديدة، نزلت حاملاً تلك الحقيبة التي لم تفرغ فساتينها وأقراطها ومسست بقدمي الأرض، خطوات كسولة وذهن شارد، وتشتت وضياع يتسعان بداخلي، سلكت نفس الطريق الذي اصطحبني فيه طاهر قبل سنوات بعيدة، أزقة ملتوية وروائح خمرية، وقمائم متناثرة ووجوه تبتعد وتقترب.

كان الأصيل يستأذن في الدخول إلى مدينة جدة التي نشطت، واسترسلت ضفائرها على الشاطىء الطويل ووزعت مفاتنها بين أزقتها الملتوية. كنت أشم رائحة بحرها فتذكرني بالمراكب المهاجرة على الدوام.

- ألا زالت الدنيا تستقبل الغرباء؟

نتبادل مع المارة النظرات السريعة الخاطفة ونعود لدواخلنا لنقتات وساوسنا عبر تلك الخطوات المتلاحقة. مجموعة اقتعدت

أطراف الشوارع للعب الدمنو وصيحاتهم تتعالى، وافترش الصبية الأزقة في لعب محموم وبعضهم انغرس بين النفايات يبحث عن لعبة أو شيء له قيمة. كنت أتلهى بتلك المناظر وداخلي يمور بالأسئلة توقف ضجيجها حين وقفت أمام الباب وطرقته بتكاسل:

ـ من؟

(إنها هي، نفس الصوت الذي يحرقني ويحيلني إلى رماد...)

ـ من؟

(هل أجيبها، أم أتركها تعيد سؤالها وأتلذذ بسماع صوتها، هل ستفرح لرؤيتي؟ كم سأفرح لو حدث هذا!!)

ـ قلت من؟

(صوتها يطفح بالضيق، دائماً متبرمة، لو لازمت الصمت لربما أمطرتني بكلمتها التي تقف على شفتيها دائماً «وجع»، هل أتمادى في صمتي؟...)

ـ وجع، كفى طرقاً، ألا تسمع من؟

ـ أنا يحيى.

فتحت الباب، فنسيت كل شيء وغرقت بعينيها. كنت متلهفاً لاحتوائها، لأن أغرس رأسي في صدرها الفائر وأبكي. كنت متلهفاً لأن تنفرج شفتاها، لأن تقولا شيئاً، مددت يدي، فمدت يداً باردة، ضغطت عليها فغاصت أناملها العاجية في راحتي فسحبتها على عجل:

ـ لماذا لا ترد؟

ـ......

كانت خيرية تقلب أوراق الكتشينة، وتجتر دخاناً كثيفاً من شيشة استقرت أمامها، وعندما رأتني هبت من جلستها صائحة:

ـ يحيى، حمداً لله على السلامة.

وحوطتني بذراعيها، جاءت عواطف من داخل الغرفة راكضة، وفتحت ذراعيها كانت تود أن تخطفني لصدرها، تراجعت في آخر لحظة، وأمسكت بيدي بفرح واستبقت يديها في راحتي فسحبت يدي وعيناها لا تزالان معلقتين بي وفمها يفور بالابتسامات:

ـ طولت الغيبة.

وانزوت حياة لداخل الغرفة ممسكة بجديلتها وجامحة بجسد ارتوى ففارت مفاتنه.

❀ ❀ ❀

ـ هل وجدت أمك؟

كنت محتاجاً لصدر امرأة لأبكي، انهمرت دموعي وظللت أقف متخشباً.

ـ ماذا بك يا يحيى؟

كان عليّ أن أطلق حزني دفعة واحدة وأبكي. كنت محتاجاً للبكاء، محتاجاً لأن أشعر بشفقتها، محتاجاً لمن يظللني بقلبه ولو لحين:

ـ لقد مات كل أهلي في الحرب.

ركضت وخطفتني لصدرها، فبكيت بكيت طويلاً، وشاركتني البكاء، ومن بعيد كانت تقف عواطف دامعة وتتناشج:

ـ لك العمر يا يحيى.

وللحظات وقفت حياة على رأسينا وبفتور رددت:

ـ عظم الله أجرك.

وعادت لمكانها وكأن شيئاً لم يحدث.

❀ ❀ ❀

كانت تجلس وحيدة، همست بها:

ـ حياة.

(نظراتها تحرق الكون، وتحيل الحياة إلى غيمة يانعة).

ـ نعم.

ـ أريد أن أتحدث معك.

ـ في ماذا؟

ـ لم أعد قادراً على معاملتك.

ـ وماذا تريد؟

ـ أريدك أنت.

فزت من جلستها:

ـ كم أنت صلف!!

ـ صدقيني لم أعد قادراً على العيش بدونك.

وانبثت مشاعري كنت أسرد على مسامعها كل الأمنيات وهي مطرقة، حتى إذا اقتربت منها نفرت وصاحت:

ـ لا تمنح نفسك ما لم أمنحك.

ـ أريدك زوجة.

ـ يبدو أنك جننت. أنت خادم عندنا لا تنس ذلك.

شعرت بالدنيا تدور ونار تحترق وشياط يخرج من بين جدران حنجرتي.

❁ ❁ ❁

تخشب في داخلها كل شيء، واستكانت لأوراقها تقلبها وتتطلع إليها لتخلق حلماً تعيش به وفيه، وضمرت لهفتها.

ـ أين طاهر؟

ـ كعادته لم يعد منذ أن غادرت.

(هل أخبرها بخساسة زوجها؟ أيام طويلة كان يقتات جهدي ومالي واختلق تلك الرسائل ليوهمني، ما فائدة أن تعيش مسلوباً، هل يكفي قتله إزاء خساسته؟)

كانت خيرية تنظر إليّ بعينين باردتين:

ـ سمعت أنه وجد من يبحث عنها وتزوجها.

صمتت وتطلعت إليّ منتظرة أن أعلق على قولها وعندما وجدتني صامتاً أردفت:

ـ كان يقول إنه لا يملك قرشاً واحداً لكنه أمام النساء يعرف كيف يخرج النقود، لقد هنا عليه.

(هل أخبرها أن زوجها سارق، سرق جهدي وزرع بداخلي كذبة كبيرة ومضى، هل أخبرها وأزيدها إيلاماً؟. . .)

ـ في رأيك هل يعود يا يحيى؟

تركتها تهذي بأمنياتها ودخلت إلى البرندة، وقبل أن أسترخي على فراشي سمعت طرقاً خفيفاً على الباب، وصوت عواطف من الخارج يلح:

ـ يحيى، افتح الباب.

❁ ❁ ❁

لم أكن متوقعاً ما حدث.

ضاق بي المكان، واستشعرت بوحشة، كان عليّ بأن ألتقي بأحد الشباب، وإن كنت أتمنى رؤية قدوري، سرت هائماً بين الأزقة وصور كثيرة تتبعثر بالذاكرة.

ـ ماذا أصنع؟

حدث كل شيء بسرعة متناهية، كشفرة ذات نصل حاد جزت رقبة ضحيتها دون أن تمكنه من مد صرخته بعيداً. وقفت أمامي مباشرة، وخطفتني لصدرها وهي تجهش:

ـ أحبك.. أحبك.

كنت أقف متخشباً وهي معلقة برقبتي، وكلما حاولت نزع يديها تمسكت بي، قبلت رأسي، وعيني، وصدري، وأطبقت على شفتي، توترت كل أعضائي، ووجدت نفسي، أعصرها عصراً، وهي تلهث بفحيح:

ـ أحبك.. أحبك.

خطوات وصرير باب، كانت تقف بعينيها الحارقتين وجسمها الفائر وصوتها الذي يحرقني دوماً:

ـ لم أظنك أن نفسك تقودك للقاذورات.

جفلت وتراخت يداها من على عاتقي وبصوت لاهث، أحزنت:

ـ هو أكثر رجولة ممن تطارديه.

بصقت في وجهي، ومضت للداخل، فدفعت بعواطف خارج البرندة.

ضيق طافح يلازمني، وأشعر بالغثيان. رضابها لا زال عالقاً

بفمي، وكلما بصقت أحسست به يجري في حنجرتي، يذكرني برضاب تلك المرأة الأفريقية التي غرست جسدي بين شحمها، يمتزجان ويجري رضابهما في حنجرتي يعتريني الاشمئزاز فأبصق، وأبصق وأحاول التقيؤ.

(لم يعد بالإمكان الوصول إليها، كيف طاوعت تلك الحمقاء، نحن حيوانات تستجيب للغرائز في أي حين، كيف يمكن أن أصلح ما حدث، ومن هو هذا الرجل الذي تطارده حياة؟... هل تحب شخصاً ما؟ سأجن إن كان ذلك صحيحاً، لقد سقطت من نظرها بفعلتي تلك، كيف لي أن أصلح ما أفسدته تلك الحمقاء؟).

لمحت صالح مستعجل يقف بجوار بائع المنفوش، ارتمينا في أحضان بعضنا:

ـ أين يمكن أن أجد قدوري؟

كمم على فمي وسحبني، كنت أحاول دفع يده وهو يشد على مرفقي:

ـ لا تقل أي كلمة؟

ـ .....

التزمت بالصمت وسرت معه:

ـ تم اعتقال قدوري ووجدي وحسن.

ـ لماذا؟

ـ ساروا في مظاهرة.

ـ مظاهرة من أجل من؟

ـ من أجل زعيم الأمة جمال.

ـ جمال لا يستحق حتى أن نسميه بهذا الاسم.

ـ ماذا الذي حدث لك؟

ـ لو تعرف ماذا فعل زعيم الوحدة العربية، لقد ساوى الأرض بأجساد أناس ليس لهم شأن في كل ما هو دائر.

ـ أنا لم أعد أعرف شيئاً.

ـ والأفضل ألاّ تعرف.

كنا نسير ومجموعة من الصبية ممسكة بحمارين أحدهما أشهب والآخر أسود وقد خط عليهما عبارتان ببويا حمراء وبيضاء (آخر يومك يا سلال) (جمال يا عبد الأحرار)، وبأيدي الصبية عصي يجلدون بها الحمارين ويتصايحون:

ـ جمال يا عبد الأحرار.. آخر يوم يومك يا سلال.

ـ انظر كيف يتصرف الرعاع.

مططت شفتي وهتفت به:

ـ أنت تستمتع بمقولات أرباب الشعارات، لكن الذي انحرق بتلك المقولات يفعل أي شيء كي يخرج غلّه.

ـ لقد تغيرت كثيراً في وقت وجيز.

ـ دع الكلام جانباً فلم أعد أحتفل بما كان وسيكون.

ـ إذا نحن انهزمنا فمن باب أولى أن ينهزم الآخرون.

ـ صالح كف عن هذا الكلام الكبير فأنا أعرفك تماماً. لم تكن في يوم ما مع أو ضد.

امتقع وجهه وانفعل:

ـ أنت الذي كنت تردد الكلمات عرفتنا على الطريق وبقيت بواباً لمن يريد الدخول.

شعرت أنه يحتقرني، فبادلته الضغينة وأغلظت له القول، نفرت كلماته حادة:

ـ ما الذي يمكن أن تنتظره من قهوجي؟

اقترب الصبية منا وهم يتدافعون الحمارين وأيديهم تشبعهما ضرباً وهم يتصايحون:

ـ آخر يومك يا سلال.. وأنت كمان يا جمال.

وبدون شعور تناولت عصا من يد أحد الصبية وأخذت أجلد الحمار الأسود وأصيح:

ـ آخر يومك يا سلال وأنت كمان يا جمال.

كنت أضرب بكل قوة وصوتي يتشقق:

آخر يومك يا سلال وأنت كمان يا جمال.

وتقاعس الحمار تحت ضرباتي واستلقى على الأرض.

❁ ❁ ❁

وقفت في دكان الأفندي، وكأنني أعمل لأول مرة، فكثير من الوصفات نسيتها، واختلط عليّ الأمر.. كنت حاد المزاج مع كثير من الزبائن مما حمل أيوب الهندي على الاعتذار منهم نيابة عني.

وقف أبو وجدي أمامي مباشرة، فتحركت للسلام عليه، فجذبني من يدي وسار بي بين منحنيات السوق:

ـ هل تعلم أن وجدي في السجن؟

ـ نعم.

ـ ماذا كان يصنع؟

ـ لا شيء غير الكلام.

ـ (وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا من أحصدة ألسنتهم)؟

ـ . . . . . .

ـ وهل كنت معه؟

خشيت أن أستفسر (معه في ماذا) وسارعت بإجابة موارية:

ـ كنت في جيزان.

ـ اليوم سوف أراه فهل ترغب في رؤيته؟

ـ نعم.

ـ لتكن جاهزاً قبل العصر فقد استطعت الحصول على إذن لرؤيته.

❁ ❁ ❁

كان الجو متوتراً. . فعندما دخلت بصقت حياة باتجاهي ومضت لداخل البيت، وظل رأس عواطف مدلى على صدرها بينما كانت خيرية تنظر في أوراق الكتشينة وتنفث دخاناً كثيفاً من تلك الشيشة التي استقرت أمامها، أمسكت بولد (الديمن) وقالت بفتور:

ـ أظنه لن يعود.

وعندما رأتني أقف على رأسها قالت:

ـ ما رأيك يا يحيى في رجل. . . .

(كنت أظن أن حياة أسرت إليها بما رأت، فتخشبت في مكاني ولذت بالصمت) أعادت سؤالها:

ـ ما رأيك يا يحيى في رجل ينسى أبناءه؟

شعرت بالراحة بعض الشيء، وقبل أن أجيب تابعت حديثها:

ـ. . . . . أن تذهب للبحث عنه؟

غمغمت:

ـ أين سأجده؟

ـ في قراكم.

وأردفت بحزن:

ـ لم نر منكم إلا ما يكدرنا.

عادت هواجسي في التضخم:

(ماذا قالت لها حياة، وماذا يعترك في داخلها الآن: ستقول ربيناك وآويناك فخنتنا، ربما تقول الآن خنت من استأمنك على عرضه).

تلاقت عيناي بعيني عواطف وسرعان ما أعادت رأسها إلى صدرها وأخذت تغزل قميصاً بيدها.

ـ ألا يحس هذا الرجل؟. . . كيف يترك بناته وزوجته؟ وهل تفي أعمالنا البسيطة لأن تشبعنا وتكسونا، كم من الرجال يفتقدون الرجولة.

(أحسست بكلمتها كالخنجر تتغلغل في أعماقي، وأصوات كثيرة تنعق بمخيلتي: يا خسيس).

ـ لقد تعبت، تعبت من كل شيء، من انتظاره وحبه، والبحث عما يقينا مد اليد، والله لقد تعبت.

ـ سأكون عوناً لك حتى يرجع.

ـ هل تتوقع أن يعود؟

ـ لا بد أن يعود.

فنهضت وتعلقت بي وهي تستحلفني:

ـ وما أدراك أنه سيعود؟ قل بالله عليك ما أدراك أنه سيعود؟

❀ ❀ ❀

ـ حياة.. أريدك أن تعرفي أن ما حدث كان غصباً عني.

ـ كل خائن يختلق الأعذار لخيانته.

ـ يهمني أن تعرفي أنني لم أحب سواك.

ـ لا تردد هذا القول على لسانك، ولو فعلت سأخبر أمي، سأقول لها أن من عطفتِ عليه يريد أن يعقر بناتك.

ـ أرجوك لا ترددي هذا القول.

ـ وأرجوك أن تكف عن أختي، فإذا كانت متعلقة بك لا تستغل هذا لإشباع رغباتك.

ـ أقول لك لا أريد من هذه الدنيا إلا أنت.

ـ وأنا أقول لك: لو لم يعد بالبلد رجل سواك لما تزوجته.

خرجت من عندها لأجد عواطف واقفة على الباب تتنصّت علينا ودموعها منهمرة بغزارة.

❀ ❀ ❀

تعانقنا عناقاً حاراً.

جلس وجدي ساهماً بينما كان أبوه يذرف الكلمات:

ـ لديك تجارة تكفيك لأن تكون سيداً فما لك ومال جمال؟

ـ هذا ما حدث.

ـ عندما تخرج سيكون لي معك حديث آخر، هذا إذا خرجت.

ونهض غاضباً، فأمسك بي وجدي ودس بيدي جواباً:

ـ هذا خطاب عليك أن تسلمه لأم حسن.

ـ لا أعرف أين تسكن.

ـ تسكن بالعمارية بجوار الفرن الكبير.

دسست الخطاب في جيبي وخرجت أركض لأتبع الشيخ الأفندي الذي كان يسير لاعناً خلفه هذا الزمان.

❀ ❀ ❀

كان حدثاً تناقلته الحواري المجاورة باستغراب وغرقت جملة في أفواه الناقلين للخبر:

ـ الصدفة يتزوج بعد هذا العمر.

هذا التشكيك حمل الكثيرين لحضور مراسم الزواج، فغاصت برحة السكري بالحضور، وتوافد المهنئون لتهنئة الصدفة الذي استقر على كرويتة فرشت بسجاد صيني زاهي الألوان، وكلما قبله أحدهم مباركاً ردد الصدفة:

ـ يديم الله أفراحكم.

اقتربت منه فرحاً وضممته فشعرت بعظامه تعصر بين يدي، كان ليناً لدرجة أن تقوضت قامته وأصبح كائناً مختصراً:

ـ أخيراً فعلتها.

ـ كنت أحبها وكلما تقدمت لها رفضت. وعندما تزوجت

نذرت ألاّ أتزوج. وبعد موت زوجها وجدتني لا زلت أنتظرها فقبلت.

ـ كل هذا الزمن كنت تنتظر.

ـ وكنت مستعداً لأنتظرها حتى آخر العمر.

ـ لم تخبرني بهذا العشق من قبل.

توقفنا عن الحديث حين أهل بعض المباركين فنهض الصدفة لاستقبالهم والترحيب بهم، وعندما عاد لمجلسه جذبته من ثوبه الناصع:

ـ منذ متى وأنت على هذا الحال؟

ـ منذ زمن بعيد، انتظرت طويلاً وكنت أدعو الله أن لا يميتني قبل أن أضمها أو أن يجمعني بها في الآخرة، حتى أنني حملت التراب الذي مشت عليه وصررته في صرة وكتبت عليه (اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب). وهذه الوصفة أخبرني بها أحد الجاوة، فقد حكى لي أنه أحب امرأة وفرقتهما الأيام وظل محتفظاً بالتراب الذي مشت عليه محبوبته حتى التقيا.

ـ وماذا تفعل بها الآن وقد ذهبت قوتك؟

ـ لا زال قلبي ينبض بحبها كما لو كنت ابن خمسة عشر ربيعاً.

ـ وهي؟

ـ ستعرف أنني كنت ميتاً والليلة عادت لي الحياة، وستحبني.

ومن بعيد ظهر فوج من المهنئين، وقبل وصولهم أمسك الصدفة بيدي وقرب فمه من أذني هامساً:

ـ إن من تحبه تحتاج إلى سنوات طويلة لتؤكد له هذا الحب.

تركته يستقبل مهنئيه وتحركت لأقرب مكان يسند ظهري، بينما كانت الزغاريد تصل لمسامعنا واهية خفيضة، وكان سؤال يعشعش بمخيلتي:

ـ هل سأنتظر حياة كل هذا العمر؟

عدت من الزواج وخاطر لذيذ يساورني، نفذته في صبيحة اليوم التالي. فرشت ممشى حياة برمل ناعم حتى إذا وطأته خمشت حفنة من كل أثر لوقع قدميها وصررته بمنديل ناصع البياض وكتبت عليه: (اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب).

❀ ❀ ❀

وجدت نفسي أقف أمام قصر أبو الكرامات، طرقت الباب الكبير وانتظرت. أطل بوجهه الدائري وعينيه السوداوين المتسعتين وفمه العريض وشفته العليا المرتفعة قليلاً لتكشف عن ناب ركب على أخيه، فظهر ملائماً لذلك الفم العريض، وقد امتلأت قامته الطويلة وارتوى جسده بماء الحياة، وعندما رآني صاح:

ـ يحيى لقد أشغلتني عليك كثيراً.

وحضنني لصدره بقوة وهو يتمتم:

ـ حمداً لله على السلامة، بحثت عنك كثيراً وعلمت من قدوري أنك اتجهت لقريتك، ألم يكن من حقي عليك أن تودعني أو تخبرني بما عزمت؟

ـ كان الوقت ضيقاً وكان قراري عجلاً.

وسحبني لداخل القصر، سرنا في ممرات ضيقة تظللها أشجار

اللوز والليمون، ودلفنا لغرفة واسعة خاصة بحامد، كانت نظيفة وفرشها رغم بساطته يشع بألوان متناسقة بديعة، أجلسني وهو يرحب ويهلي:

ـ أخبرني، هل وجدت أهلك؟

صمت، وترقرق الدمع بعينيّ:

ـ هل حدث مكروه للوالدة لا سمح الله؟

تماسكت وبكلمات قليلة أخبرته بالخبر وأنهيت جملتي بشتيمة:

ـ لقد ساوى بأجسادهم الأرض.

تيبس حامد قليلاً وردد بحزن:

ـ عظم الله أجرك.

وفجأة أخذ يبكي، احترت لبكائه، وخبطته على ظهره. لم آتِ إليك لكي تزيدني حزناً، إضحك يا رجل.

وعندما واصل بكاءه نشته بقوة:

ـ وما الذي يبكيك الآن؟ أهلي الذين ماتوا وليس أهلك.

وافتعلت ضحكة جافة وأنا لا زلت أنوشه، ومن بين دموعه ردد:

ـ أخاف أن يكون قد أصاب أهلي ما أصاب أهلك؟

ـ لا تخف فالحرب لم تمتد بعيداً عن جيزان، على فكرة ألم تستطع مراسلة أهلك كل هذه المدة؟

ـ وكيف أراسلهم، فالذي لا تعلمه أن قريتنا دسها الزمن بين

جبال التصقت على بعضها ولا أحد يعرفها إلاّ أهلها، حتى وإن فكرت فمن ذا الذي يحمل رسالة لقرية لا يعرفها أهلها أنفسهم؟

ـ لا عليك سأجد وسيلة لمراسلتهم حتى ولو اضطررت للسفر إلى قريتك وإخبارهم بأنك هنا.

ارتفعت شفته العليا عن شبح ضحكة أبانت ذلك الناب الصاعد على أخيه بوضوح:

ـ هل تفعل هذا حقاً يا يحيى؟

ـ بكل سرور.

وانقلبنا لشجوننا وأخذت أسرد على مسامعه ورطتي مع حياة، فتأوه وردد بحزن:

ـ مصيبتك تهون أمّا مصيبتي فليس لها حل.

ـ هل تورطت؟

هز رأسه وتأوه وأتبعها بدندنة عذبة:

ـ هل تتصور أن يحب العبد سيدته؟

كان صوته يتلاشى وهو يروي حبه لابنة سيده. ومضى بنا الوقت ونحن نتبادل لوعتنا بحرارة، سمعت صوتاً رخيماً ينثال كالموسيقى:

ـ حامد.

فارتبك، ونهض متعثراً، فأمسكت به:

ـ من هذه؟

ـ إنها هي.

ـ من هي؟

ـ هنادي هذه التي أحرقتني وهي لا تعلم بالنار التي تجري في عروقي حين أراها أو أسمعها.

عاد الصوت يتكسر بدلال ويتموج كشلال متدفق:

ـ حامد.

ـ حاضر.. حاضر عمتي.

وخرج يركض صوبها، مددت عنقي ورأيتها فظننت أن حورية نزلت من السماء.

۞ ۞ ۞

تذكرت أن رسالة حسن لا تزال بجيبي منذ أسبوع مضى، حاولت أن أتذكر العنوان الذي ذكره وجدي فعجزت. أخذت ألوم نفسي على هذا التفريط، ورحت أفكر في وسيلة لمعرفة عنوان أم حسن، هل أعود لوجدي؟ وما الذي يوصلني إليه؟ حتى وإن وصلت سيظن أنني لا أزال أحمل ضغينة لحسن حين كان يسخر مني، لا لا يجب أن أبحث عن وسيلة أخرى.

خرجت فوجدته أمامي. ارتبك قليلاً ولم أعر ارتباكه اهتماماً، تذكرت لجاجنا الذي أنهينا به آخر لقاء بيننا، أحسست برغبته في نسيان تلك المشاحنة. اقترب مني تخالط سحنته تعابير غامضة. مد يده مصافحاً:

ـ كنت قادماً إليك لكي ننسى سوياً ما حدث.

احتويته في صدري، أحسست بأنني أتعلق بخشبة. كان بارداً رغم كلماته المتدفقة بدفء:

ـ لا أريد أن أخسرك أبداً.

ربت على كتفيه:

ـ حتى أنا وقد خرجت لأبحث عنك.

قال ضاحكاً:

ـ هل افتقدت زيارتي اليومية لك؟

ـ نعم افتقدتها.

ـ قلت إنك خرجت لتبحث عني.. خيراً إن شاء الله.

ـ خير، هل تعرف بيت حسن.

ـ من حسن؟

ـ صاحبنا حسن جويني.

ـ وماذا تريد منه؟

ـ لقد عطاني وجدي رسالة من حسن لأمه.

ـ أعطني إياها وسأسلمها لأمه.

ـ الرجاء ألاّ تتأخر عندك.

ـ الآن أوصلها. فقط أشعر بعطش.

فدعوته لداخل البيت ودخلنا البرندة، واعتذرت منه للحظات، وركضت لداخل البيت:

- عندي ضيف يا خالة خيرية لو تصلحي لنا براد شاي.

- من ضيفك؟

- صالح مستعجل.

هزت رأسها، ورددت:

- مضت عليه أيام لم يأت.. هل كنتما متخاصمين؟

- سوء تفاهم وزال.

- عد إلى ضيفك وسيكون الشاي عندك بعد لحظات.

بادلت صالح كثيراً من المجاملات وتذكرنا بشكتنا التي تفرقت وابتعدنا سوياً عن تلك المشاحنة التي سعى كل منا للنيل من صاحبه. سمعت نقراً خفيفاً على باب البرندة، فقمت لأجد حياة تقف في أحلى زينتها وقد فتر فمها عن ابتسامة عذبة وهي تناولني براد الشاي، فأحسست أن الدنيا تتسع وأني طائر أحلق في أعالي السماء.

عدت أحمل براد الشاي وقلبي يتراقص طرباً، وازداد فرحي حين لمحت عينيها تتلصصان بي من خلف شيش البرندة.

هتفت بصالح: كم أحبك يا صالح.

فسمعت ارتعاشة ضحكتها من الخارج، وصوت قدميها وهي تركض مبتعدة.

⊛ ⊛ ⊛

تغيرت طباعه، لم يعد ودوداً.

كانت السيارة تسير بنا والأماكن تعبر عيوننا بسرعة وعيناه الدوديتان استرختا في محاجرهما وأصبحنا نرى لسانه كثيراً.

كنا أنا وبناتي في المقصورة الخلفية وقد جلس يوسف بجواره، وفي كل مرة نسمعه يبكي بصوت مرتفع فأسأله بهلع:

- ماذا بك يا يوسف؟

فيصمت وكأن يداً تكمم فمه.

كنت متلهفة للسلام على حليمة وآمنة. أسررت له برغبتي بالتوقف بجيزان فصاح محتداً:

- لست مكلفاً بحملك لكل مكان.

راعني رده الغاضب فلم أجرؤ على مبادلته نبرته الحادة، جاء صوتي منخفضاً متوسلاً:

- فقط نسلم ونحن واقفون.

- واقفون أو جالسون فليس لدي الاستعداد لهذا.

اخترقنا مدينة جيزان.

كان البحر يلتف حول البيوت والعشش تقف حذرة من الطيور المحلقة على هامتها، فرائحة الحرب لا زالت تفوح بين أزقتها وميدانها استرخى على أصوات الباعة وشيء من الحزن يسكن فضاء المدينة.

قلت له مستعطفة: لن يكلفك شيئاً لو وقفنا وسلمنا.

- قال: كفي عن هذرك فلن ندخل المدينة.

شعرت بالإهانة، ويد حسينة تمسك بكتفي بلين، وفم فاطمة يغرس بأذني:

- أنت التي جعلت هذا الشرقي يتحكم بنا.

ـ ليس وقت اللوم الآن يا فاطمة.

فصاح بضيق:

ـ بماذا تتهامسان؟

نفر صوت فاطمة حاداً:

ـ أذكر أمي بالغراب الذي خطف اليمامة.

ـ أنت تقصدينني!

ـ كل جنس يعرف نوعه.

فأزبد وأرعد وأقسم أن يحمل زوجته ويتركنا في الطرقات، أحسست بالرعب ورغبة ملحة لشتمه، لكن تهديده تضخم بمخيلتي:

ـ كيف لو نفذ تهديده؟

ارتفع صوت السائق معاتباً عبد الله:

ـ رفقاً بهؤلاء النسوة.. أليسوا أهلك؟

ـ وما دخلك أنت، الرجاء ألاّ تتدخل فيما لا يعنيك.

صمت السائق، وظل أزيز المحرك يئن بتثاقل وحبيبات الرمل تتطاير أسفل عجلات السيارة وحرقة تشتعل بصدورنا.

❀ ❀ ❀

ذبلت ليلى وارتفعت حرارتها وخشيت أن أفقدها في هذا السفر الشاق، كنت أصبرها ببلوغنا لجدة، وهذيانها لا ينقطع. كانت كلمات كثيرة تتسرب من فمها فيصيبني الجزع من خيالات تراقصت بمخيلتي:

ـ يا رب رحمتك.

توقفنا في استراحة مدينة الدرب، ولم تعد ليلى قادرة على تحمل تلك الحرارة المنبعثة من جسدها، بينما كان عبد الله المحماس ساخطاً من طلباتي المتكررة، وأقسم للمرة الثانية على حمل زوجته وتركنا في مدينة الدرب. كنت خائفة من أن ينفذ قسمه، همست لحسينة:

ـ استرضيه.

أحسست أني أدفعها لما تكره، فنادت عليه بصوت تشظى بمرارة:

ـ عبد الله.

التفت إليها باسماً:

ـ سم يا بعد هلي.

ـ أشعر بالتعب وأتمنى عليك أن نقف قليلاً.

ـ ما يخالف.

ونزلنا وكانت ليلى تغلي من الحمى، وتوشك أن ترحل من بين أيدينا.

❀ ❀ ❀

قال السائق:

ـ لا أستطيع البقاء أكثر من هذا الوقت، ولو أردتم أن أبقى فأنا أريد أجراً إضافياً، فرجوته باستعطاف:

ـ سنعطيك. فقط انتظر.

صاح عبد الله بحدة:

ـ سنعطيك، من يعطي؟ أنا الذي أدفع ولست أنت وأنا غير مستعد لزيادة قرش واحد.

وكأنني لم أسمعه، اندفعت للسائق راجية إياه:

ـ نبقى لساعات وسأعطيك ما تريد.

فانزلق عبد الله في صياحه:

ـ وهل تملكين شيئاً؟.. أنا المتكفل بكل شيء، وقد قلت لن أدفع قرشاً واحداً زيادة.

شعرت بالحيرة واندفعت لفاطمة أفتح فمها وأشير للسائق لسنيها الذهبيتين:

ـ سأعطيك سنيها الذهبيتين.

زفر عبد الله متهكماً:

ـ وهل تظنين أن هذه القشرة تزن أرطالاً.. إنها مجرد قشرة، أم أنك تودين منحه فمها بأسنانه.. هيا.. هيا تجهزوا، علينا بالمغادرة.

ـ ولكن ليلى لا تزال متعبة.

ـ وهل نبقى في انتظار أن تشفى بينما أتكفل أنا بالأجرة الزائدة.

ـ ساعات فقط حتى تستعيد قليلاً من نشاطها.

ـ ولا دقيقة، هيا.

كنت مستعدة لتقبيل يديه، فأخذت أرجوه وكلما طالت توسلاتي أمعن في جفاه، كان السائق ينظر إلينا ويهز رأسه باستنكار، فتقدم مني وتمتم:

ـ ابقوا فأنا تذكرت أن لي صديقاً بهذه الناحية سأذهب للسلام عليه وأعود عصراً.

صاح عبد الله بانفعال:

ـ أقول لك من الآن: لن أزيدك قرشاً واحداً.

ـ لا أريد منك زيادة.. أريدك فقط أن تريح وجهك من عبوسه الدائم.

انطلقت سبابة عبد الله في وجه السائق متوعدة:

ـ حذار أن تقلل أدبك، أنت سائق بيننا وبينك الطريق ولا شيء غير ذلك.

ـ إذاً ابق هنا حتى أعود.

ـ هذا تهديد مبطن، أنا أعرفكم يا سائقي الخطوط الطويلة، أعرف مراوغتكم. تريد أن تتركنا وتمضي. رد السائق بحزم: قلت لك سأعود.

واتجه إلى سيارته، فتبعه عبد الله متسائلاً:

ـ وإذا تركتنا في هذه المقطعة ورحلت؟

ـ لا زالت نقودي معك فكيف أتركك؟

تلعثم عبد الله وأصر على رأيه:

ـ أنت تريد أن تتركنا هنا، أترك أي رهن حتى نتأكد من عودتك.

نظر إليه السائق شزراً:

ـ والله لولا هؤلاء النساء والطفل لتركتك تنبح في هذه الطرقات.

وتحرك بسيارته ومن خلفه ركض عبد الله صائحاً:

ـ قلت لك عد.. عد.

فتناثر الغبار مع ضحكات فاطمة وحسينة على ركض عبد الله وصياحه، وعندما عاد كان أكثر غلظة حين شتم فاطمة ووصفها أنها فتاة لم تربَ، فبادلته الشتم، ولم تسكت إلا بعد قرصات متعددة من يدي وأنا أرجوها أن تسكت.

❀ ❀ ❀

وصلنا لجدة.

كانت ليلى في حالة يرثى لها، فلم تعد قادرة على شيء سوى بث أنينها وتوجعها، عندما قال السائق:

ـ هوني على نفسك نحن على مقربة من جدة.

شعرت أن جبلاً انزاح من على صدري، فأخذت أحمد الله وانفرط فمي بكثير من الدعوات.

كان السائق قد توقف عن الكلام مع عبد الله، فأحنى رقبته باتجاهنا سائلاً:

ـ أين تريدون في جدة؟

كنت قابضة على الخطاب الأخير لخديجة، مددت به إليه:

ـ هنا ستجد العنوان.

ـ أنا لا أعرف القراءة.

ووجه حديثه إليّ: وهذا الكيس الذي معكم لا يعرف القراءة أيضاً.

انتفض عبد الله في مكانه، وظل صوته ينخر مسامعنا:

ـ تأدب وتحدث معي، وإذا غلطت مرة أخرى سأعرف كيف أؤدبك.

لم يلتفت إليه وخاطبني: لا عليك سنجد من يقرأ لنا العنوان.

أوقف سيارته ودار بالخطاب على مجموعة كانوا يجلسون بالقرب من دكان متواضع، فانكبوا على قراءة الخطاب، وتبادل معهم الحديث، وعاد مبتسماً وهو يردد:

ـ عرفت العنوان.

وجدنا أنفسنا نقف أمام مخبز كبير بالعمارية. سمعت السائق يسأل أحد العاملين:

ـ أين بيت خديج؟

نظر إليه العامل متعجباً:

ـ من خديج؟

التفت السائق إليّ، فزجره عبد الله:

ـ قلت لك تحدث معي ولا تلتفت للنساء.

كان السائق مغتاظاً من عبد الله لكنه ضبط غضبه وعاد سؤاله لي:

ـ من خديج؟

فالتفت عبد الله بضيق:

ـ ما هو اسم أختك؟

ـ اسأله عن ناجية أم حسن وإبراهيم.

وعندما سمع العامل اسم ناجية ركض أمامنا وأشار لبيت طلي بابه الخشبي باللون الأخضر:

ـ ذاك الباب هو بيت ناجية.

تحركت السيارة لمسافة قريبة، وتوقف السائق. فلم أتمالك نفسي فخرجت أركض وأدق الباب بكل عنف:

ـ خديج.. الحقيني يا خديج.

فانفرج الباب عن وجهها وتعانقنا ونحن نتصايح كالثكالى.

⊛ ⊛ ⊛

مضت ليلتان ونحن ننام متجاورتين بعد أن نسكب كثيراً من الكلمات والأخبار، ونتبادل البكاء على غياب يحيى وحسن.

مرة واحدة جلست مع إبراهيم، فهو يظل منعزلاً عنا متبرماً وفمه يذود تأففاً، وقف بين جدران حنجرته وطفح على سحنته كغمامة قاتمة. كان ينظر إلينا نظرة متعالية فأحسست بأنه سيتعبني كثيراً. رجوته أن يبحث لي عن شخص يدعى طاهر الوصابي، فأظهر الامتعاض، وعندما رجته أمه أحرن بضيق:

ـ وأين يمكن أن أجده؟... كل يوم أخرج باحثاً عن شخص، لقد مل الناس من أسئلتي الباردة، لن أخرج.

⊛ ⊛ ⊛

من الصباح الباكر خرجت مع خديج إلى الشوارع نسأل عن طاهر الوصابي. كان منظرنا مريباً ونحن نتنقل بين الرجال والنساء سائلتين عن رجل لا نعرف إلا اسمه.

مضى اليوم الأول دون أن نجد له خبراً، وفي منتصف اليوم الثالث جاء إبراهيم مستبشراً:

ـ وجدت شخصاً يعرف طاهر الوصابي؟

تعلقت به أقبله وأستحثه لملاقاته، فأمسك بيدي:

ـ سوف يأتي هو إلينا.

ـ طاهر بنفسه؟

ـ الشخص الذي يعرفه.

قالت خديج:

ـ من هو هذا الشخص؟

ـ إحزري!

ـ قل من؟

ـ صالح مستعجل صديق لابنه.

ـ صالح الذي جاء بخطاب حسن.

ـ نعم.

رجوته بلهفة: هيا لنذهب إليه.

ـ أنا لا أعرف بيته لكنه وعدني أن يمر عليَّ عصر الغد.

⊛ ⊛ ⊛

في اليوم الرابع قرر عبد الله أن يغادر بحسينة إلى بلدتهم ـ قال إنها بوسط نجد، مدينة تدعى الخرج ـ شعرت بسكين انغرس في أحشائي، حاولت أن أثنيه مذكرة إياه بأن الشرط الذي بيننا أن يوصلني لابني، لكنه سخر مني واكتفى بترديد:

ـ ابن أختك وجد طريقه وهذا يكفي.

وحمل حسينة وهي تبكي وتقسم أنها لن تذهب معه، كنت أسكتها في محاولة ألآ يسمعها وخرجت معه ونحن ندفعها دفعاً، فأسرت لأختها فاطمة أنها لن تسافر وأنها ستغافله وتعود إلينا.

وبعد أن خرجا قالت لي فاطمة خبرها، رجوت إبراهيم أن يلحق بهما وألآ يعود حتى يتأكد من أنها ركبت معه، فخرج متلحفاً بغضبه متبرماً منا بينما كان صوت أمه يلاحقه مقللاً من شأنه ورافعاً شأن حسن وهي تدعو الله أن يعيده إليها سالماً.

وجلست على الباب أنتظر عودة إبراهيم، وأنا أتلهف لرؤية يحيى، فلم يعد بيننا سوى هذه الساعات القليلة، وثمة خوف يعشش بالقلب من أن تنفذ حسينة وعيدها.

الفصل الحادي عشر

عاد طاهر.

جلس في صدر الصالة واجماً وأمسكت بنتاه بيديه بينما كانت خيرية تغسل قدميه وكلماتها تنساب للأسفل:

ـ هنا عليك.. والله لم أذق طعم النوم.. أكان لا بد أن تتركنا كل هذه المدة؟.. كيف طاوعك قلبك وتركتنا؟

يبدو أنها سيطرت على نفسها كثيراً فغيرت الحديث:

ـ نحن لا نقدر على فراقك... لا تتصور أن امرأة سوف تحبك كحبي لك.

سحب قدميه من الطشت فتقاطر الماء على فستانها فسحبت منشفة ودست بها قدميه وهي تنشفهما وتتفحصهما:

ـ قلبي عليك من أين جاءت هذه التشققات لراحة قدميك.

نظر إليّ بطرف عينيه، كنت متردداً في السلام عليه وعندما رأتني خيرية متخشباً صاحت:

ـ لقد عاد طاهر، أخبره كم كنا مشتاقين له.

ـ........

ـ.. ماذا بك تقف هكذا، ألم تشتق لطاهر؟

تقدمت، فنهض وضمني لصدره، شعرت بنفور حاد تجاهه، وتمنيت الفكاك من بين يديه:

ـ ألا تقول حمداً لله على سلامتك.

(من أي طينة خلق هذا الرجل؟ يعاتب وكأنه لم يفعل شيئاً، سأقبض على ترقوته، وأجعل عينيه تجحظان وأغلق فمه حتى لا تخرج كلمة أخرى من هذا الوكر....).

ـ ألا تقول الحمد لله على السلامة؟

ـ وهل ودعتني قبل أن تهرب؟... لقد خالستني وهربت.

صاحت خيرية:

ـ خالسك وهرب.. استح لا تقل هذا القول، هو حر يسافر متى أراد ودون أن يخبر أحداً.

تعكر وجه حياة وظلت عواطف منكسة رأسها للأسفل، ورغبتي لا زالت تطفو لأن أهينه. قبضت على انفعالاتي بصعوبة:

ـ أود الحديث معك.

ـ ليس الآن.

(بارد كقالب ثلج، وساخط أنا كتنور ضخ بقاز، ها هي نظراته الخاطفة المستعجلة ترف في المكان وفمه الموشك على الكذب دوماً يتحلب ليفرز خيوط فخه الدقيقة المحكمة..).

ـ بل الآن.

علق بصره في وجهي وضرب كتفي بيده:

ـ لا تنس أنني ربيتك وعليك أن تسمع ما أقول.

ـ لم أنس ولكن هناك أموراً كثيرة نسيتها أنت.

ـ أقول لك لا داعي للحديث الآن.

ـ متى؟

ـ دعني مع أهل بيتي وفي الليل سأكون معك.

(... ما الذي يجب عليّ أن أفعله؟.. هل أصرخ به، أشتمه، أضربه؟.. وما جدوى ذلك؟.. لو أغضبته سأفقد حياة، آآآآ... ووو.. لا لا. لا بد من مهادنته، فلم يعد لي في هذه الدنيا سوى عيني حياة.. صبر جميل...).

سمعت خيرية تصيح:

ـ لا تقف متخشباً هكذا.. إجلس أو أدخل للبرندة.

غرست عيني في وجهه:

ـ أنتظرك.

فهز رأسه موافقاً وقد انكسرت رغبته بالبقاء مع زوجته وبنتيه، وظل مطأطناً برأسه، جذبتني خيرية من قميصي:

ـ ما الذي حدث؟.. لماذا تظهر عداوتك لطاهر؟

فسحبت نفسي من بينهم، وشعرت أن الجميع يبادلني نظرات عدائية، ودلفت للبرندة بعد أن تلاقت عيناي بعيني حياة، تلك العينين اللتين اختفى بريقهما الذي شعَّ بالأمس.

❀ ❀ ❀

طرق خفيف على باب البرندة.

(هل جاء ليعتذر؟ لن أسامحه أبداً، لقد استغلني. سأكون حازماً

وأطالبه بكل أموالي التي ادخرتها عنده، سأذكره بقصة أبو النون حين استغل حاجته وآخذ ماله، سأقول له أنت تعيد خساسة أبو النون، خساسة لا لا.. لا بد من كلمة لا تثير كوامن الغضب.. لا لن أكون ليناً معه، سأمسك برقبته وآخذ جميع حقوقي، وماذا عن حياة فهي ليست من حقوقي، كيف أجعله يبارك هذه الرغبة؟.... أقايضه! أنسى كل شيء مقابل عيني حياة.. نعم هذا هو الحل الأمثل، ماذا لو قال....).

الطرق يتواصل بانتظام، تحركت وفتحت الباب. كانت تقف بانكسار غرست عينيها بوجهي فارتبكت:

ـ ماذا تريدين؟

تلعثمت ورددت:

ـ صديقك حامد يريدك.

ـ حامد.. أين هو؟

ـ على الباب الخارجي.

تحركت فأمسكت بيدي:

ـ أنا أحبك يا يحيى فلماذا تهملني كل هذا الإهمال.

ـ........

ـ حياة مشغولة عنك.

ـ إذهبي لشأنك الآن.

جذبت كم قميصي من بين يديها وخرجت وهي لا تزال واقفة. كان حامد يقف على الباب وابتسامته ترف بنصاعة فتبين اتساع

فمه، رحبت به وجذبته لداخل البيت وجلسنا أمام بعضنا.

ـ أحزر أي خبر أحمله لك؟

ـ هل فاتحت هنادي بما تشعر؟

ـ وهل تظن أن المسألة هينة لهذا الحد؟

ـ أي خبر تحمله إذاً؟

ـ ألا تدعي أنك متابع للإذاعة؟

ـ بعد ما حدث لم أعد أثق بأحد.

ـ البلد مقلوبة.

ـ خير إن شاء الله.

ـ ألم تسمع بخبر تحرير الرقيق.

ـ تحرير الرقيق.

ـ نعم. لقد أصدر قرار بتحرير كل الأرقاء، وقد حدثني سيدي أنه أصدر وثيقة بتحريري.

قفزت من مكاني وحضنته، وأنا أصيح به:

ـ مبروك مبروك.

كان يضحك ببرود:

ـ لقد حرروني من العبودية بعد أن أصبحت هي حياتي.

وأردف بضيق:

ـ أنا خائف من هذه الحرية. لقد وجدت نفسي عبداً يؤمر

فيطيع أما الآن فعلي أن أختار. . تصور هكذا فجأة عليَّ أن أختار. أليس صعباً أن تختار ما تريد؟ أتصور أن الأحرار يعانون من اختياراتهم فما بالك بمن لم يختر في حياته أي شيء.

ـ أنت تبدو غير سعيد بهذه الحرية.

ـ نعم، فهذه الحرية عطلتني. لم يعد أحد بالبيت يطلب شيئاً مني والأدهى أن عليَّ مغادرة قصر سيدي، وبهذا القرار سأفتقد ذلك الخدر اللذيذ الذي كنت أحيى به.

ـ أي خدر. أنت حر، ألا تعرف معنى حر؟. . ألم تسمع أن العالم كله يحارب من أجل نيل حريته؟

ـ لا أعرف هذا الكلام الذي تقوله، أود البقاء على ما أنا عليه.

ـ ألا تود العودة إلى أهلك؟

ـ أهلي!. . لو عدت إليهم فأنا غريب بينهم وهم غرباء عليَّ، لم يعد لي أهل في هذه الدنيا سوى هنادي. لكنها السيدة وأنا العبد. هي الغنية وأنا الفقير. هي التي تختار وأنا أنفذ بطيب خاطر. لا يجمع بيننا جامع، ومع ذلك فأنا راضٍ بهذا الوضع ومعلق بها عن طيب خاطر ولا أريد أكثر من هذا، لقد اختصرت بهذه القناعة أموراً كثيرة مضنية.

صمت للحظات وتابع:

ـ لو أخبرتها بحبي هل تقبل هذا الحب؟

ـ. . . . .

ـ أخبرني. . هل تقبل هذا الحب؟

ـ. . . . .

ـ أنا أعرف الجواب. لن تعترف بي. . لن تعترف بي.

ارتجف حامد وحضن وجهه بين راحتيه، كنت صامتاً أنظر إليه وشعور متناقض يخالطني، سمعت قرعاً على الباب.

(هذه حياة جاءت ببراد الشاي سأقول لها: حرروا العبيد، لكنني أهبك نفسي عبداً لك، لك لوحدك إفعلي بي ما تشائين، سأقول. . .).

لا زال الطرق متواصلاً، وحامد يجهش ببكاء حاول أن يخمده قبل أن يمتد، نهضت على عجل، فوجدت عواطف تقف حاملة براد الشاي وعيناها المنكسرتان تنهبان وجهي. خطفت البراد من بين يديها وخيبة مرة تتموج بداخلي، غمغمت بحزن:

ـ يحيى متى تشعر بي؟

فأغلقت الباب دونها خوفاً من أن تأتي حياة على حين غرة.

❀ ❀ ❀

دخل الليل كدخول الغرباء متدثراً بريح بارد وخطوة متعثرة، واستوى الهلال في نصف استدارة يبين حيناً ويختبئ خلف سحب شفافة أحياناً. كنت ذابلاً كذبول الليالي التي تعبر الجثث المتروية في لحودها دون أن تحركها لحظة فرح، أو نشوة غامرة.

(تجلس الآن أمام المرآة تتطلع في فتنتها، هل أعبر مخيلتها في هذه اللحظة؟ هل غضبت مني حين حدثت أبيها بتلك النبرة، ألم يكن من الواجب أن أراعي مشاعرها؟. . ماذا يمكن فعله لأراها؟. . سأقول لها: أبوك سخرني، استعبدني، كذب عليَّ، أكل جهدي، سأقول لها: ارتضيت بكل ما حدث من أجل أن أبقى بجوارك. . هل تصدقني؟ آآه ماذا أفعل؟).

كنت محتاجاً لأغنية تحرك البهجة في أعماقي، تحملني على أشرعتها بين تموجاتها، توقفني على أبوابها تروي بداخلي ذلك الأمل الباهت من أن أكون خفقة بصدرها، أو لحظة غزل بين أهدابها.

كانت الإذاعات تلوك خبر تحرير الرقيق وتمجد الخطوة المباركة. أوقفت المؤشر على صوت العرب فسمعت المذيع أحمد سعيد يتلو تحليلاً لتحرير الرقيق بتشكيك وناسباً الفضل لجمال عبد الناصر الذي حرك المياه الراكدة واصفاً إياه بمحرر العبيد، وأردف أنه سيحرر العالم العربي من تخلفه.

كنت أستمع وسخرية مرة ألوكها من الجميع، ورغبة ملحة لأن يحرقني عبد الوهاب بأغنيته (ألو لي هان الود عليه)، وكلما حركت المؤشر سمعت طنيناً من الشعارات تحملني للضفة الأخرى.

طرق الباب وسبقه صوته:

- يحيى هل يمكنني الدخول؟

استويت في جلستي، فوقف منكسراً ومد يده لكرسي يجاورني وجلس:

- عظم الله أجرك، لا أجد كلمات غير هذه. ولك الحق فيما قلته وما ستقوله. وقبل ذلك عليك أن تعرف بأنني أصابني أبو النون بدائه، بعد فعلته - التي أخبرتك بها - وجدت أنها طريقة سهلة للعيش، ولكنني كنت في كل مرة أندم وأحاول أن أكف عن هذا السلوك فلا أقدر.

(ها هو كثعبان يتحرك ويدفعني للتعاطف معه، لن أمكنه من الضحك عليَّ هذه المرة).

-..... تصور كل هذه الألاعيب لم تجدِ. فها أنا كما بدأت، ظللت أبحث عن وهم فإذا بي أدخل في أوهام متعددة حتى الحب يتحول إلى وهم، نعيش فيه وعندما نصل إلى من نحب نكتشف أننا كنا نخدع أنفسنا لنعيش في جو نحن نختلقه.

(لن أمكنه من مواصلة إحكام شركه، ولن أضعف.. لا لن أضعف).

-..... حتى تلك المرأة التي تركت أهلي من أجلها كانت سراباً حقيقياً فعندما وجدتها كانت أبعد مما كنت أتصور. امرأة كبقية النساء تتلهف إليها وتظنها مختلفة عنهن فإذا بها نسخة مكررة من بقية النساء، أتصور أن متعة الحب في لوعته وعذابه اللذين يتركهما لنا لا في الوصول إليه.

(لماذا أشعر بالخوار الآن، لماذا لا أصيح به: دع كل هذه الألاعيب جانباً ولنتفاهم فيما صنعت بي).

-.... يحيى لا تقع في شرك الوهم. إياك أن تقع.

(لماذا أظل صامتاً هكذا؟)

-..... فالحياة أقصر من أن نمضيها في أوهام.

(آه هذه فرصة مناسبة، نعم سأذكره أنه حول حياتي إلى أوهام، لا بد من أن أقول كلمة، لا بد أن أنفجر في وجهه قبل أن يكممني وينسيني طعناته.. لا بد.. لا بد).

- لقد كذبت عليَّ سنوات طويلة. كنت تقول إنك تدخر ما أعطيك، وقد أوهمتني أنك تبعث بأموال لوالدتي وتوصل رسائل وهمية أنها من عند أمي. كل هذا ألم تشعر بالذنب!

وارتفع صوتي ونفرت عروقي وتوترت أطرافي:

ـ ألم تفكر أنك كنت تخونني، وأنا الذي أسلمتك حياتي.

ـ إهدأ.. إهدأ، كنت أريدك أن تعيش فخلقت لك وهماً لتعيش به.

ـ هذه خيانة.

ـ أنا كنت أرى أن هذه الوسيلة أفضل لكي تلتفت لمستقبلك.

ـ أي مستقبل هذا وأنا كنت أعيش في كذبة كبيرة، وما ذنب أمي أن تموت وهي تظنني قد سبقتها للموت، وأنني ابن عاق وهي التي علقت عليَّ آمالاً كبيرة لأخرجها من عوزها.

ـ لو لم أفعل ذلك لأصررت على العودة وربما تلقفتك يد واستعبدتك.

ـ هذا القول لم يعد يصلح الآن، ولم يكن ليحدث هذا، بل ضخمت هذا القول في مخيلتي حتى صدقتك وأصبح الجدار الذي يقف بيني وبين العودة لقريتي.

ـ على أية حال كنت خائفاً عليك.

ـ خائفاً عليَّ..!

ـ نعم خائف عليك، ولا زلت خائفاً عليك.

ـ من ماذا؟

ـ من تهورك.

أطلقت ضحكة جافة وضربت كفاً بكف:

ـ تهوري، لم أكن متهوراً في يوم من الأيام، لكنك ستجعلني أتهور بأن أمسك برقبتك.

كان بارداً أصابني بحنق مضاعف حين مد رقبته وحشرها بين يدي باستسلام:

ـ أرحني منها لقد أتعبتني كثيراً.

ـ لا أريد رقبتك، أريد أموالي.

ـ ليس بيننا حساب، فما أملكه لك وما تملكه لي.

ـ من قال هذا؟

ـ أنا أرى كذلك.

ـ ولكنني مصر على حقي.

ـ وأنا مصر على حقي أيضاً.

ـ أي حق؟

ـ حق إيوائي لك وحفظك من غربة، الله يعلم كيف كانت ستكون لو لم أكفلك.

ـ تسرقني وتقول إيواءك. دع هذه اللعبة الجديدة واعطني أموالي.

احتد فجأة وارتفع صوته:

ـ ليس معي قرش واحد.

ـ سأشكوك.

نهض متحسراً ولا زال صوته يتعالى:

ـ لم أكن أتصور أنني كنت أربيك كل هذا الوقت من أجل أن تقف بي أمام الناس شاكياً، وقبل أن تفعلها تذكر أن ليس عندك ما يثبت أنني مدين لك بشيء.

خرج كما دخل، وجلست ألعن بروده وتخاذلي.

⊛ ⊛ ⊛

من بعيد لمحته بقامته الطويلة يخترق السوق ويقبل باتجاهي وقد حمل شنطة كبيرة، وقف أمام الدكان مبتسماً وصاح:

ـ جئت لوداعك.

ـ إلى أين؟

ـ سأعود إلى قريتي. هذا أول اختيار سأمتحن فيه مقدرتي على اتخاذ القرارات التي تخصني. أعلم أن أهلي ربما نسوني ولكنني لا زلت أتذكر أمي وأبي وإخوتي.

وصمت قليلاً يجاهد لإيقاف دموع ترقرقت من عينيه:

ـ سأعود إليهم بعد كل هذا الزمن بدون غالب، سأشق قلبهم إلى نصفين.

ـ سيفرحون بك.

ـ كل ما أخشاه أن أكون طارئاً عليهم أو راوياً لأحزان نسوها.

تأفف بضيق وقطع حديثه:

ـ لم آت لتحريك الأحزان، تعال لأودعك.

وفرد ذراعيه، واتسعت ابتسامته:

ـ هيا لنتوادع الوداع الأخير، فربما لن نرى بعضنا بعد هذا اليوم.

ـ انتظر حتى أرافقك.

ـ لا. دعك في عملك.

ـ لا يمكن.

وتحركنا باتجاه الموقف. كانت خطواته بطيئة خائرة يخطو وكأنه ينتزع قدميه من وحل لزج تاركاً حقيبته تحتك بالأرض، فأبديت استعدادي لحملها لكنه رفض وواصل سيره المتكاسل مكثراً من الالتفات للخلف.

صامتين سرنا، تبتلعنا الأزقة والخواطر الساكنة بالبال. كنت أشعر أن ثمة حسرة تلوب بباله على هذا الرحيل.

(هل هو العشق قيده فارتضى العبودية على الحرية؟.. هل جاء قراره بعد أن فاتحها ووجد الصد فقرر أن يعيد زرع جذوره في تلك القرية المنسية التي حدثني عنها؟.. لا شك أن ثمة ناراً تتأجج بداخله الآن. هل أذكر له وصية الصدفة التي طبقتها ولا زلت أنتظر مفعولها. هل أطلب منه أن يعود ويجمع أثر هنادي ويصره في منديل ويكتب عليه (اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب)، أعرفه تماماً سيضحك من قلة عقلي، ماذا أصنع من أجله؟ من الواجب أن أواسيه، ماذا عساني أن أقول له؟ هل أقول له انسها؟).

تموجت بداخلي ضحكة ساخرة وتضخمت بمخيلتي تلك النصيحة (انسها.. انسها.. انسها، ألمح عينيها تقفان على وجهي وابتسامتها تتسع وفمها يردد: انس.. انس).

فهربت إليه واضطررت أن أعيد سؤالي مرتين متتاليتين:

ـ لا زلت متحسراً على رحيلك؟

ـ نعم، فأنا عشت هنا سنين طويلة، تأقلمت مع حياتي هذه وقد نسيت كثيراً مما كنت عليه في قريتي، سأعود الآن غريباً.

ـ أيكون السبب هنادي.

ـ هنادي، لن أصل إليها أبداً، فهي من عالم آخر تعاملني كعبد.

ـ ألم تفاتحها؟

ـ هل تظن أنني مجنون؟

وأطلق تنهيدة حارقة وكمن أراد أن ينهي بها الحديث:

ـ إنها تعاملني كعبد. كعبد، يكفي أنها تعيش في داخلي بين دمائي، يكفي هذا.

في الموقفة ارتصت السيارات والكمسارية ينادون بأصوات مستعجلة منادين بالركاب وذاكرين الجهات المتجهين إليها، امتدت يد أحدهم وسحبت حامد ليحشر شنطته بين عفش المسافرين ويجلس في مؤخرة السيارة، معلقاً بصره نحوي. بقيت حتى تحركت سيارته مغادرة فتبادلنا تلويح الأيادي ولمحت رأسه يهتز وفمه يتسع ليظهر ناباً ركب على أخيه متناسقاً مع ذلك الفم العريض.

❀ ❀ ❀

لا زلت أحمل له الضغينة.

هو أشبه بالماء يتسرب من بين أصابعك ويترك يديك مبللتين دون أن يرويك، وجهه المشرب بالحمرة موارب لا تعرف بماذا يفكر ولماذا يضحك، تشعر أحياناً أنه غابة من المفاجآت وحيناً تلمحه كطفلة موشكة على الكذب، لا زال كما عرفته أول مرة، لسان رطب يعرف

كيف يبلل كلماته، ويلدغك وأنت تبتسم ولا تقوى على اقتناص فرجة في أحاديثه التي تجذبك نحو فخاخه المعدة بإحكام.

جاءني ووقف بجواري:

ـ ألا زلت غاضباً؟

ـ . . . .

ـ أنت تذكرني بمأساتي، ومن المساوئ أنني أُعيد سيرة أبو النون، لكنني لم أصل إلى شيء. عدت أكثر بؤساً مما مضى، مصيبتي أنني ارتضيت هذه الخسة واكتشفت أنني غير قادر على فعل أي شيء أصلح به أخطائي معك ومع الآخرين.

ونظر إليّ بانكسار واضعاً يده على كتفي بحنو (هل يتصنع كل هذا، أعرف تماماً مقدرته على الإقناع، هل يعرف أنني سأستسلم في نهاية الأمر؟. . لا لن أمكنه من السخرية مني مرة أخرى. . حتى في حالة انكساره يظل وجهه موارباً كطفلة موشكة على الكذب. .).

واصل حديثه بنبرة شجية:

ـ. . . يلازمني إحساس أن من أرتبط بهم يحبونني بكل أخطائي بكل النواقص التي أسير بها. . اقترف في أوقات كثيرة حماقات ولا أعتذر عنها ظاناً أن الآخرين سيصفحون عني كما أصفح أنا عن حماقاتهم حين يرتكبونها ضدي، هذا ما أحس به. لذلك تجدني أنسى كثيراً من الواجبات التي عليّ أن أقوم بها. فعلى سبيل المثال سمعت بموت صالح الحنوني في إحدى سفراتي ولم أمر لتقديم واجب العزاء لأهله. كنت أحس أن صالحاً رحل ورحل معه جزء من قلبي وهذا يكفي، وهكذا أنا مع جميع من أحب، قد أوذيهم لكنني أحبهم في نهاية الأمر.

صمت وهو يتطلع إليَّ، وعندما رآني جامداً أتطلع إليه تساءل:

ـ أتصدقني؟

ودون أن ينتظر جواباً تابع حديثه:

ـ... ربما لا تصدق، ولكنني لم أكن صادقاً كاليوم، ولأول مرة أكشف هذا العجز الذي يعتريني، وأقول لك بصدق إنني طوال حياتي لم أكن أعرف ماذا أريد ولا زلت لا أعرف ماذا أريد، تنتابني حالات فانجرف معها دون أن أحتاط لخواتمها. أنا لا أعرف لشيء وغير قادر على الاكتساب فأنا لا أعرف إلا الوعود الكاذبة، ومع معرفتي بهذه الخصال المبتذلة والسيئة التي أسير بها إلا أنني أحب كل الناس.

توقف عن الحديث كمن استنفد كل ما عنده وعندما رآني أتطلع إليه صامتاً هزني من كتفي:

ـ لا تصمت.. قل أي شيء.

ـ.........

ـ قل أنت تكذب، قل أنت مدلس، قل أي شيء ولا تجلس صامتاً هكذا.

ـ وما جدوى الكلام الآن؟

مصمص شفتيه وردد:

ـ نعم ما جدوى الكلام الآن؟

وتحرك من أمامي عابراً بوابة البرندة، فصحت به:

ـ لتثبت لي صدق قولك أريد منك شيئاً واحداً فقط.

رجع إليَّ مستبشراً وأمسك بكتفي:

ـ أشعر بغصة تجاهك وأتمنى بالفعل أن أقدم لك أي شيء تطلبه، قل ماذا تريد؟

ترددت كثيراً وبصوت واهن رددت:

ـ حياة.

ـ ما بها حياة؟

ـ أريدها زوجة لي.

تهاوى وجلس بجواري عابثاً بشاربه وعيناه تومضان بوميض منطفىء، فاستحثثته بصوت تعالت نبرته:

ـ ماذا قلت؟

ـ هذا الذي لا أستطيع تنفيذه. أُطلب أي شيء آخر.

ـ لا أريد من هذه الدنيا سواها.

ـ هذا محال.

ـ ولماذا؟

ـ أتريد قطع رأسي علناً.

فتحت فمي على اتساعه مستنكراً:

ـ أيؤدي زواجي منها إلى قطع رأسك؟

ـ أنسيت أن اسمك يحيى طاهر محمد الوصابي. أنت ابني في كل الأوراق الرسمية التي تحملها وحياة تصبح أختك ولو زوجتك لقطعوا رأسي في الحال.

أحسست برغبة جارفة لأن أقبض على عنقه. كنت أصيح به

بانفعال وأهزه هزاً عنيفاً:

ـ وهذه جناية أخرى.

استسلم لجذبي مردداً:

ـ ألم أقل لك إن الحياة لعبة رديئة نشترك في صنع الفخاخ لبعضنا.

ـ دع هذه الحكم التي أثمرت على شفتيك مؤخراً، وأخبرني كيف يمكن أن نصحح الوضع وتزوجني بها.

ـ أنا الذي أسألك: كيف تصححه؟

ـ أن أغير اسمي وانتسب لأبي.

ـ الآن لا أقدر على تحمل أي عقوبة.

ونهض يجر قدميه لخارج البرندة ونار تحترق صدري ورائحة شياط تفوح بالمكان.

❀ ❀ ❀

لم يعد أي شيء مستقراً بمكانه، ها هي حياتي تتقوض وأغدو رماداً متماسكاً. لم أعد قادراً على الاحتمال، وعليّ أن أبدأ بالبحث عن حياة جديدة، أن أغرس نفسي في مكان آخر، وأن أختلق حلماً جديداً، لم يعد بالإمكان البقاء، كان يمكن أن أغير هذا الاسم الذي ألصقه طاهر بي، وأن أعيد معه الكرة وأطلب حياة، كان يمكن ذلك قبل هذه الليلة، كان يمكن ذلك، أما الآن فلم يعد هناك معنى لأي محاولة.

الليل بوابة نعبرها فنكتشف ذلك الخيط الأبيض فتنقشع غلالة

أحلامنا، ونفيق على أننا كنا نحلم، وأننا أمضينا ليلاً طويلاً من ذرف الأماني الباردة. تلك الأماني التي تلتصق بمخادعنا وتحترق بأشعة الشمس الصاعدة، كل يوم تطلع الشمس لتقتل حلماً كنا نعيشه.

عبرت الأزقة وحديث طاهر ينخر مخيلتي، وقررت أن أفاتحه بعزمي على تغيير اسمي، وإصراري على الاقتران بحياة يتزايد. كانت خطواتي تعبر الطرقات المظلمة وعواء الكلاب يبتعد ويقترب، وبعض الأزقة شاحبة بضوء البلدية المتراقص بتخاذل، وقلة من الأقدام تسير باتجاهات متعددة كأشباح تومض في العين وتختفي.

أدرت المفتاح وسرت ببطء صوب تلك البرندة التي تحمل كثيراً من وحدتي وجلست أفكر بطريقة لإقناعه، وكلما حاولت أن أغفو شب السهد في أهدابي وأفاقت كل الحكايات القديمة، ورفت عينا حياة بوميض سحري فبددتا كثيراً من وحشتي، وتطرق بالبال عواطف للحظات وتذوي تاركة أختها تعبث بمخيلتي، تشب نارها وتجلس على بعد ترمقني وأنا أحترق.

مضى وقت وأنا أتقلب في مرقدي وألملم مداخل لإقناع طاهر، سمعت صرير الباب يصر بانخفاض (هل خرج طاهر أم عاد؟.. يجب أن أقنعه، سأحدثه عن العشق الذي يأكل الصدور، سأذكره بمحبوبته التي باع الدنيا من أجل أن يصل إليها، سأستدرجه..، عليّ أن ألحق به قبل أن يصعد لمخدعه، أو أن أشاركه ممشاه إن كان خارجاً..).

تحركت على عجل، وعند الباب الخارجي لمحت شبح رجل وامرأة لا أنكرهما، سحبته من يده وانزويا جانباً، وأخذا يهمسان:

ـ تأخرت يا صالح.

ـ كنت أرقب الباب وخشيت أن يأتي يحيى ويلمحني.

ـ لقد جاء من وقت مبكر، كان الشوق يأكلني وأنا أنتظرك.

ـ لم أعد أطيق البعد عنك.

ـ حتى أنا، أراك في كل شيء وأحس بك في كل شيء، أنا مجنونة بك.

ـ أنا الذي فقدت عقلي، ولم أعد أحتمل، كلما جئت لزيارة يحيى أكون شارداً عن سخافاته وأحاديثه المجوجة وأظل أبحث عن عينيك من خلال الشيش، أحبك.. أحبك يا حياة.

ضمها إلى صدره وارتفعت طرقعة قبلة، تجاذباها وغرقا سوياً ينهلان من بعضهما بلهاث محموم.

أظن أنني هويت على الأرض، فارتطم جسدي بالحنفية المسندة بالمطبخ وقبل أن أغيب، كان جسدان يفترقان وصرير باب وأقدام تركض وأشعة شمس باردة تمشط جسدي لأفيق من حلم تبعثر وقلب يرف كطائر بلله مطر شتاء قارس.

أفقت تماماً، ودلفت للبرندة، حرائق تشتعل ونصل عشق يتكسر، وحلم يشيخ، وحسرة تخضر بالفؤاد، وغربة جديدة تلوح في الأفق. ارتديت ملابسي، واحترت أمام ذلك المنديل المصرور وتلك الجملة النائمة عليه بخط أنيق (اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب) ترددت كثيراً قبل أن أحمله، وبدون تفكير دسسته بجيبي وتركت كل شيء خلفي وانطلقت للموقفة.

❀ ❀ ❀

وقفت من جديد بالموقف استعداداً لغربة جديدة.

لغط، وسيارات وسائقون وكمسارية وباعة ومسافرون، ورجل يركض في الزحام صائحاً:

ـ أغيثوني لقد ضاعت زوجتي.

عنفه أحد السائقين بكلمات نابية فرد عليه:

ـ هي غريبة وقد اختفت في هذه الزحمة.

فتقافز كثير من الرجال للبحث عنها، انتابني شعور بالارتياح وهاجس أخذ يلح بالبال:

ـ لست وحدك ضائعاً.

كان الرجل يصيح بانفعال ومن خلفه ركض شاب ـ أظن أنني لمحته في مكان ما ـ يمسكان النساء ويتراجعان عندما تصيح النساء مستنكرات فعلهما.

وجدوها تسير بدون هدى في إحدى الطرقات وعادوا بها، كنت أسمع الرجل يصيح بها بانفعال:

ـ أين ذهبت؟

ـ..........

ـ عليك ألاّ تتحرك إلا بأمري.

ـ..........

فناولها ثوبه صائحاً:

ـ امسكي بي.

فقبضت يدها على ثوبه باسترخاء، وهو يردد:

ـ لا تتحركي إلا بأمري.

هزت رأسها، ولمحت عينيها من خلف البيشة ـ أظنهما كانتا دامعتين ـ أحسست بالشفقة عليها، وحين لاحت عينا حياة أخذت أركض بحثاً عن سيارة تقلني للرياض.

حشرت جسدي بالسيارة وجلست بمقعد يجاوره مكان شاغر ارتضيت بموقعي متمنياً أن يظل المقعد الذي يجاورني شاغراً طوال الوقت، كنت أتوق لأن أظل وحيداً، لا أريد أحداً. فقط أريد استرجاع شجني وحيداً ولكي تتحقق هذه الأمنية وضعت شنطتي الصغيرة على الكرسي الشاغر وتقاذفتني الأسئلة:

ـ هل أحتاج لوقت طويل قبل أن ألتقي بخالتي، هل أجد طاهر آخر في طريقي، وحياة أخرى تسقط جبل الرماد المتماسك؟

كانت الأسئلة تلوب بمخيلتي وتتكاثر، سمعت صوتاً صارخاً مجتداً:

ـ امسكي بي.

التفت، كان يجذبها بغلظة، غرست عينيها بوجهي:

ـ إنها هي، يبدو أنها عازفة عن السفر.

كان يتقدمها وهي تمسك بثوبه باسترخاء وقدماها توسوسان بالتراجع أكثر من الإقدام، عيناه الصغيرتان الدوديتان تصطدمان بعنف بكل العيون المحدقة بهما، جذبها من يدها نمنمات الحناء الدقيقة المتعرجة بيدها البضة، لكزني بكتفي:

ـ تقدم للأمام، واترك لنا هذين الكرسيين.

كان جلفاً فبادلته الصراخ:

ـ وهل اشتريتهما؟

رأيت عينيها من خلف البيشة كانت تنهب وجهي نهباً. ببرودة تسري بأوصالي، لا زال صوته يصر كبوابة باب حديدي صدئ:

ـ استح فمعي أهلي.

ـ أبحث لك عن مكان آخر فلن أتحرك من مكاني.

جذبها مرة أخرى وهو يصيح:

ـ انزلي، لنبحث لنا عن سيارة أخرى.

كانت عيناها المخضلتان بالدموع تقفان على وجهي، جذبها بينما لا زال ذلك الفتى ينتظرهما بملل، وعندما رآه يهم بالنزول صاح به:

ـ ما الذي حدث؟

وقبل أن يرد عليه تدخل السائق ضاحكاً وموجهاً حديثه لي:

ـ ألا تريد الجلوس بجواري؟

فتحركت مفسحاً المكان للرجل الفظ ولتلك المرأة الدامعة، عيناه الدوديتان تتسعان بغيظ، وهو يمسك بيدها ويدفعها للمقعد الخلفي، سمعت هنهنتها ـ الآن تأكدت أن عينيها كانتا دامعتين.

ـ استوينا في مقاعدنا، اقترب ذلك الفتى ـ الذي ينتظرهما ـ من النافذة ومد عنقه:

ـ عبد الله هل تحتاج لشيء.

كان رده مختصراً جافاً:

ـ لا.

فتعلقت تلك المرأة بالنافذة وهي توصيه:

ـ سلم لي على أمي وأخواتي.. قل لأمي..

فلكزها بمرفقه لتصمت، فصمتت. وانطلقت السيارة تخب في الطرقات البعيدة، آه ليس هنا حادٍ يحدو بنا القفار ويرطب وحشة اختمرت بقلوبنا، من بعيد، ومن تلك الرحلة البعيدة أفاق صوت الحادي وهو ينشد بصوت لين عذب ويتسرب لداخلي كحبات ندى الطل فيمور صدري، وأحاول جاهداً كف دموعي من الانهمار مع تلك الكلمات الحارقة:

ـ يا مسافر وتارك حبيبك

قله يترك عرفه في الشام

ولا في طريقك

تكومت بجوار النافذة والسيارة تعبر بقعاً نائية، تقف عليها العين بشرود ولوعة تنبعث من هناك، من أيامنا الأولى، وتمطرنا بالحنين.

أبحرت الأسئلة في مخيلتي تجذف وتدخلني في أنفاق من الظلمة، وكلما خرجت من نفق سمعت هنهنة تلك المرأة، فألتفت إليها لأجد عينيها تقفان على وجهي وهي تخالس مرافقها النظرات العدائية فأهرب من عينيها بالنظر للطرقات القادمة فتتشجر بمخيلتي الأسئلة وتتقاذفني لأنفاقها المظلمة.

المحتويات

إهداء ٥
استهلال ٧
الفصل الأول ١٥
الفصل الثاني ٣١
الفصل الثالث ٧٧
الفصل الرابع ١٠٩
الفصل الخامس ١٣٥
الفصل السادس ١٥٥
الفصل السابع ١٧٣
الفصل الثامن ١٨٥
الفصل التاسع ٢٣٧
الفصل العاشر ٢٩٥
الفصل الحادي عشر ٣٢٥